# مصر الفرعونية




تأليف: جان يويوت



ترجمة: سعد زهران

مراجعة: دكتور عبد المنعم أبو بكر



الألف كتاب ٦٠١

# مصر الفرعونية

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب ٦٠١

# مصر الفرعونية

تأليف : جان يويوت

ترجمة : سعد زهران        راجعه : دكتور عبد المنعم أبو بكر

الناشر
مؤسسة سجل العرب
بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده
٢٦ شارع شريف باشا القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩ ، ٥٢٣٠٩

١٩٦٦

هذه ترجمة الفصل الخاص بتاريخ مصر الفرعونية من موسوعة :

HISTOIRE UNIVERSELLE

والفصل بعنوان : ÉGYPTE ANCIENNE

تأليف : JEAN YOYOTTE

# فهرست تحليلى

صفحة

صفحة

صفحة

# الفصل الأول

## مولد مصر الفرعونية

فى الأزمنة السحيقة التى ظهرت فيها قطع الصوان المشحونة ( وهى الشواهد الأولى على النشاط الإنسانى ) فى شمالى شرق أفريقيا ، كان هذا الجزء من العالم ما يزال بعيداً عن الوصول إلى شكله الجغرافى الحالى . كان نهر النيل ، وهو يتابع انحسار البحر البليوسينى(١) ما يزال يغمر المنطقة التى أصبحت اليوم صعيد مصر ، ولم يكن قد تشكل منه سوى المدرجات العليا للوادى . وكانت المياه الجارية تتدفق بغزارة يحملها المجرى القديم الذى تحدد معالمه اليوم واحات الصحراء الغربية ، كما تحملها الوديان التى تخترق الصحراء الشرقية وسلاسل جبال البحر الأحمر . وفى هذه المناطق التى أصبحت الآن صحراوية ، كانت تجرى عملية جفاف بطيئة بدأت تأخذ شكلاً محسوساً منذ العصر الجليدى ، وأخذ مناخها يتحول من البرودة إلى مناخ حار رطب ، وتبع ذلك أن تحولت الثروة النباتية من نباتات بسيطة إلى نباتات استوائية ظلت سائدة طيلة العصر الحجرى القديم . ولمدة طويلة ظل الفيل والخرتيت والجاموس البرى وغيرها من الوحوش الكبرى ، ظلت منتشرة فى المنطقة المصرية فى متناول يد الصيادين ، وهناك دلائل لوجودها فى البرارى الممتدة على جانبى النيل إلى بداية العصر الحجرى الحديث . ولكن الإنسان كان قد بدأ فى تلك الفترة يهاجر إلى الواحات ، إلى ضفاف المجارى المائية القديمة ، وإلى الوادى الذى أخذت

---

(١) يعنى به المؤلف البحر الأبيض المتوسط كما كان يظهر فى مرحلة البليوسين فى العصر الجيولوجى الرابع . [ المترجم ]

مستنقعاته تمتلىء شيئاً فشيئاً بطمى نيل بدأ آنذاك يستقر فى مجراه ، أو إلى الدلتا التى كانت عملية تكوينها تتقدم باطراد . وأخيراً اتخذت البلاد عند بدء التاريخ شكلها المعروف حالياً . ولكن يبدو أن النظام الصحراوى لم يكن على هذا الحد من الصرامة الذى نراه فى أيامنا هذه ، إذ كانت ينابيع المياه أكثر غزارة والحيوانات أكثر وفرة مما هى عليه اليوم .

## حضارات ما قبل التاريخ

فوق مدرجات الوادى ، وعلى شطآن النهيرات والبحيرات التى جفت فى كل من الصحراوين الشرقية والغربية ، تعرض قطع الصوان التى ترجع إلى العصر الحجرى القديم جميع الأوجه الحضارية (تقريباً) التى لوحظت فى أوربا على التعاقب ؛ فهناك : القبضة ( الشيلية )(١) والسمكة ( الأشيلية ) ، والشقفة ( الكلاكتونية ) ، ثم هنالك الأسلحة والأدوات المتميزة والتى يناظر طابعها طراز العصر ( الموستيرى ) والعصر الحجرى القديم الأعلى ( الكبسى والسبيلى ) . إن تعاقب هذه الحضارات المختلفة وتلاحمها ليدل بوضوح على اطراد التقدم الإنسانى لدى المصريين الأوائل الذين كانوا يعيشون على القنص وصيد الأسماك ، وكانوا يعرفون نحت الخشب ، والذين يعتقد أنهم أول من حفروا الرسوم الصخرية التى وجدت فى الصحراوين .

وقد تم اكتشاف قرى وجبانات تعود إلى العصر الحجرى الحديث ، وذلك فى أماكن متفرقة على حافة الصحراء . أما القرى والجبانات التى أقيمت فى الوادى المنخفض فقد غرقت تحت طبقة سميكة من الطمى . وفى هذه المحلات تتخذ الأدوات

---

(١) الكلمات التى بين القوسين فى هذه الصفحة هى الأسماء التى يطلقها علماء الآثار على المراحل المختلفة التى مرت بها حضارة العصر الحجرى القديم ، وهى مشتقة من أسماء أماكن أوربية عثر فيها على آثار ذلك العصر .

[ المترجم ]

الحجرية أشكالا أكثر تلاؤماً باطراد مع استعمالاتها المختلفة : فروس الحراب والرماح مشغولة بدقة ورشاقة ، والفئوس الرائعة الصقل ثمرة عمل طويل شاق . وولدت وتطورت صناعات النسيج والجلود والخوص والعظم ، إذ قطعت العظام بمهارة لتسليح حراب صائدى الأسماك ولصنع الخارز والحلى . وفى نفس الوقت قامت صناعة الفخار ، وكانت أشكالها كثيرة التنوع على الرغم من خشونتها . وأخيراً — وذلك أمر هام بصفة خاصة — فإن حبات القمح والشعير التى بقيت عالقة بجدران الصوامع تثبت أن الاقتصاد الزراعى ، وهو القاعدة الأساسية للحضارة الفرعونية ، قد وصل إلى الاستقرار .

وحضارات العصر النحاسى ( الإنيوليتى ) فى مصر لا تعدو — فى مجموعها — إلا أن تكون مكملة لحضارات العصر السابق ، إذ يبدو أن صناعة النحاس لم تتقدم إلا ببطء شديد فى وادى النيل ، ولم تجلب معها أية ثورة صناعية . لقد استخدم النحاس الخالص المشكل بالطرق إلى جانب العظام فى صناعة الأشياء الصغيرة . أما شظايا الصوان المشقوف بعناية فقد ظلت صناعة مزدهرة باستمرار حتى الأسرات التاريخية . ويتسم العصر النحاسى فى مصر بتقدم عام فى جميع مجالات الحضارة ، وهو تقدم استمر خلال المراحل المختلفة لهذا العصر وهي : المرحلة القديمة ( البدارى )(١) والوسطى ( نقادة « ١ » ) والحديثة ( نقادة « ٢ » ) ، ولا تتميز هذه الأخيرة عن أوائل عصر الأسرات . وزودت أكواخ البوص والطين بأثاث مريح كالأسرة والمخدات . وظهرت الرسوم على الأوانى الفخارية التى كثرت أشكالها جداً . فى ( العمرة ) كانت الرسوم صفراء على أرضية حمراء ، وفى ( جرزة ) كانت

---

(١) قسم علماء الآثار حضارات ما قبل التاريخ فى مصر إلى مراحل مختلفة ، سموا كل واحدة منها بأسماء الأماكن التى عثروا فيها على بقاياها الأثرية ، وهى الأماكن الموضوعة أسماؤها هنا بين القوسين .

الرسوم حمراء داكنة علي أرضية فاتحة . ولم تقتصر الرسوم على الزخارف الهندسية بل تعدتها إلى رسوم كروكية جميلة للجبال والأشجار والمياه والبجع الوردى وأنواع الماعز المختلفة ، والمراكب كانت ترسم كثيراً ، وأجسام الإنسان أحياناً . وكان سكان الوادى يذهبون لينقشوا صوراً مشابهة على صخور الصحراء .

وأخذ الصناع يشكلون آنية فخارية أو حجرية على صور مبسطة للحيوانات المتوحشة والمستأنسة ، كما صنعوا لوحات من الشيست (حجر الإردواز) تصحن عليها أكاسيد الرصاص والنحاس المستخدمة فى تزجيج العيون بنفس الأشكال . وكان سكان البدارى ثم العمرة يهوون نحت صور الإنسان والحيوان على العاج أو تشكيلها من الصلصال . وقد أصاب فن النحت القديم فيما قبل الأسرات نكسة فى المرحلة الأولى من (نقادة «٢») ، ولكنه يعود ليبلغ أوجه فى نهاية هذه المرحلة ، ولم يلبث أن اكتسب القيم والتقاليد الفنية الخاصة بالرسم الفرعونى ، ووصل إلى حد البراعة التامة فى نحت الأوانى الجميلة من الحجر الصلب وفى التصوير البارز على مقابض السكاكين والأمشاط العاجية والدروع ، وتصوير المناظر الحربية وتشكيلات الحيوان .

## المعتقدات الأولى

فى العصر الحجرى الحديث كان الموتى يدفنون فى حفر بسيطة ، راقدين فيما يسمى بالوضع « الجنينى » ومتجمعين فى جبانات ، وكانوا يزودون ببعض حاجيات الاستعمال اليومى من أجل حياة أخرى : وأصبح الأثاث الجنائزى أكثر تنوعاً فى العصر النحاسى .

وكانت الحفر تسقف وتبطن بالحصير من أجل حماية الجثمان . وأحياناً كانت ترسم شارات الآلهة وصور الحيوانات على لوحات ما قبل التاريخ . وهكذا تمدنا

آثار هذه الفترة بعض الأدلة عن المعتقدات الجنائزية وعن آلهة المصريين الأوائل . ولكن ثبت — من جهة أخرى — أن أشكال الآلهة والطقوس الدينية السائدة فى الأزمنة التاريخية تستند إلى تقاليد ترجع ، على أقل تقدير ، إلى مرحلة حضارة نقادة . وبعض الرموز الهيروغليفية ترسم بإتقان أشكال بعض المعابد المحلية كما كانت مبنية حينذاك بالخشب والبوص . وتحتوى المجموعة الجنائزية لنصوص الأهرام على ذخيرة قديمة من الأساطير والآيات السحرية . ويعيد صولجان الملك وطريقة حلاقة شعر الرأس خصائص الأسلاف من الملوك الأوائل دون تمييز . وأخيراً فإن أغلب الآلهة المحليين الذين عرفوا فيما بعد ينتمون ، بكل تأكيد ، إلى المجموعة السحيقة القدم لآلهة الوادى .

والرايات التقليدية للمقاطعات الكبرى ، وعبادة الأشجار والحيوانات ، ومقدسات بعض المعابد هى فى مجموعها استمرار للولاء الذى عبر عنه المصريون فيما قبل التاريخ نحو القوى الخفية الكامنة فى النبات والمعدن الخام أو المشغول ، والكامنة فى الحيوان بصفة خاصة . وما من إله إلا ويمكن أن يتخذ شكل حيوان ما، سواء أكان غريباً أم مرهوباً ، ذا فائدة أم ذا بأس ، فهناك :(١)

الثور : [ هسيبو ، خاسو أو ، أبيس ] .

البقرة : [ إيهيت ، حيسات ، سيخات حور ، أشكال متعددة لحاتحور ] .

الكبش : [ بيتى ، أرزافيس ، كبش منديس الشهير ، أشكال متعددة لخنوم فى جزيرة إلفنتين ومدينتى هور ومنف ] .

الكلب : [ النوع العادى أوفوئيسى ، أشكال متعددة لأنوبيس ]

---

(١) أمام أسماء الحيوانات نكتب أسماء الآلهة التى اتخذت أشكالها . و « الأشكال المتعددة لحاتحور » ( مثلا ) معناها أن الإلهة البقرة ظهرت باسم حاتحور ولكن بأشكال متعددة فى أقاليم أو مدن أو أزمنة مختلفة . [ المترجم ]

الكلب السلوق : [ زيث ]
الأسد : [ أوبستيس ، تفنوت ، شو ، أشكال متعددة لسخميس ]
التمساح : [ إيك — فى دندرة ، أشكال متعددة لسوخوس ]
الثعبان : [ واجت ، إرموثيس ]
الصقر : [ موت ، نخابيت ]
أبو منجل : [ تحوت ]
الباشق : [ أشكال متعددة لحورس ، عنتيوى ، دوناوى ، سوكاريس ، سويدو . . . الخ ]
القرد : [ تحوت ، بابا ]

ثم هنالك النموس والأسماك والحشرات حتى أصغرها حجماً . وباختصار فقد عبد المصريون القدامى كل أنواع الحيوانات التى عاشت فى الجزء الأسفل من وادى النيل فى الأزمنة السحيقة .

ومنذ ذلك الحين أخذت فكرة تجسيد الآلهة على هيئة آدمية تطغى على الأشكال القديمة للمعبودات ، وهكذا نشأت طريقة تمثيل الآلهة بأجسام آدمية ورءوس حيوانات ، وهو الطابع الذى تميزت به الآثار الفرعونية .

وليس إظهار كل من أوزوريس وبتاح ومين فى صورة مومياء سوى تهذيب للأشكال البدائية التى ظهرت بها الأصنام الغارقة فى القدم . ولقد ظل كل إله من آلهة قدماء المصريين إلى آخر العبادة الوثنية سيداً أعلى لمدينة بعينها .

واستقر الرأى استناداً إلى دلائل مختلفة على التفرقة بين بدايات هذه الآلهة وبين الطواطم(١) ، إذ إن لهذه الكلمة مدلولا واضحاً عند علماء الاجتماع ، وكانت هذه

---

(١) طواطم جمع طوطم Totem: وهو رمز تتخذه القبائل البدائية المتأخرة .
[ المترجم ]

الآلهة فى بدايتها معبودات قبلية لجماعات بشرية متعددة مستقرة هى التى كونت فيما بعد الأمة المصرية . ولقد تقاربت آلهة هذه الجماعات وأساطيرها فى نفس الوقت الذى كانت تتجمع هى فيما بينها : وقد يكون فى ذلك تفسير للطبيعة المركبة للعائلات الأسطورية القديمة ( مثل عائلة أوزوريس والتاسوعات المحلية(١) ) ، كما قد يكون فيه تفسير للأشكال المتناقضة الواردة فى بعض الأساطير الإلهية وفى شخصية بعض الآلهة ، مثل شمس هليوبوليس التى تتمثل فى رع ، وحور آختى ، وآتوم ، وخيرى ، أى تتمثل فى نفس الوقت فى صورة نجم ، وثور ، وباشق ، وجعل .

وقد حازت بعض الأساطير التى تكونت بهذه الطريقة إقبالا خاصاً منذ الأزمنة القديمة ، وسيطرت فيما بعد على كل الديانة المصرية . وسادت تلك الأساطير بما يتفق والمفهومات الخاصة بالآلهة المثلين للمصريين ، سادت إما كتفسير للخليقة وإما كتبرير لمصير الإنسان ، حيث كان الاعتقاد بإمكان خلود جميع عناصر الإنسان :

من الروح ( با ) إلى القرين ( كا ) والظل ، وحتى الجسد .

أما عن نظريات خلق الكون فيبدو أنه كان ثمة مبدأ مشترك بينها جميعاً : فى البدء ، وقبل الخليقة كانت الطبيعة بحرا خضما هائل الحجم ، وتلك هى الـ ( نون ) . وفى يوم ما تجلت قدرة الإله الصانع فى ظهور مرتفع من الأرض فوق المياه . ولم تلبث أن سادت البلاد كلها فكرة تكون الأرض اليابسة بين سمائين ، سماء فى الماء حيث تسبح النجوم فى مراكبها ، وسماء مماثلة فى الأعماق ، ليس الفيضان إلا بعثاً متجدداً لها . ووفقاً لفكرة انتشرت فى الدلتا كانت قبة السماء تشبه بقرة هائلة تبتلع الشمس الغاربة ثم تلدها نجماً متجدد الشباب فى الصباح . أما النظرية التى

---

(١) جمع تاسوع ، وهى عائلة من تسعة آلهة تشكل مجمعاً إلهياً يهيمن على مدينة أو منطقة بعينها . [ المترجم ]

ظهرت فى مدينة ليتوبوليس فكانت أقل رواجاً ، وهى تعتبر السماء وجهاً للإله خنتى إنيرتى ، عينه اليمنى شمس وعينه اليسرى قمر ، تفتح الواحدة بعد الأخرى على التعاقب . وكانت نظريات الخليقة تتنوع بتنوع التصورات المختلفة لبداية الكون : فهناك التصور القائل بأن الإلهين بتاح وخنوم بدآ بتشكيل عالم من الصلصال على دولاب الفخار . وهناك تصور آخر يقول إن الإله القرد ( تحوت ) إله هرموبوليس ( الأشمونين ) قد استدعى الإله الشمسى الصانع واستعان فى عملية الخلق بثامون من الثعابين والضفادع ، تلك الأرواح الغامضة التى ولدت من المياه الأولية . وفى مكان آخر ظهرت فكرة أن الإله آتوم ، ذا الجسم الإنسانى والرأس الشمسى ، استخدم يده وجهازه التناسلى فى بذر المخلوقات . ووفقاً لما ذهب إليه سكان هليوبوليس — ولد بتلك الطريقة كل من الإله شو ( إله الهواء ) وزوجته تفنوت . وهذا الزوج الإلهى الأول أنجب الأرض ( جب ) والسماء ( نوت ) . وقد شكل رجال اللاهوت فى هليوبوليس التاسوع الشهير بإضافة هذه الآلهة الكونية الخمسة إلى آلهة أربعة هم ممثلو أسطورة أوزوريس . لقد قتل أوزوريس ، إله مدينة بوزيريس ، على يدى عدوه الإله ست وأعيد إلى الحياة بفضل رعاية زوجته إيزيس وأخته نفتيس . ومما لا شك فيه أن هذه الأسطورة كانت فى بدايتها تعبيراً عن البعث فى دورة الحياة الزراعية . وأخذت هذه الأسطورة شكلها النهائى بإضافة فصل أخير إليها ، يظهر فيه حورس إله مصر السفلى ، وريثاً ومنتقماً لأبيه أوزوريس ، فى صراعه ضد ست ، إله أومبوس ( البلاص ) ومصر العليا .

كانت حياة أوزوريس ، الملك الدنيوى الذى مات ثم بعث ، هى المثل الذى يرنو إليه كل إنسان ضماناً للحياة بعد الموت . ولكن ، قبل أن تسود الأسطورة كالمبدأ الجنائزى الأول ، سادت قبلها آلهة ومعتقدات أخرى ، ومن أمثلتها : فكرة مملكة الغرب الغامضة ، هذا الملجأ الأخير للشمس والبشر . وهناك أيضاً « نظرية النجوم »

التى تقول بأن الموتى يصعـــدون إلى السماء نجوماً . وقد لا تـكون نظرية أهل هليوبوليس عن المصير الشمسى للملك سوى تطبيقاً لها . وأخيراً نشأت عبادة الكلب أنوبيس الذى نما دوره كمحنط وحام للموتى فى نفس الوقت الذى انتشر فيه فن التحنيط .

## الدول المصرية الأولى

إن الأدلة الجزئية التى فى متناول يد عالم الأجناس واللازمة لإصدار حكم عن الأصول البشرية لقـــدماء المصريين ، و هى الجماجم والهياكل العظمية وصور الإنسان على آثار ما قبل التاريخ ، وعناصر اللغة ، وأوجه التقارب بين السلالات ، إن تلك الأدلة — وإن تنوعت — فهى تسمح بتأكيد أن السلالة المصرية هى نتاج عملية تهجين بالغة القدم . إن الرجال المصورين فى مقابر جبانة منف وفلاحى اليوم يشكلون فى مجموعهم نموذجاً بشرياً مشتركا ، ومن ثم يحق لنا أن نتحدث عن وجود سلالة مصرية متميزة : القامة متوسطة ، والجسم قوى ، والأنف عريض مستقيم ، والشفتان غليظتان ، والشعر مجعد أسود ، والبشرة تختلف درجة سمرتها باختلاف خط العرض . ولم يتغير أصل السلالة المصرية تغيراً ملموساً بفعل الهجرات التاريخية : من الهـكسوس الساميين ، إلى الإغريق والعرب ، إلى استجلاب أسرى الزنوج والليبيين والآسيويين فى الدولة الحديثة على ضفاف النيل ، ثم إقامة الحاميات الأجنبية أيام الفرس . لقد تشكلت هذه السلالة فى عصور نقادة بامتزاج سلالات سوداء مع وافدين بيض جدد من حوض البحر الأبيض المتوسط أطلق عليهم اسم الحاميين ، وأخيراً الامتزاج بالساميين . ويستخلص من ذلك أنه من الخطأ اعتبار المدنية الفرعونية مدنية البحر المتوسط أو مدنية إفريقية أو مدنية سامية أو حامية ، سوداء أو بيضاء . فالمدنية المصرية نتيجة جماع متناسق للصفات الخاصة بالأجناس المختلفة التى انصهرت فى وادى النيل ، ولأفـكار تلك الأجناس وفنونها وقدرتها على الخلق .

لاشك أن الضرورة التى أملت التجمع من أجل الحصول على أكبر فائدة من الأرض ومن المياه بالرى والصرف الواسع النطاق ، كانت تلك الضرورة أهم العوامل التى أدت إلى انصهار القبائل الزراعية المستقرة فى وحدات إقليمية كبيرة نسبياً . ولم تكن الشعارات التى اتخذتها الأقاليم الإدارية فى الدولة الفرعونية فيما بعد سوى امتداد للرموز المقدسة لتلك الوحدات — من أشجار وحيوانات وتمائم وأصنام قديمة . وكونت تلك الدويلات فى تاريخ سحيق جداً مملكتين كبيرتين تتفقان مع التقسيم الطبيعى للبلاد إلى دلتا فى الشمال ووادٍ ضيق فى الجنوب . وقد أثبت علماء الآثار أن حضارات العصر الحجرى الحديث والعصر النحاسى تكشف عن فروق فى درجة التطور الحضارى فى الوجهين ، إذ كانت حضارات الشمال أكثر تقدماً بشكل عام . ومن جهة أخرى إذا تأملنا التقاليد الدينية ، ولاسيما تلك التقاليد الخاصة بالعلاقات الأسطورية بين حورس إله مصر السفلى ومنافسه سيت إله مصر العليا . يمكن أن نستخلص وجود مملكة فى الجنـــوب قبل التاريخ عاصمتها أومبوس ( البلاص )(١) ، تقابلها مملكة فى الشمال عاصمتها بحدت ( بلامون )(١) . وفى أثناء الألف الرابع قبل الميلاد احتل أتباع حورس مصر العليا . ولا نكاد نعرف شيئاً عن هذا التوحيد الأول سوى حدوثه ، ولكن ، مما لاشك فيه أن الأسس الأصيلة للدولة الفرعونية كما تظهر فى عهد الأسرات قد أرسيت خلال تجربة تلك الدولة المركزية الأولى . وقبل عام ٣٠٠٠ ق . م تعود البلاد مرة أخرى منقسمة إلى مملكتين متقابلتين ، على رأس كل منهما ملك من « خدام حورس » ، وهم ملوك يضعهم الحوليون المصريون فى مصاف أنصاف الآلهة . وكانت عاصمة الشمال توجد غربى الدلتا ، ويضع قائدها على رأسه تاجاً أحمر هو الشعار والزينة التى تتخذها الإلهة نيت سيدة سايس ( صا الحجر )(١) والإلهة الثعبان واجت سيدة مدينة بوتو ( تل الفراعين )(١) . واتخذ ملوك الجنوب التاج الأبيض شعار الإلهة العقاب نخبت

---

(١) أسماء البلاد الحالية التى توجد مكان المدن الأثرية أو بالقرب منها من وضعنا .
[ المترجم ]

سيدة مدينة نخب ، واتخذوا عاصمة لهم المدينتين التوأمتين نخن ونخب (مدينة الكاب إلى الشمال من إدفو) ، ولم يلبثوا أن استولوا بدورهم على مملكة بوتو فى الألف الثالث قبل الميلاد . وقد عرفنا بعض أعمال آخر ملكين من ملوك الجنوب عن طريق القرابين التى عثر عليها فى معبد حورس بمدينة نخن ( هيرا كونبو ليس ) ، وعلى رأس دبوس(١) كبير عثر عليه فى ذلك المكان نجد صورة للملك « العقرب » وهو يضع حجر الأساس لأحد المنشآت فى مدينة بوتو . وتحيى اللوحة الأثرية الكبيرة الخاصة بالملك نعرمر ( وريث العقرب ) ذكرى انتصار هذا الملك على سكان منطقة مريوط . ويظهر نعرمر على هذه اللوحة على رأسه التاج الأحمر بصفته ملكا للدلتا ، مثلما تظهر على رأس الدبوس الصغير الصادر بمناسبة يوبيله(٢) . وتسجل لوحات أخرى من الشيست انتصارات المصريين على قبائل تحينو الليبية . وبعد أن فرغ ملوك هيرا كونبوليس من تهدئة الشمال أخلوا مكانهم لبيت ملكى جديد ، هو أول أسرة ملكية فى التاريخ الإنسانى .

## الأسرات الطينية

كانت الأسرتان اللتان حكمتا مصر بعد أن أعيد توحيدها تنتمى كلتاهما إلى (تاأور) (٣) وهو الإقليم الذى سمى فى العصر المتأخر بإقليم طينة ، ودام حكمها ما يقرب من

---

(١) كانت الهراوة من أدوات الحرب الأولى قبل التاريخ ، وهى تتكون من عصا خشبية غليظة ورأس ( على شكل رأس دبوس ) حجرى يتراوح قطره بين ١٠ ، ٢٥ سم . وقد استخدمت رؤوس الدبابيس هذه فى التسجيلات الهامة .

[ المترجم ]

(٢) اليوبيل : حفل كبير يقام عادة بمناسبة مرور ٣٠ سنة على تولى الملك العرش لتجديد البيعة له ، وذلك عوضاً عن الحفلات المشابهة التى كانت تقام بعد مرور مدة مماثلة ويضحى فيها بشخص الملك نفسه فى الأزمنة السحيقة .

[ المترجم ]

(٣) بالقرب من البلينا . [ المترجم ]

مائتى عام (من حوالي ٣٠٠٠ إلى ٢٨٠٠ ق.م) ، خلالها استكملت الأسس الاجتماعية والحضارية لمصر الفرعونية مقوماتها . وقد ظلت هذه الفترة ، ولمدة طويلة لاتقل أسطورية عن فترة «خدام حورس» . ولم نستخرج مما تبقى من أعمال مانيتون عن تلك الفترة سوى أقاصيص هزيلة تمت إلى الخيال أكثر مما تمت إلى الحقيقة . وكان ما نيتون (من مدينة سبينيتوس)(١) مثقفاً ومؤرخاً معاصراً لبطليموس الثانى، وضع مؤلفاً كبيراً عن التاريخ المصرى القديم باللغة اليونانية ، ولكن لم يتبق منه سوى قائمة الأسرات وبعض الملاحظات السريعة. وقد تحققت قائمة مانيتون بالعثور على قوائم هيروغليفية للملوك محفوظة فى أبيدوس وسقارة ، وفى قائمة الملوك المثبتة فى بردية مهلهلة بمتحف تورين ، وكلها أصول ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة . ومن حسن الحظ أثبتت معلومات أكثر إيجابية عن أعمال أسرتى طينة فى وثيقة أكثر قدماً ، وتلك هى حجر بالرمو ، وهى جزء من حوليات تاريخية كتبت ونقشت فى مدينة منف فى عهد الملك كاكاى من الأسرة الخامسة . وفى أواخر القرن الماضى عثر الباحثون على مجموعة من الجبانات ترجع إلى عصر الأسرتين الأولى والثانية أمدتنا بعدد وافر من القطع الأثرية،تحمل أسماء ممثلى الأسرات الأولى : فى مقدمتها المقابر الكبيرة فى أبيدوس ونقادة ، ثم مقابر أخرى للأشراف ، ومدافن أكثر تواضعاً فى سقارة ونزلة بدران وأبو رواش ، وأخيراً فى حلوان . وأهم تلك الجبانات توجد فى عاصمتى ذلك العصر فى أبيدوس حيث يعبد خنتى إمنتيو (إله الموتى) وتقع أبيدوس فى إقليم فى طينة الذى اكتشفت فيه مقابر الملوك أنفسهم، ثم فى سقارة حيث مقابر الأشراف ، وقد يكون من بينها أضرحة للملوك فى جبانة « المدينة المحصنة ذات السور الأبيض » (٢) وكان ذلك السور الذى لايقل أهمية عن أبيدوس هو باكورة

---

(١) سمنود . [ المترجم ]

(٢) وتلك هى مدينة منف . [ المترجم ]

أعمال أول ملوك طينة ، وهو الملك الأسطورى مينا ( ويرجح أن اسمه الحقيقي الذى ورد فى الآثار هو حورس .عا حا ) . وكانت تلك المدينة تقع على التخوم بين الدلتا ومصر العليا ، وكانت لذلك صالحة كمقر للحكومة التى تشرف على « القطرين » .

وقد تبين من الآثار الطينية أن الملك غالباً ما يتخذ اسم تتويج يرفق باسم الإله الباشق حورس ، الذى كان يعتبر كل أمير تجسيداً جديداً له . ولما كان الملوك ورثة بيتين مالكين من قبل الأسرات ، فقد أشير إليهم على الآثار بلقب آخر هو « نبتى » أى « أتباع السيدتين » ، وذلك إشارة إلى نخبت ( إلهة مدينة نخب ) وواجت ( إلهة مدينة بوتو ) . وأخيراً ، وابتداء من الملك حورس دن اتخذ الملك اللقبين اللذين كان يحملهما عاهلا الوجهين القبلى والبحرى القدامى ، وهما نسوت وبيتى على التوالى . ولاستكمال ثالوث الألقاب الذى يؤكد ثنائية سلطة هؤلاء الملوك مع شمول سيطرتهم رأوا أن يثبتوا أيضاً أسماء المولد .

وقد ورد فى القوائم التى تحمل أسماء المولد ، أسماء عشرين ملكاً من طينة . غير أن الوثائق المعاصرة لم تقدم سوى آثار خمسة عشر ملكا فحسب ، وأولئك هم بلا شك أطول الملوك حكماً وأكثر العهود ازدهاراً . ونورد فيما يلى بيانا — لم يتأكد بعد تأكيداً قاطعاً — بترتيب هؤلاء الملوك :

فى الأسرة الأولى : عاحا ، جر ، ادجو ، عزيب ، سمرخت ، قعى .

وفى الأسرة الثانية : حتب سخموى ، نب رع ، نتريمو ، أونج ، برإيب سن ، سنجى ، خع سخم ، خع سخموى .

ولم يكن توارث العرش أمراً خالياً من الارتباكات فى هاتين الأسرتين . ففى أزمات انتقال العرش من أسرة إلى أخرى فى مصر كانت تجرى عادة عمليات لعن الموتى ، هكذا أمر سمرخت بتدمير آثار عزيب ، وأمر قعى بتدمير آثار سمرخت .

وبعد ذلك نجد فى أثناء الأسرة الثانية أن بعض الملوك أعلنوا ولاءهم للاله حورس ، والبعض الآخر ( مثل برإيب ست ) الولاء للإله ست ثم أعلنوا الولاء « للإلهين الكبيرين » معاً ، ( مثل حتب سخموى ، خع سخموى ) . ولا شك فى أن إيقاظ هذا الصراع الدينى القديم كان وجهاً لا هوتياً للصراع الذى انخرطت فيه الفرق المختلفة مستغلة فى ذلك العداء الكامن بين أهل الجنوب وأهل الشمال . لقد أصيب النظام الملكى الفرعونى فى أثناء عهد ملوك طينة بنوع من أمراض الطفولة . تداعى كل ما كان متخلفاً من عهد مينا من استقلال ذاتى إقليمى واقتصاد قبلى بفضل جهود حكومة مطلقة ساعية للمركزية . غير أن إخضاع جموع السكان المشتغلين بالزراعة للحكم الملكى الأوتوقراطى لم يتم دون متاعب ، فقد ظل من الضرورى استخدام أساليب القمع ضد ثورات الدلتا فترة من الزمن .

ورث ملوك الأسرات الأولى قوة فوق الطبيعة كانت تعزى فى الأزمنة السحيقة إلى رؤساء القبائل النيلية . وكان انتسابهم الطوطمى للإله حورس واتخاذ التاج والصولجان ، وطقوس التتويج وحفلات اليوبيل الدورية ، كان كل ذلك يزودهم بقوة سحرية لازمة للمحافظة على توازن العالم والإبقاء على حياة الكيان الاجتماعى . وبفضل هذا الامتياز الأدبى عرفوا كيف يضمنون أعلى درجة ممكنة من استغلال الأرض على أساس نوع من التسوية الاجتماعية . لقد ردت الغالبية العظمى من رعايا الملك إلى أيد عاملة مجردة من المسئولية ، بينما شكلت الطبقة الحاكمة جهازاً فريداً من الموظفين الخاضعين خضوعاً مباشراً للملك . ومنذ ذلك الحين أصبح توزيع منتجات الأرض من اختصاص الجهاز البيروقراطى الملكى . وقد عهد إلى الجيوش الملكية بمهمة استيراد المواد التى كانت البلاد فى حاجة إليها ، مثل الخشب والنحاس والبخور وخامات المعادن النفيسة والمفيدة . وأياً ما كان الأمر ، فإن المجتمع الفرعونى لم يعرف قط طبقة برجوازية تجارية قادرة — بطريقة أو بأخرى — على المساهمة

فى تطوير العلاقات بين الحكومة ومجموع السكان . إن دعائم النظام فى الدولة القديمة التى سنوردها تفصيلا فى الفصل التالى ، هى من صنع ملوك طينة .

والصورة التى سنوردها هنا تصلح فى معظمها لرسم الحالة فى الأسرة الثانية . إن أختام الموظفين التى تدمغ سدادات الأوانى التى تحتوى على المؤن الجنائزية للشخصيات الكبيرة تكشف عن ألقاب رسمية مختلفة من الأسرة الأولى سنعثر عليها ثانية أيام منف . غير أن ضآلة الوثائق المكتوبة وفقر الأدلة الأثرية قبل الأسرة الثالثة لا تسمح بتحليل كيفية نشوء أقدم وأقوى النظم الملكية المطلقة فى الشرق . وبإمكاننا أن نقطع بأن إدارة الوجهين احتفظت فى البداية بطابع ثنائى ومخاصة التقسيم المالى إلى منشأتين ماليتين « البيت الأبيض للجنوب ، والبيت الأحمر للشمال » . ولقد تمخضت عمليات التعداد المنتظمة لأشكال من الثروة منذ الأسرة الثانية عن مولد نظام ضريبى منهجى . ومنذ ذلك الحين وصل التنظيم الإقليمى الوثيق الارتباط بأعمال الرى الكبرى إلى أقصاه ، إذ قسمت البلاد إلى مقاطعات زراعية كبرى ( ٢٢ فى الوادى ، ١٦ فى الدلتا ) وسميت المقاطعة فى الزمن السحيق باسم ( سبات ) ثم بعد ذلك أطلق عليها اسم ( نوم ) . ويبدو أن البلاط كان يدير شئون مصر العليا مباشرة ، بينما عهد إلى نوع من « نائب الملك » يقيم فى منف بإدارة شئون الشمال ، ويلقب « بكاتم سر الملك لشئون مصر السفلى » . وقام مندوبو الملك بإدارة المنشآت الزراعية والقرى ومزارع الكروم والمؤسسات الملكية ( حوت ) . ومن هؤلاء المندوبين : عج مر ( أى المشرف على حفر الترع ) وخرب ( المدير ) . . ألخ .

وقد وضع ملوك طينة أيضاً المبادئ التى سار عليها خلفاؤهم ملوك منف فى السياسة الخارجية . فخاضوا المعارك ضد الشعوب المتخلفة فى البلاد المجاورة من أجل حماية أراضيهم واستجلاب الغنائم ، وأرسلوا الحملات لاستغلال مناجم الصحارى القريبة . وسافر الملك جر حتى الشلال الثانى جنوباً ، حيث سجل نقشاً بارزاً على الصخر لتخليد

انتصاراته على النوبة . كذلك أنزل الملك عنيب وخع سخم الضربات القاصمة بسكان تلك البلاد ، كما « قهر الملك دن دولة الشرق » . ومنذ ذلك الحين اتخذت بعض العمليات صفة اقتصادية خالصة : عثر بجوار الطرق الصحراوية التى تربط وادى النيل بالبحر الأحمر على نقوش صخرية ترجع إلى حكم نعرمر وإدجو . ووجدت فئة « السمنتى » منذ الأسرة الثانية ، وهم مندوبون ملكيون متخصصون فى استجلاب الذهب والخامات من الصحراء الشرقية . وكان يظن إلى وقت قريب أن أحد قادة الملك « سمرخت » زار مناجم النحاس والفيروز فى سيناء ( انظر نقوش وادى المغارة ) . ولكن الثابت الآن أن المصريين كانوا يترددون على ميناء بيبلوس البعيد ، وكان هذا الميناء دائماً أهم مركز لتصدير الخشب الفينيقى إلى مصر .

وقد تابع تطور الحضارة الفرعونية فى جوانبها المادية والأدبية التطور فى أسس النظام الملكى . إن وجود فئة من « الخدام الإلهيين » ضمن استمرار العبادات المحلية . وأمر الملوك بالمواظبة على صناعة التماثيل ، وبناء المعابد من الخشب أو اللبن ، وإقامة الأعياد الدينية . وفى تلك الأثناء تشكلت صورة مكتملة المعالم من مجموع الأساطير القديمة . واستناداً إلى الأفكار السائدة عن خلق الكون فى هليوبوليس وهرموبوليس ، صور كهنة منف إلههم بتاح صانعاً أول للأرض الطافية فوق المياه ، ونسبوا الخليقة إلى تاسوع نابع منه . وأكسب الكهنة أهم أعضاء ذلك التاسوع طابعاً مجرداً : حورس هو القلب ( أى الفكر ) الذى تخيل صورة العالم ، وتحوت هو اللسان ( أى الكلمة ) التى حققته .

ومن جهة أخرى نشاهد تقدماً سريعاً فى الهندسة المعمارية فى ظل ملوك طينة : فعلى نسق القصور الملكية بنيت المقابر الكبرى للملوك والأشراف ، وكانت تحتوى على مجموعات واسعة من الغرف الجنائزية يعلوها بناء من اللبن ، وتسقف تلك الغرف بسقف خشبى . وكانت القدور المصنوعة من الطين الخشن تشكل بالإضافة

إلى الأوانى الحجرية الفاخرة — معظم الأثاث الجنائزى . غير أن استخدام الحجر لم يعد مقصوراً على نحت تلك الأوانى ، بل تعداها إلى صناعة النصب واللوحات التى تثبت وجود المتوفى وتحدد شخصيته . ومن أمثلتها اللوحات ذات القمة المقوسة التى اكتشفت فى أبيدوس ونقش عليها اسم الميت ، واللوحات المستطيلة التى عثر عليها فى حلوان وصور عليها رسم للميت وهو يتناول غذاءه . وفى نهاية الأسرة الثانية أمر الملك خع سخموى بتغطية جدران مقبرته من الداخل بالحجر الجيرى ، وقام بتزيين معبد هيرا كونبوليس بأبواب ضخمة من الجرانيت محلاة برسوم بارزة . وقد اكتسب الصناع فى الفنون التشكيلية كل التقاليد المميزة للرسم المصرى ووصلوا إلى درجات عظيمة من المهارة الفنية ( مثل لوحة الملك الثعبان ) . وعلى الرغم من قلة معلوماتنا نسبياً عن النحت فى تلك الفترة ، فإنه من الثابت أنه أحرز تقدماً مشابهاً . وبلغت صناعة القطع الفنية الصغيرة من الخشب والعاج والمعادن والأحجار الكريمة درجة عالية من الكمال . ونورد على سبيل المثال : الأثاث والصناديق المطعمة والعقود والأسلحة المودعة فى مقابر جر وحما كا .

وتبين المجموعات القليلة من الرموز التى تظهر على لوحات ما قبل الاسرات أن نظام الكتابة الهيروغليفى كان مايزال فى دور التكوين فى بداية التاريخ. والكتابات التى وجدت على الأختام الأسطوانية ولوحات العاج الصغيرة من الأسرة الأولى ، ما تزال بدائية للغاية ، ومن ثم فهى عسيرة التفسير . ولكن اكمال الكتابة المصرية يتم فى الأسرة الثانية . ويحتوى نظـــام الكتابة الهيروغليفى على جزء تصويرى يستخدم رموزا مصورة تعبر عن بعض الكلمات، وله جانب آخر صوتى يستخدم رموزا تدل على مخارج صوتية معينة . ومن جماع هذين الجزئين تتركب مجموعة مما يشبه الألغاز المعقدة تكون غالبية المفردات .وعلى الرغم من التجاء النظام الهيروغليفى إلى أسلوب معقد فى التعبير فإنه واضح كل الوضوح . وحتى قبل أن تكتمل مقومات الكتابة المصرية القديمة توصل الكتبة إلى نوع من الكتابة الخطية السريعة ، إذ

إنهم تعودوا على استعمال قلم من البوص لمحاكاة الرموز المصورة بخطوط على الورق. ومنذ الأسرة الأولى تسجل « الأرشيفات » الإدارية والنصوص الدينية والوصفات الطبية على لفائف من الجلد أو من أوراق البردى المصنوعة بلصق ألياف ذلك النبات بطريقة خاصة . وعلى الرغم من فقدان تلك المخطوطات فإن الكتابات اللاحقة التى عثر عليها تشير إليها أحياناً .

وأخيرا يمكننا أن نقرر أن التقويم الزمنى للعصر الطينى كان قد استقر تماماً فى الأسرة الأولى. فقد توصلت الأرصاد الفلكية إلى إحلال التقويم الشمسى محل التقويم القمرى الذى اقتصرت قيمته فيما بعد على الجانب الدينى. وفى التقويم الشمسى الفرعونى تحتوى السنة على ٣٦٥ يوماً ، تبدأ نظرياً بشروق الشمس مع نجم الشعرى اليمانية فى نفس الوقت ، ولكنها فى الحقيقة تزيد بمقدار يوم واحد كل أربع سنوات .

## الأسرة الثالثة

إن الملك « حورس نيترى إرخيت » الذى اشتهر تقليدياً باسم مولده زوسر ، يعتبر منذ القدم مؤسساً لأسرة منف الثالثة ، وذلك على الرغم من كونه ابنا ووريثاً للملك خع سخموى ، آخر ملوك الأسرة الثانية . إن زوسر هو الذى أسس مقر الملك فى منطقة منف . ومن ناحية أخرى فإننا نلاحظ ازدهاراً رائعاً للحضارة الطينية فى عهده وعهد خلفائه الذين هم أقل شهرة : سخم خت ، سانخت ، خابا ، نفركا ، حونى .

فى عهد هؤلاء الملوك تصبح مقابر علية القوم أكثر اتساعاً وثراءً ، وتزيد الآثار المنحوتة عدداً وجمالاً ، كما تزيد الآثار المكتوبة كماً، وتصبح أكثر دقة . ويصل القادة العسكريون من أتباع الملوك الثلاثة زوسر ، وسخم خت ، وسانخت إلى مناجم سيناء . وكان الفضل فى تكديس تلك الثروات الفنية يرجع إلى حكمة كبير وزراء زوسر الوزير إيمحتب . كان إيمحتب كبير كهنة هليوبوليس و« كاتم سر الملك لشئون مصر

السفلى » . وقد عبد فيما بعد كإله منحدر من صلب بتاح . وكان إمحتب جديراً بهذا التقدير الكبير ، فهو خالق الحكمة المصرية بتعاليمه الأخلاقية ومصنفاته فى الطب والفلك ، وأعماله التى جددت المعرفة العلمية . وأقام إمحتب — بوصفه كبير مهندسى الملك — المجموعة المعمارية الجنائزية الضخمة للملك زوسر ، التى يحيط بها سور حجرى كبير . اتخذت مقبرة الملك شكل هرم مدرج كبير ، أقيم إلى جانبه نموذج ضخم لمعبد اليوبيل . والهياكل التى تحيط بهذه المجموعة المعمارية هى بديل مشوه للهياكل الحقيقية ، فوراء الواجهات المقامة بالحجر الجيرى كان الداخل محشواً بقطع من الحجارة الصغيرة تجعل المكان ضيقاً عديم الجدوى. ولكن الملاحظ أن الحجر لم يسبق أن استخدم على مثل هذا النطاق الواسع . وشرع الملك سخمخت فى بناء مجموعة معمارية فى سقارة أيضاً شبيهة بمجموعة زوسر بعد وفاته بقليل ، مستخدماً كتلا حجرية أكبر . وكان إمحتب قد صمم الأبنية الحجرية الجديدة على شكل أبنية البوص والخشب القديمة. ومنذ الأسرة الرابعة أحسن المهندسون الذين نهجوا نهجه استخدام الحجر فى العمارة ، وشيدوا مبانى حجرية صالحة للاستعمال العملى المباشر . وكانت مبادرة إيمحتب فى اختراع فن العمارة أكثر اكتشافاته خطورة وأبعدها أثراً: فالانتقال من عهد اللبن إلى عهد العمارة الحجرية كان يتطلب التسخير العاجل لطاقة عاملة هائلة ، ولإنجاز ذلك كان على الدولة الطينية أن تشدد قبضة الحكم المطلق على رعاياها. ومنذ ذلك الحين بدأت الدولة الفرعونية فى سياسة التوسع المعمارى الذى كان من أسباب عظمة الأمة المصرية ومن أسرار تعاستها فى ذات الوقت .

وابتداء من الدولة القديمة تكشف الحضارة المصرية عن كامل شخصيتها . ولقد ظلت العقلية المصرية وفية لمقدماتها فيما قبل التاريخ ، واستمرت مشبعة بمفهومات شديدة القرابة إلى تلك التى تسود حتى الآن الجماعات البشرية المتخلفة فى أفريقيا السوداء. ويعتقد المصريون أن الروح المقدسة تعمل كقوة حيوية كامنة فى الكائنات والأشياء . وعلى ذلك ، فإن المعتقدات المصرية تمدنا بمفهوم مادى للطبيعة أكثر

مما عدنا بنظام ما وراء الطبيعة . ولم يكن للطقوس الدينية والفنون التشكيلية والعمارة المقدسة فى حيز الحياة الواقعية مكان أقل مما للطب أو للزراعة أو لصناعة الفخار . ولم يكن النظام الملكى مجرد نظام أو « صدفة » سياسية : ففرعون ، الإله بين الآلهة ، هو بحكم جوهره الصانع لحياة شعبه الذى لا غنى عنه .

وسيجرى فى تاريخ لاحق تنازع على العرش بين الأسرات ، وتمايز الطبقات وتصارع فيما بينها ، وقد يقف بعض المفكرين بعيداً عن مسار الحركة العامة ويخططون نظما مثالية أو معايير أخلاقية مبنية على قيمة الفرد ، ولكن عالم مصر القديمة لن يتخطى حدود « الواقعية » و « الإنسانية » . فالتلاؤم الذى تم بين الإنسان ووسط جغرافى معتدل نسبياً كان على درجة من التوفيق ، بحيث لم تحس الحاجة إلى تغيير جذرى فى الإدارة إلا إحساساً ضعيفاً . إن التنظيم الفرعونى للإنتاج ولتوزيع الثروات لم يسمح قط بوجود طبقة قادرة على خلق وتحقيق ثورة اجتماعية حاسمة . وبالتالى لا تمثل الأزمات الاقتصادية والسياسية تحدياً ملحاً للمفهومات العتيقة عن النظام الاجتماعى . ويعمد القادة وهم يواجهون مشكلات الحاضر إلى إعادة الأوضاع على نفس الأسس المستندة إلى القيم الثابتة ، وهم ملء الثقة بالتوفيق الكبير الذى حققه الأسلاف الأوائل . ولن يواجه الكهان والكتبة والفنانون كثيراً بمشكلة البحث عن أشكال جديدة للتعبير أو عن مبادىء فلسفية جديدة بحق . وما يزال الريفيون من أبناء مصر ، جيلا بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، يحملون عبء ذلك التراث المصرى الثقيل ، وينهضون بدور الأداة العاملة الذى كتب عليهم أن ينهضوا به منذ البداية .

# الفصل الثانى

## الدولة القديمة

أعقب الدفعة الجديدة التى أعطاها زوسر للبلاد عمل إنشائى دءوب فى ظل ملوك طينة ، ازدهرت آثاره لمدة تزيد على أربعة قرون ، وبلغت مصر خلال الفترة التى امتدت من حكم سنفرو ، مؤسس الأسرة الرابعة ، إلى منتصف الأسرة السادسة ، أولى قممها الحضارية ، وحققت نوعاً من الكمال ليس فى إنتاجها الفنى فحسب ، بل أيضاً فى التنظيم الاقتصادى والسياسى لوادى النيل . ولم تصل الحضارة المصرية فى العهود اللاحقة ، فى نواح معينة الدرجة العالية من التطور التى بلغتها أيام بناة الأهرام .

وكأنما تتجسد قوة الملوك واستقرار حكمهم فى مدافنهم الهائلة .

والحق أن المنشآت ، والمجمعات الملكية ، ومصاطب الخاصة المقامة حول الأهرام ، تمدنا بمعظم الوثائق التى تمكننا من رسم صورة للحياة فى الدولة القديمة . إن مدافن منطقة منف هى ولا شك الشاهد الأول المادى على ما بلغته حضارة العصر من عظمة ، وما بلغته الفنون وعلوم الهندسة من كمال ، كما أنها ، بالنسبة للمؤرخ ، سجل لا ينفد ، فهى حريصة على حفظ جميع معالم الحياة فى ذلك الزمان .

ويعتمد المؤرخون من أجل التحقق من تتابع الملوك على القوائم الملكية أساساً ، ويعثرون على إضافات ذات قيمة فى السير والترجمات الخاصة التى تساعد على سد

الثغرات الموجودة فى الحوليات الملكية . وبمراجعة قوائم ألقاب الموتى ، والعقود الواردة فى المقابر الخاصة، والقوانين المنظمة للمعابد الملكية، واستعراض مناظر الحياة اليومية — يمكن استخلاص كيفية تنظيم المجتمع والدولة ، ومعرفة الوضع القانونى للأشخاص والأملاك .

غير أن تلك المقابر لا تحوى إلا القليل مما يساعد على إلقاء ضوء على الحياة السياسية والدينية فى المقاطعات . والواقع أن ندرة الوثائق عن حياة الأقاليم هى السمة المميزة لمصادر الأسرتين الرابعة والخامسة . أما الأسرة السادسة فإنها تشهد تكاثر الكتابات الرسمية ، وبناء مدافن للأشراف ، وجبانات للعامة فى طول البلاد وعرضها ، مما يدل على النمو السياسى فى المقاطعات ، وتحول المندوبين الملكيين إلى أشراف محليين . ولم تكن الدولة القديمة ، على الرغم من مظاهر الاستقرار ، فترة من فترات الركود : ففى جميع طبقات المجتمع يمكن تلمس نوع من التطور البطىء أدى إلى التفكك الأول للنظام الفرعونى .

## تاريخ الملوك : من سنفرو إلى ببى الثانى

كان الحكم الطويل للملك سنفرو ( من مدينة حبينو) هو فاتحة عصر الأهرامات الكبرى . وسنفرو هو أول ملوك الأسرة الرابعة ( من ٢٧٢٠ إلى ٢٥٦٠ ق . م ) ، وأقام فى البداية مقر حكمه فى مقاطعة ميمنو — حور حيث يقوم هرمه الشهير باسم هرم ميدوم(١) ثم وصل إلى مسافة قريبة من منف وأقام هرمين آخرين على مرتفع دهشور . وما يزال وجود ثلاثة أهرامات لملك واحد موضع بحث ، ولكنها مسألة — على أية حال — تدل على الإمكانيات الضخمة التى بدأت تتوفر للإدارة

---

(١) يعتقد الكثيرون أن هرم ميدوم ليس من شيده سنفرو. ويرجحون أنه شيد فى عصر « حونى » آخر ملوك الأسرة الثالثة ووالد الملكة حتب حرس . ( المراجع )

الملكية . وبقدر ما كانت منشآت الملك سنفرو عظيمة بقدر ما كانت سياسته الخارجية ناجحة . وكانت شخصيته موضع إعزاز خاص فى الكتابات الأدبية ، حيث يصور كرجل حسن المعشر . وقد تركت منشآت سنفرو أثرها فى تسمية بعض المواقع الجغرافية ، فإلى يومنا هذا ما تزال توجد مدينة باسم أسفون ( ومعناها قصر سنفرو ) تحمل اسم ذلك الملك الجدير بأن يغطى مجده على مجد خليفته الشهير خوفو .

بنى « خنوم خوفوئى » ، الشهير بـ « خوفو » ، عاصمته شمالى منف ، أسفل المرتفع الذى أقام عليه الهرم الأكبر . والمقطوع به أن جدف رع بن خوفو هجر الجيزة وأقام فى « أبو رواش » بمنطقة أوسيم . وكان عهده قصيراً وغامضاً . ولكن ، مهما تضاربت الأقوال ، فلا يبدو أنه وصل إلى الملك عن طريق اغتصاب العرش . ولكن العاصمة تعود ثانية إلى الجيزة فى عهد الملك خفرع ( وهو ابن آخر لخوفو ) ، وفى عهد الملك منكاورع . ولا يمكن أن نقول الكثير عن الأعمال العظيمة التى قام بها الملكان خوفو وخفرع بسبب الثغرات الموجودة فى حجر بالرمو ، ولكن هرميهما العظيمين يخلدانهما . ويكاد الهرم الثانى أن يضارع الهرم الأكبر فى ضخامته . ولكن المدافن الملكية تصبح أكثر تواضعاً ابتداءً من الملك منكاورع .

بعد خفرع تولى الملك ، ولمدتين قصيرتين ، اثنان من إخوته ، هما جدف حور و باو ف رع . ويختتم الأسرة الرابعة الملك الغامض شبسسكاف الذى خلف منكاورع . وانحاز هذا الملك إلى صف كهنة بتاح وبنى مقبرته على شكل تابوت جنائزى كبير فى موقع بالقرب من مدينة منف ( مصطبة فرعون ) . ولا شك فى أن هذا الخروج على قاعدة بناء المقابر على شكل أهرامات هو دليل العداء لكهنة هليوبوليس ، وكانوا يحتلون آنذاك مركزاً خطيراً ، كما أنه دليل على وجود أزمة سياسية ودينية خطيرة . وثمة دليل آخر على عدم استقرار الحكم ، إذ يبدو أن الملكة « خنتى كاوس » ، وهى

إحدى بنات منكاورع ، وصاحبة الهرم الرابع بالجيزة(١) ، كانت تزاول بعض اختصاصات الملك ، وذلك في الانتقال من الأسرة الرابعة إلى الأسرة الخامسة .

وعلى الرغم من أن صحة التسلسل العائلي أمر يحيط به الشك في عدة مواضع، فإن النقاد المحدثين يربطون الملوك الأول للأسرة الخامسة بالتسلسل العائلي للأسرة السابقة ، وهؤلاء هم : أوسر كاف( الذى بنى هرمه فى سقارة) وساحو رع وكاكاى اللذان نقلا مقريهما شمالا إلى ( أبو صير ) .

ولكن الحكايات الشعبية تروى شيئاً آخر مختلفاً ورد فى « بردية وستكار » : أعلن أحد المتنبئين للملك خوفو أن خلفاءه سوف يخلون مكانهم للأولاد الثلاثة لكاهن من مدينة ساخيو ، وهي ليست بعيدة عن أوسيم ، وأن ابنه الأكبر أوسر كاف سوف يصبح كبير كهنة هليوبوليس .

وبمجيء الأسرة الخامسة (من ٢٥٦٠ إلى ٢٤٢٠ ق . م ) تحقق النصر بالفعل لرجال وأفكار مدينة الشمس ( هليوبوليس ) ، ولقب الملوك الذين حكموا بعد كاكاى بلقب ( ابن الإله رع ) ، وأطلق على غالبيتهم أسماء مشتقة من اسم الشمس. ويبنى جميع الملوك ، ابتداء من أوسر كاف إلى منكاو حور ، نماذج لمعبد الشمس إلى جوار أهراماتهم . ويتكون المعبد الشمسى الذى بناه الملك نى أوسر رع فى ( أبو صير ) من فناء تحيط به أبنية العبادة،وفى وسط الفناء قاعدة عالية تقوم فوقها مسلة هائلة على صورة التل العالى الأزلى. وانتقل الملك منكاو حور إلى مدينة دهشور. كما انتقل الملكان إسيسى وأوناس إلى مدينة سقارة.وتعطينا الأسرة الخامسة انطباعاً بالرخاء واستقرار الملك ، وذلك من واقع منشآتها التى — وإن كانت ليست فى ضخامة منشآت الأسرة الرابعة — لا تقل عنها إتقاناً ، وكذلك من واقع سياستها الخارجية الناجحة ومؤسساتها الدينية المثبتة فى الحوليات .

---

(١) لقد استقر الرأى على أن الملكة « خنتى كاوس » لم تبن هرما ، بل بنت مصطبة على شاكلة مصطبة شيسكاف .
[ المراجع ]

وبانتقال العرش من أوناس إلى تيتى ،وهو مؤسس الأسرة السادسة، لا نلاحظ أى هبوط فى النشاط المعمارى . ولا شك فى أن أزمة انتقال الملك إلى الأسرة السادسة كانت خطيرة ولكنها مرت بسرعة دون أن تخلف آثاراً سيئة .

ويستمر نفوذ العبادة الشمسية على « أبناء رع » الجدد دون منازع . ومع ذلك يبدو أن الملك تيتى الذى قدمت له فروض الولاء بصفته « محبوب الإله بتاح » ، كان يحظى بتأييد كهنة منف الذين طرأ تعديل على أوضاعهم فيما بعد . وتستقر مراكز الإدارة فى المبانى الملكية بالقرب من مدينة منف . ويطلق هذا الاسم الذى اختاره الملك بيبى لعاصمته على كل التجمع العمرانى الذى أخذ يتجمع حول القلعة الطينية القديمة عند السور الأبيض . كان بيبى ابناً للملك تيتى من زوجته الثانية ، واتخذ فى بادىء الأمر اسم نفرساحور ثم أصبح فيما بعد الملك مرى رع . ولا شك فى أن هذه التسميات دليل على عملية تثبيت لعرشه قام بها فى مواجهة منازعه أوسركارع الذى لم يرد اسمه إلا فى قائمة أبيدوس الملكية . وقد حظيت الإلهة حا تحور ، سيدة دندرة ، بمكانة خاصة لدى الملك ، مما يكشف عن أهمية عبادتها فى تقرير مصيره . وتزوج بيبى الأول إحدى بنتى حاكم أبيدوس الذى كان من خيرة أنصار الملك وأنجب منها ولدين : مرن رع عنتى إمساف — الذى مات وهو صغير ونفركارع ( بيبى الثانى ) الذى ارتقى العرش فى سن مبكرة وظل يحكم خمسة وتسعين عاماً ، وتلك أطول فترة حكمها ملك فى تاريخ العالم . وأمكن التحقق من شخصية آخر ملوك الأسرة السادسة ، وهو نفركارع الأصغر ، الذى حكم بعد بيبى الثانى . و بعد العام المائة من حكم تلك الأسرة تذكر الحوليات اسم « مرن رع عنتى إمساف الثانى » الذى ربما لا يكون قد تولى العرش أصلاً ، ثم تذكر اسم الملكة نيتوكريس . وقد تتطابق شخصية هذه السيدة مع شخصية الملكة نايت التى يبدو أنها حكمت وقت أن كان بيبى الثانى ما يزال قاصراً . ويميل الباحثون إلى المقارنة بين قصة الملكة الجميلة

التي ضحت بحياتها من أجل القضاء على قتلة زوجها — وبين التنازع على العرش الذي ساد في نهاية الأسرة السادسة . وقد يبدو عصر أسرة بيبي سعيداً ، إذ كان مندوبو القصر يباشرون مهامهم بنجاح على مشارف الوادي ، وكان الفنانون لا يقلون مهارة عن أسلافهم في الفترة السابقة . ولكن البلاد شهدت في أثناء حكمهم زيادة رقعة أراضي الأوقاف التي تنال من السلطة المركزية العليا ، وازدياد نفوذ الأشراف على حساب الملك . ويمكن القول بأن الفترة الانتقالية الأولى(١) قد بدأت بالفعل بالأسرة السادسة ( من ٢٤٢٠ ، إلى ٢٢٦٠ ، ق . م ) .

## تطور المجتمع ومظاهر الحضارة في الدولة القديمة

كان الهرم الماثل في مدافن الدولة القديمة يسحق إلى جواره المصاطب الضئيلة من حوله . وهذا التفاوت يصور لنا الفارق الذي يفصل — نظرياً — بين الملك وأكثر رعاياه أهمية وتميزاً . كان فرعون هو ابن الآلهة وحبيبها ، وهو الذي يقول عن نفسه إنه « الإله الكامل » ، وله صفات لا يشاركه فيها سوى الآلهة . ومن صفاته الخاصة العودة إلى الحيــــاة بعد الموت في العالم الآخر ، بينما يحيط نفسه في حياته الدنيوية اليومية بعبادة حقيقية . وتتجدد بشكل دوري ، وفي حفلات « اليوبيل » التقليدية ، تلك الصفات المقدسة التي خلعت عليه عند التتويج . وتتأكد تلك الصفات باتخاذ الأسماء والألقاب المتعددة ، منها ما هو متوارث من أيام طينة ( مثل الانتساب إلى اسم حورس ونبتي ولقب نيسوت — بيتي ) — ومنها ما هو مستحدث ( مثل « الاسم الذهبي » الذي ابتكر في الأسرة الثالثة ولقب « ابن الإله رع » الذي أضيف في الأسرة الرابعة ) . ومنذ أيام سنفرو يحاط الاسم الشخصي للملك

---

(١) وهي الفترة التي تمتد منذ الأسرة السادسة إلى الأسرة الحادية عشرة ، وسادت فيها اضطرابات اجتماعية شاملة وغامضة . وسيأتي تفصيلها في الفصل القادم .

[ المترجم ]

بالخرطوش(١) الذى يرمز إلى السيطرة الشاملة للملك . ومنذ الأسرة الخامسة يضاف فى المقدمة الاسم الشمسى . ويهوى الكتبة الإشارة فى مهابة إلى جلالة الملك بشكل غير مباشر أو غير شخصى . ونلاحظ فى نفس الوقت أن عبارة « برعا » أى البيت الكبير ، والتى اشتقت منها كلمة فرعون لا ترد فى الكتابات إلا للدلالة على الإدارة الحكومية ، بينما لاتستعمل للدلالة على الملك إلا بعد هذا الزمان بكثير . ومهما كان الأمر فقد كان البلاط مرتبطاً رباطاً وثيقاً بشخص الملك . وتشهد بداية كل عهد إنشاء مقر جديد للحكم فى الوادى عند سفح الهضبة التى سيقام عليها الهرم ، ويعرف هذا المقر باسم « مدينة الهرم » . وقد أنشئت معظم تلك المدن حول الحائط الأبيض ، حيث تبدأ سلطة هؤلاء الملوك الذين سماهم مانيتون بحق ملوك منف ، والذين كانوا المصدر الوحيد للسلطة . فالملك هو المالك الوحيد للأرض والمناجم ، وهو المشرع الوحيد والقاضى الوحيد ، والقائد العسكرى الوحيد . وينيب عن نفسه الموظفين الذين يختارهم بنفسه ويجرى عليهم الرواتب والمكافآت بحسب ما يرى . وكان النظام الملكى الذى يقوم على المركزية المطلقة فى الدولة القديمة يبلور نموذجاً لشخصية الفرعون كما ستظل قائمة طوال التاريخ المصرى القديم — على الأقل من الناحية النظرية .

وكثيراً ما يحلو للباحثين أن يذهبوا إلى أن تلك النظرية الدينية — السياسية كانت حقيقة مطلقة سائدة طيلة الأسرتين الرابعة والخامسة . ومن المؤكد أن الطبيعة الإلهية، وهى جوهر شخصية الملك ، كانت تلقى استجابة عميقة لدى المصريين آنذاك ؛ ومع ذلك ، فإن أرستوقراطية الإدارة ، والتى يمثلها الملك بطريقة ما ، كانت تلعب دوراً حاسماً فى الحكومة ، وإليها يجب أن يعزى مولد الأسرات

---

(١) الخرطوش : إطار مستطيل الشكل يحيط باسم الملك فى النقوش الفرعونية .
[ المترجم ]

الجديدة وحل ما ينشأ عن مولدها من أزمات . فنحن نرى أن البناة العظام للأسرة الرابعة يرفعون كثيراً من مظاهر الكلفة بينهم وبين وزرائهم تحت ستار حسن المعاملة . ويثار التساؤل : هل صحيح أنه كان يجرى اختيار الطبقة التى تتولى إدارة البلاد فى البداية من بين الأمراء ذوى الدم الملكى ( فى الأسرة الرابعة ) ثم من بين سلالتهم (فى الأسرة الخامسة) ؟ . الحق أننا يجب أن نتحفظ على هذا الافتراض ، إذ يبدو أن بعض كبار رجال الدولة لم يكونوا « أولاداً للملك » إلا بالتبنى . ثم — هل كان تعيين الموظفين متروكا لاختيار الملك بشكل مطلق ؟ . الواقع أن المناصب أصبحت وراثية ، إن لم يكن بحكم القانون فبفضل العادة والتقليد ، إذ كان أبناء كبار الموظفين ومتوسطيهم يصعدون سلم الوظائف المعقد ، وقد يرتقون إلى أعلى المناصب ويصبحون مستشارين للملك . وكانت تجرى عليهم مكافآت الملك ومنحه من الخزانة العامة . وتشيد لهم المدافن الضخمة المزودة بأثاث جنائزى فخم ، وتقتطع لهم الأراضى الواسعة . ومن ثم تشكلت منهم طبقة ثرية ومتطورة ، تتمتع فيها المرأة بوضع قانونى مساو تقريباً لوضع الرجل . وظهر من بين تلك الطبقة رجال أقوياء يتمتعون بإيراد هائل ويمتلكون بيوتا كبيرة خاصة ، وإدارة مستقلة لأملاكهم بمديريها وكتبتها وحرسها المسلح ، وتلتف من حولهم حاشية قوامها عدد من الموظفين الذين هم أقل شأناً .

ويبدو أن هذه الطبقة المثقفة قد تمكنت — فى إطار مفهومات ومعتقدات عصرهم — من إثبات وجودها فى كثير من المجالات . وتستطيل قائمة الألقاب المرفقة بأسماء الموتى فى الكتابات الجنائزية بقدر ما يحلو لأصحابها أن يثبتوا جميع الوظائف والمناصب التى تقلدوها ، بل وجميع المسئوليات المتعلقة بكل منها وإضافة وصف لمحتواها . ولما كانت هذه الألقاب تعطينا بياناً كاملاً بجميع الوظائف فى الدولة ، فإنها تبين من ناحية أخرى أن نفس الشخص كان يكلف بالقيام بمهام رسمية مختلفة فى مجالات شديدة التباين . وينبغى أن نلاحظ بين ألقاب الشرف أن مناصب كان لها

وجود فعلى فى أثناء حكم الأسرات السحيقة القدم ، وفى أثناء الأسرات الطينية ، أو حتى فيما بعد . ونجد بالفعل أن كثيراً من المناصب التى منحت لعدد متزايد من أصحاب الألقاب إما لإضعاف شوكتهم وإما لكسب رضاء طبقة النبلاء قد فقدت قيمتها فى أثناء حكم الدولة القديمة . فنجد أن لقب « كاتم سر الملك لشئون مصر السفلى » الذى كان يحمله أيحتب العظيم ، قد تحول إلى نوع من ألقاب الشرف فى نهاية الأسرة الخامسة .

أما ألقاب البلاط فتتعلق بإدارة شئون البيت المالك ، فهناك : رئيس حلاقى الرأس ، ورئيس حلاقى الذقن ، والغسال ، والنساج ، والأمين الخاص القائم على الخدمة الخصوصية للملك ، وكبير الأطباء . وهناك أيضاً المناصب الخاصة بإدارة شئون عبادة شخص الملك وإدارة ممتلكات المعابد الجنائزية . ومن أبرز المناصب الوظائف الدينية — التى سنتناولها فيما بعد — وكذلك المناصب الإدارية . وبفحص الألقاب نجد الإدارة المركزية مقسمة إلى مصالح متقنة التنظيم ، على رأسها نظام هرمى من الرؤساء والمديرين والمراقبين ، وتستخدم عدداً كبيراً من السكرتاريين والكتبة الملمين بدقائق الأمور . وكان « مديرو الأعمال » والمهندسون التابعون لهم يقومون بتنفيذ جميع الإنشاءات الملكية . وتشرف الإدارة الزراعية على إنتاج الأراضى . وتتولى إدارة الخزانة العامة والشون تخزين المصنوعات والمنتجات الزراعية والمواد المستوردة . وتقوم إدارة خاصة بالعملية المعقدة لإعادة توزيع القرابين على مختلف مراتب الكهنة . ويتولى الوزير الأول الإشراف على وزارة العدل . ويطلق عليه لقب ( ثاتى ) ، وإنما استخدم المؤرخون المحدثون لقب ( وزير ) بالرجوع إلى اللقب الذى استخدمه المسلمون فيما بعد . وتشهد قائمة الألقاب الطويلة التى يحملها الوزراء باتساع اختصاصاتهم وتعدد الدرجات والمناصب التى اجتازوها قبل أن يصلوا إلى مراكزهم فى إدارة شئون الدولة .

وتتشكل طبقة وسطى من مجموع صغار الموظفين وكهنة الجنائز الخصوصيين ، وصناع مختلف المهن — من نحاتين ومثالين . . إلخ . ومن بينهم تنتقى حاشية الأشراف والصف الثانى من كهنة الملك . وهذه الطبقة التى تشتغل بخدمة الروح تتمتع بوضع مادى ميسور . وقد جرت العادة على صرف مكافآت عينية للفنيين الذين يعملون فى المدافن . أما طائفة كهنة الـكا ( أى كهنة الروح ) فإنهم يمنحون حق التمتع بريع قطع صغيرة من الأرض . وكان هناك نظام « المجموعات ذات عشرة الأعضاء » يتولى رئاسة كل مجموعة رجل يلقب « برئيس العشرة فى الجنوب » ، ومهمتهم أن يكفلوا لبعض الفئات المهنية نوعاً من الضمان القانونى . . وتشكلت فئة وسيطة من مزارعى المعابد الملكية باسم « ختينوش » تقف بين الطبقة المتوسطة من البرجوازيين وبين جماهير الفلاحين من مزارعى الأملاك الخاصة وعبيد الملك والرعاة والصيادين ممن سجلت حركاتهم وأحاديثهم بشكل حى على جدران المصاطب .

أما الفلاحون وأشباه العراة الطيبون الذين روضوا على القناعة ، وعاشوا على صغار الأسماك ، وحرموا طعم اللحم الشهى إلا فى النادر — فكانوا يكدحون تحت أعين رؤساء الفرق والمديرين وهم يرددون أغانى العمل القديمة . ولاشك فى أن تلك الجماهير المجهولة قد نفذت أعمال الرى الكبرى . وإنا لنتساءل : إلى أى حد ساهموا فى بناء المدافن الملكية ؟ ، كما أن هناك سؤالا آخر مطروحاً منذ مدة طويلة هو : ماهى النتائج الاجتماعية التى ترتبت على هذه الأعمال الإنشائية التى تتطلب أيدى عاملة هائلة العدد ، وبخاصة من أجل نقل الكتل الحجرية الضخمة اللازمة لبناء الأهرام . ويقال إن الشعب فى القرن الرابع ق . م كان يتحدث عن خوفو وخفرع كطاغيين مكروهين ، عرضا رخاء البلاد للمخاطر من أجل إقامة المدافن الضخمة . ولكن بعض المؤرخين يرفضون هذه الإدانة التى أوردها هيرودوت . والرأى السائد أن رعايا الملك كانوا يتقدمون طواعية للعمل فى بناء الهرم بصفته الرمز المادى لقربان

العدالة المقدم إلى إله الشمس ، لكي يضمنوا لأنفسهم البعث فى العالم الآخر . غير أن الإشراف على العمل نفسه كان بأيدى الجيش ، مما يدعو إلى الظن بأن الأيدى العاملة كانت تشتغل تحت الإكراه والقهر . وربما كانت القوى العاملة تتضمن أسرى الحرب ، مثل سبعة الآلاف من النوبيين ، والأحد عشر ألف ليبى الذين أسرهم سنفرو . ولكن يمكننا أن نسلم بأن فلاحى الوادى كانوا يشكلون السواد الأعظم من القوة العاملة . ولا نلبث أن نلاحظ تضاؤل حجم الأهرامات بعد الأسرة الرابعة ، وكأنما تراجع الملوك عن عملية تستنزف الجهود والثروات .

استمرت الدولة القديمة دون تغيير فى التشريعات الاجتماعية من ناحية المبدأ . والواقع أن الدولة الواحدة المتماسكة التى عرفت أيام زوسر وسنفرو أخذت تتفكك فى اتجاهين رئيسيين : إذ يتغير توازن القوى بين العناصر القائمة فى المجتمع من ناحية ، كما توسع الأقاليم استقلالها الذاتى من ناحية أخرى . وبازدياد الامتيازات الجنائزية يزداد عدد صغار القوم الذين يبنون المصاطب بأبعادها الكبيرة . وتنمو جبانات الأشراف حول عواصم الأقاليم فى الأسرة السادسة . هكذا يتجلى استقلال الأشراف إزاء الملك فى كل من الأقاليم والعاصمة . وينبغى البحث عن أسباب ذلك التفكك المزدوج فى نظام الملكية العقارية ، وهو أساس الاقتصاد المصرى من ناحية ، وفى نظام الإدارة المحلية من ناحية أخرى .

## الملكية العقارية

كان استغلال الأراضى الزراعية والموارد العديدة المتوافرة فى البحيرات والبرك ( مثل الصيد والبردى ) يقع فى اختصاص مجموعتين كبيرتين من التنظيمات الزراعية ، تشكل مناطق كل منهما ، ومنشآتها وموظفوها ، وحدة متماسكة : وهما ال ( نوت ) أى القرى القديمة والجديدة ، و « الحوت » أى القصور أو المنشآت الملكية ، ويديرها جميعاً مندوبو الملك الحائزون على لقب ( حكا ) . ومن ناحية المبدأ يعتبر

الملك — كما سيظل دائماً — هو المالك الوحيد للأرض . وبفضل هذه السيطرة العليا تجرى أعمال التعداد وتفرض الضرائب على الحقول والحيوانات والمعادن النفيسة . كانت غالبية الأملاك مكلفة بتوفير القرابين للمعابد والمدافن ، غير أن التقدمات المخصصة للآلهة أو للموتى كانت ضئيلة ، وبذلك يتمكن الملك من إنفاق فائض تلك الأملاك على أقاربه وموظفيه . ولكن كان يراعى تشتيت هباته على أقاليم متفرقة لكى لا تتكتل فى مجموعات عقارية كبيرة . وكان الأمراء والوزراء منذ الأسرة الرابعة لا يترددون فى الحديث صراحة عن قرائهم وقصورهم باعتبارها أملاكا خاصة ( برجت ) ، وتتكون منهم أرستوقراطية حقيقية حائزة على ثروات تتناسب مع مايتمتعون به من نفوذ وما يحيط بهم من حاشية . وكان مندوبو الحكومة مسئولين أمامهم . أما الحقول فقد أصبحت — إلى حد ما — قابلة للتصرف والتوارث .

لقد اضطر الملوك إلى مناهضة الأجهزة الإدارية التى خلقوها بأنفسهم وإلى البحث عن أنصار جدد ، فاستمرت بذلك عملية تجزئة جديدة لأملاكهم يجرونها بأنفسهم ، إذ منحوا الكهنة « وثائق وقف » ضد إدارة الضرائب والتزامات السخرة لسكان مدن الأهرام ( الجيزة ودهشور ) ، وإلى خدام أضرحة الروح « كا » ( قفط ) ، وإلى الكهنة الإقليميين ( أبيدوس ) . وفى تلك الأثناء كان الأثرياء يساهمون عند دفنهم فى زيادة ثروات الكهنة الجنائزيين عن طريق هبات عقارية صغيرة ، ولكنها لا تنقطع . وهكذا تحسنت الأحوال المادية للفئات الوسطى بفضل وثائق الوقف والمنشآت الجنائزية الخاصة . وسرعان ماتدرك تلك الفئات الوسطى مكانتها الجديدة ، وما من شك فى أن سخطهم وطموحهم دفعا بهم إلى قيادة الشعب للعصيان فى وقت فقد فيه الملك ، ولى نعمتهم الأول ، كثيراً من نفوذه وثروته التى اغتصبها مديرو الأقاليم .

# إدارة الأقاليم

كان الملك فى الأسرتين الرابعة والخامسة ينيب عنه فى الأقاليم الثمانية والثلاثين مندوبين مزودين بصلاحيات رئيسية ثلاث : مسئولية الشرطة العامة ، وذلك باعتبارهم « قادة البلاد » ، وصيانة الترع باعتبارهم « مديرين » ( عج مر ) ، وإدارة الأراضى الملكية باعتبارهم « مديرى القصور الملكية » . ولا يكاد يعرف كيف تمكن بعض المديرين ممن كانوا ينقلون كثيراً من مكان لآخر ثم ينتهى بهم المطاف أخيراً إلى العاصمة حيث يبقيهم الملك إلى أن يموتوا ويدفنوا — لا نكاد نعرف كيف تمكن أمثال هؤلاء من غرس جذورهم فى الأقاليم . ومنذ الأسرة الخامسة يدفن مديرو أقاليم الأرنب البرى(١) أباً عن جد فى بلدة الشيخ سعيد . ولاشك أن نفوذ مندوبى الملك فى الأقاليم ساعدهم على أن يلعبوا دوراً حاسماً فى أزمات الحكم ، ومكنهم من الحصول على حق توارث المنصب . وهذا هو السبب المرجح الذى يعزى إليه ظهور « الرؤساء الكبار » للأقاليم الجنوبية فى الأسرة السادسة الذين كانوا فى ذات الوقت « رؤساء كهنة » نفس الأقاليم . وقد استمرت علاقة هذا النوع البدائى من الإقطاع بالملك غير محددة فى البداية . فقد ظل الملك يختار وزراء من بين هؤلاء الرؤساء الوراثيين ( مثل أمراء القوصية(٢) ) بينما يعين قادة محليين جدداً فى مناطق أخرى ( مثل قار فى إدفو ) . ثم أنشئ منصب « قائد الجنوب » الذى عهد إليه بتنسيق الإدارة الحكومية فى الصعيد كله منذ الأسرة الخامسة . وظلت هذه الوظيفة قائمة باختصاصها فى أثناء حكم مرن رع أول ملوك الأسرة السادسة ، ولكنها أصبحت غير ذات موضوع فى أثناء الفترة التى كان فيها ببى الثانى ما يزال قاصراً ،

---

(١) بالقرب من إهناسيا-المدينة — مديرية بنى سويف على الضفة الشرقية للنيل .
[ المترجم ]

(٢) منطقة أسيوط بالقرب من مير . [ المترجم ]

إذ إن جميع قادة الأقاليم الجنوبية خلعوا على أنفسهم هذا اللقب ، كل فى إقليمه . وهكذا سنرى أن النظام الملكى الذى استنزفت قواه أطماع أقرب خدامه إليه ، سيعجز عن الحيلولة دون تفتيت وحدة الأراضى المصرية عندما يواجه بانقلاب اجتماعى شامل .

## النشاط الخارجى لملوك منف

من الأمور اللفتة للنظر أنه لم يحدث أن أضير رخاء مصر أو عطل تطورها فى أثناء حكم ملوك منف بفعل أى خطر آتى من الخارج . وكانت تكفى بعض الغارات الصغيرة وبعض القلاع الموزعة على الطرق الحربية « طرق حورس » فى مواقع إلفنتين(١) والقنطرة وبحيرة التمساح لصد قبائل الـ ( عامو )(٢) وقبائل النوبيين الذين كانت تجتذبهم ثروات الوادى . ويصور نقش على الحجر فى معبد أوناس فى سقارة منظر مطاردة جماعة من الأعراب المغيرين المهزولين من الجوع .

وكانت النقط التى تنتهى عندها الدروب الصحراوية موضوعة تحت رقابة شرطة خاصة هم « حراس الأبواب الخارجية للبلاد » ، وكانت تسهر على حماية التخوم الصحراوية دوريات من جنود الـ ( نو — وو ) الذين كانوا متخصصين فى تربية كلاب الصيد اللازمة للبلاط الملكى .

وكما هو ثابت فى الحوليات الملكية وبعض السير وآثار جبيل وخصوصاً فى الكتابات على صخور الصحارى المتاخمة — يتبين لنا كيف تمكن المصريون فى الدولة القديمة من المحافظة على سلامة أراضيهم والاستفادة من موارد البلاد

---

(١) أســـوان . [ المترجم ]

(٢) اسم مصرى للقبائل السامية التى كانت تغير على تخوم مصر الشرقية من سيناء . [ المترجم ]

المتاخمة دون حروب استعراضية ودون توسع استعماري . وعندما تصدر أوامر الملك بتسيير حملة كبيرة كانت تجرى عمليات تجنيد واسعة من بين سكان الريف ( كما هو مسجل فى نص أونى) . ولكن من الثابت أن ملوك منف كانوا يحتفظون بقوات عسكرية دائمة ، مثل: الحرس الملكى وهو فيالق مختارة من جنود وصفوا باسم «نفرو» بالإضافة إلى الفرق الخاصة والمترجمين والأدلاء والقوات الاحتياطية من نوبيين وليبيين . وتحت تصرف القوات المسلحة يوجد أسطول بجنده وأركان حربه . ولما لم يكن لدى مصر ما تخشاه من هجوم دول معتدية فإنها لم تحاول بدورها أن تغتصب أراضى جاراتها الأدنى منها تطوراً ، وإن كانت تسير بين الحين والحين إغارات لاستجلاب بعض العبيد وبعض المواشى لتحسين سلالات الماشية فى مصر . وكثيراً ما كان الجيش يوضع تحت إمرة ضابط الأسطول أو مندوب سام هو « كاتم سر الإله » ، وذلك عندما يوكل للجيش القيام بمهمات يمكن أن نسميها مهمات تجارية .

ولما كان استغلال المناجم والمحاجر واستيراد المنتجات الخارجية عملية تتطلب درجة عالية من التنظيم فإنها كانت — تلقائياً — احتكاراً للملك ، وتقع فى اختصاصات الجيش .

كانت السياسة الخارجية فى الفترة من الأسرة الرابعة إلى الأسرة السادسة تنحصر فى سلسلة من الحملات والغزوات والبعثات الاقتصادية التى تنطلق إما من العاصمة وإما من قواعد على الحدود لتعود إلى نقط الانطلاق محملة بالثروات. وهى لذلك لم تكن تتضمن دورات من الكر والفر ، الأمر الذى تتسم به سياسة التوسع الاستعمارى. لقد أفتتح الملك سنفرو هذه السياسة الخارجية بنجاح باهر ، إذ أرسل حملات تأديبية كاسحة ضد النوبيين والليبيين ، واستجلب كمية أخشاب هائلة من جبيل . ووسع سنفرو أعمال التعدين فى سيناء إلى درجة رفعته بعدئذ إلى مرتبة أحد آلهة هذا المركز التعدينى .

إن النقش البارز على آثار الملك ساحورع الذى يصور عملية جرد الغنائم الليبية واستعراض الأسرى الآسيويين وعودة الأسطول البحرى من بلاد فينيقيا — اعتبر لمدة طويلة شاهداً على أعمال الأسرة الخامسة . غير أن ظهور نفس النقوش على آثار الملك ببى الثانى أمر يدعو إلى التساؤل عما إذا كانت هذه النقوش مجرد جزء من السجل الزخرفى المستخدم منذ الأسرة الرابعة . ولكن توجد وثائق أخرى تثبت بما فيه الكفاية النشاط الضخم لخلفاء الملك سنفرو ، فقد عثر فى جبيل ( فينيقيا ) على قطع عديدة من المرمر تحمل أسماء ملوك منف من خفرع إلى ببى الثانى . وترى فى مقابر دشاشة ( من الأسرة الخامسة ) وعلى جدران مقبرة كاى إم حست فى سقارة (من الأسرة السادسة) نرى الجيش المصرى يهاجم قرى محصنة فى فلسطين الجنوبية . ويمكن أن نستخلص تفسيراً دقيقاً لتلك الصور من قصة أونى ( من الأسرة السادسة ) عن الحملة ضد « أولئك الذين يسكنون فوق الرمال » . وفى سيناء تظهر رسوم جنود الـ ( نفرو ) والمترجمين أيام حكم الملوك خوفو وساحورع ونى أو سررع وإسيسى و الملكين ببى الأول وببى الثانى . وعسكر الأدلاء ( السمنتى ) على شاطىء البخور أيام ساحورع ثم أيام إسيسى فى وادى جوادى . واستغل الملوك خوفو وجدفرع وساحورع محاجر الديوريت(١) شمالى غرب أبو سنبل فى النوبة . وعلى الرغم من التحلل العام فى أثناء حكم الأسرة السادسة إلا أن النشاط كان على أشده فى محاجر ومناجم وادى الحمامات(٢) وحتنوب(٣) ، كما كان الأدلاء (السمنتى) والمترجمون يعملون بهمة كبيرة .

كان الأدلاء والمترجمون يجوبون الدروب الصحراوية ( بئر منيح ووادى

---

(١) حجر أسود متبلور كالجرانيت . [ المترجم ]
(٢) بين قنا والقصير . [ المترجم ]
(٣) بالقرب من تل العمارنة . [ المترجم ]

جودا مى ) ويترددون على الواحات الخارجة ويصلون شمالا إلى جبيل وجنوباً إلى بلاد بونت ، ومن الطبيعى أن بلاد النوبة كانت منطقتهم المفضلة . ويتولى القائدان حكائيب — بيي نخت وحرخوف بسط حمـــاية مصر على قبائل : الواوات وإريت والميجا وبلاد إيام (دنقلة) ، ويقومون بتجنيد المرتزقة واستجلاب الأخشاب والسفن والـكماليات .

وعلى الرغم من الأصالة العميقة التى اتسمت بها السياسة الخارجية للدولة القديمة إلا أنها أمحت من ذاكرة الناس إزاء الأعمال الباهرة التى حققها سيزوستريس ورمسيس ، ولـكن التقاليد الـكهنوتية ظلت تعتبر حضارة هذا العصر دوماً هى المثل الأعلى والمرجع الأخير .

## الفن والديانة فى الدولة القديمة

### عالم الموتى

تحتوى المدافن الـكبرى فى منطقة منف على معلومات غزيرة عن الديانة الجنائزية فى الدولة القديمة وتعاليمها الرسمية وما خلقته من ابتكارات فنية . إن الملوك ورعاياهم يمكن معرفتهم أمواتاً بشكل أدق مما يمكن معرفة آلهة الأحياء .

فى البداية ، كان أول هرم للملك سنفرو فى ميـــدوم ما يزال هرماً مدرجاً . أما الثانى وهو الهرم المنحنى(١) فإن وجوهه ليست ذات ميل واحـــد ، ولـكن لها ميلان مختلفان . أما الهرم الثالث لسنفرو ، وكذلك جميع الأهرامات الأخرى حتى الأسرة الثامنة فهي جميع أهرامات كاملة الأوصاف من الناحية الهندسية . وكان

---

(١) وهو المعروف عند العامة من أهل المنطقة اليوم باسم « الهرم الـكذاب » .
[المترجم]

كل ملك يبدأ بتسوية مكان يختار لهرمه على حافة الهضبة الصحراوية . ويستخدم الحجر الجيرى المحلى فى إقامة جسم البناء ثم يكسى بألواح من الحجر الجيرى الناعم أو من الجرانيت المصقول والملصق بعناية ، وتضفى هذه اللمسة الأخيرة مظهراً مهيباً على تلك الأبنية التى تحكى صورة « المرتفع الأول للأرض اليابسة » فى قصة الخليقة . ويشيد معبد إلى جانب الهرم ، ومعبد آخر فى الوادى بالقرب من الأراضى الزراعية — يربطهما ممر طويل يعبره كهنة مدينة الهرم عندما يقومون بمهام العبادة .

وتصطف الأهرامات الصغيرة الخاصة بالملكات ومصاطب رجال الحاشية فى شوارع مرسومة بعناية حول الهرم . أما المصاطب (وهى المقابر الخاصة بعلية القوم من الأسرة الثالثة إلى الأسرة الثامنة) فتختلف أحجامها وتنظيمها الداخلى باختلاف العصر وثروة المتوفى . وتحتوى المصطبة دائماً على حجرة دفن تحت الأرض لوضع الجثمان يمكن الوصول إليها عن طريق بئر خاصة تردم بعد عملية الدفن ، لما تحتوى على حجرات القرابين تقام فوق سطح الأرض من اللبن أو قطع الحجارة غير المهذبة تكسوها طبقة من الحجر الجيرى الفاخر .

وفى مصر العليا ، ابتداءً من الأسرة السادسة ، نجد المصاطب الخاصة تقام فى الجبانات المحيطة بالمعابد (كما فى دندرة وإدفو) أما فى الدلتا فكان يكتفى ببناء حجرات مشيدة من الحجر فى أعماق الأرض (كما فى هليوبوليس ومنديس) أما النموذج الذى يسود الأقاليم الجنوبية فهو المقبرة المحفورة فى الصخر والمكونة من مجموعة من الغرف المتتابعة التى تنتهى ببئر رأسية . (كما فى مير وقصر الصياد وطيبة . . . إلخ) .

أما المعدمون الذين « لاقبر لهم » فكانت تلقى جثثهم على سطح الرمال فى الصحراء . ولكننا نجد فى نهاية الدولة القديمة عدداً متزايداً من الحفر البسيطة.

أو المبنية من الداخل ، حيث يدفن بسطاء الناس مع جهاز جنائزى من الأوانى والأشياء الرخيصة ، تتفاوت قيمتها بحسب حالتهم الاجتماعية .

ولم يكن الاختلاف الكبير فى الشكل بين المدافن الملكية والمقابر الخاصة هو بعينه الاختلاف فى مصير أصحابها فى حياة مابعد الموت . فمنذ عهد سنفرو تتم إجراءات ضمان عودة الملك والأشراف إلى الحياة بنفس العناية على السواء . هذه الإجراءات هى : تحنيط الجثمان ووضعه فى تابوت حجرى ، وضع تماثيل خاصة فى المعبد الجنائزى أو فى سرداب للصطبة ، حفر رسوم بارزة على جدران المعابد والمقابر وحجرات الدفن المنحوته فى الصخر التى تصور الطقوس التى تعيد الموتى إلى الحياة ، وتصور أوجه النشاط الزراعى والصناعى الذى يكفل العيش للأحياء ، المواظبة على التبخير وتقديم القرابين وتكديس الأطعمة أمام النصب (الباب الوهمى(١) )فوق مائدة القرابين . وأخيراً ، يقوم الكهنة المرتلون وكهان الروح والمثقفون الذين يستجيبون « لدعوة المتوفى إلى عابرى السبيل » — يقومون جميعاً بترتيل الطقوس المنطوقة « لتبجيل » الروح ، وهم بذلك يطلقون القوة الخلاقة الرهيبة التى تحملها الكلمة .

نقشت التعاويذ التى تضمن الخلود للملوك فى أهراماتهم ابتداءً من عهد أوناس ، ونقشت فى مقابر الملكات ابتداءً من عهد ببى الثانى .وتسمى تلك التعاويذ نصوص الأهرام ، وكانوا فيما قبل يكتفون بتلاوتها . وهى تصور كيف يصعد الملك إلى السماء ثم يفرض نفسه على الآلهة — رضوا أو أبوا — ويشاركهم حياتهم

---

(١) كان المصريون القدماء يعتقدون أن الكاء تخرج من حجرة الدفن إلى العالم الخارجى ثم تعود ثانية عن طريق أبواب ذات أشكال معينة، ولذلك كانوا يرسمون على جدران المقابر من الداخل رسوماً لمثل هذه الأبواب ، وتلك التى يسميها الأثريون « الأبواب الوهمية » . [ المترجم ]

متنقلاً بين حقول الفردوس . ومن المرجح أن هذه المجموعة من الكتابات التي تضم مادة مختلفة الأصول والتواريخ قد تشكلت في الأسرة الخامسة . وتخضع تلك النصوص لتأثير النظرية الدينية الأساسية لمدينة هليوبوليس ، ولكن هناك عناصر مختلفة ترجع إلى « تصوير النجوم على شكل حيوانات مقدسة »(١) كما تحتوى أيضاً على أجزاء كبيرة من أسطورة الإله أوزوريس الذى تقمصه شخصية الملك المتوفى .

ولم يكن الرعايا الأثرياء يكتفون بأن يتمتعوا بعد الموت بكل ما يتمتعون به فى الحياة الدنيا بفضل الصور والقربان المصرح به للمحظوظين ( إيماخو ) من قبل الإلهين أنوبيس وأوزوريس ومن قبل الملك . حقاً ، إنهم لم يكونوا يتمتعون بمثل ما يتمتع به سيدهم الملك ، ولكن كان يسمح لهم بالتردد على « طرق الغرب الجميلة » وعلى « حقل القرابين » ( فى الأسرة الرابعة ) ثم اللحاق بالإله الأكبر فى السماء ( الأسرة السادسة ) . وأخيراً ، هل أتيح للفقراء أن يأملوا فى مجرد مشاركة النجوم خلودها السماوى ؟ كم بودنا أن نصدق العلماء الذين حاولوا أن يثبتوا أن الإجابة عن هذا السؤال هى بالإيجاب .

تشهد المرحلة الانتقالية الأولى صدور صيغ شعبية لنصوص الأهرام ، وهى التى تعرف باسم نصوص التوابيت ، كما تشهد نشأة وتطور نوع من السحر الجنائزى لخدمة الأفراد بدأ منذ أواخر أيام ملوك منف . وفى تلك الأثناء اتخذت عبادة الإله أوزوريس ( سيد بوزوريس ) أهمية متزايدة بالتدريج ، تلك العبادة التى ستتعلق بها الطبقات الدنيا فيما بعد وتضفى أهمية خاصة على مدينة أبيدوس حيث استقرت عبادة أوزوريس منذ الأسرة الثانية وغطت بالتدريج على عبادة الإله المحلى خنتى إمنتيو . ثم أخذت بعد ذلك تحتم الحج إلى أبيدوس منذ الأسرة الخامسة .

---

(١) Eschatologie وهى نظرية تتعلق بالحياة بعد الموت ، ومن عناصرها أن الإنسان يخلد على النجوم بعد الموت ، وأنه يمكن تصوير هذه النجوم فى شكل حيوانات مقدسة . ( المترجم ) .

وفى الواقع لم تغير عبادة أوزوريس كثيراً من الحلول التى تخيلها المصريون لمشكلة الموت . وتعزى شعبية أوزوريس إلى شخصية هذا الإله المعذب الذى تضفى عليه الأسطورة صورة إنسانية رائعة وهو يتعذب ثم يبعث بعد الموت . وهى صورة أبهى من سماوات « نصوص الأهرام » التى يسطو عليها الملك بعد الموت . إن الإضافة التي أتت بها الدولة القديمة للعبادة الجنائزية تتلخص فى المحافظة على الجثمان وإشباع الشهوات الدنيوية للموتى . ومن ثم نشأت الحاجة إلى قيام صناعة حرفية وفن معمارى وجهاز إدارى مناسب . وبذلك برزت إلى المقدمة أهمية الشروط الاقتصادية الواجب توافرها لضمان البعث بعد الممات . ولم تكن « فكرة تكافؤ الفرص للامتيازات الجنائزية » سوى وجه لارتفاع مكانة الطبقات الوسطى . ومن جهة أخرى لم يتمكن مفسرو الرموز القدامى من استخلاص « نظرية متناسقة وشاملة للحياة بعد الموت »، وبعدوا عن فكرة تبرئة المتوفى مراعاة لأعماله الصالحة ، واتجهو إلى المبالغة فى دور السحر وجمعوا التقاليد السحرية فى تركيب مختلط مشوش .

وإن كانت غرابة النصوص الجنائزية تضلل عقولنا ، فإن أعمال الفنانين الذين صنعوا مدافن الجيزة وسقارة ودهشور قد شقت طريقاً ملكياً يصل بين مشاعرنا الحديثة وبين حضارة منف القديمة . ولم يقتصر «مديرو الأعمال» على إظهار مالديهم من فن وجسارة على بناء الأهرام ، تلك الآثار الهائلة التى قيل عنها بحق إنها تثير الإعجاب أكثر مما تحرك العاطفة ، بل أظهروها أيضاً فى مجالات عديدة أخرى . لقد عرفوا كيف يتنازلون عن استخدام الكتل الحجرية الضخمة التى بنى بها معبد خفرع ، وهو بناء بسيط وجميل على الرغم من ضخامته ، واستخدموا الأحجار الصغيرة فى بناء قدس الأقداس فى المعابد الملكية ومعابد الشمس . وبدلا من الأعمدة المربعة أحسنوا بناء أعمدة مستديرة ذات تيجان على شكل اللوتس أو البردى أو النخيل ، وترجع أجمل نماذجها إلى الأسرة الخامسة . وتتجلى براعة المهندسين المعماريين فى المصاطب الكبرى المتميزة برسومها البارزة والتى تبلغ بين عهدى كاكاى وتيتى مبلغاً كبيراً

من الدقة والكمال . وعلى جدران المقابر نشهد المناظر الجميلة للحياة اليومية . حقاً ، لقد كانت الحياة اليومية دائماً موضوعاً للنقوش ، ولكنها تبلغ ذروتها فى مقبرة تى ، حيث تظهر أبهة الأغنياء الذين يحف بهم عدد كبير من الخدم والحشم ، كما نرى العمل فى ( الورش ) الخاصة ، والحياة الشاقة التى يحياها الفلاحون بين مزروعاتهم وحيواناتهم ، تلك المناظر المؤلمة حيناً والمسلية أحياناً ، والتى تزخر بالحكايات الصغيرة التى يلتقطها صناع مجهولون ممن لا يزالون مختلطين بالفلاحين. وقد خلدت انتصارات الملوك ( ساحورع ) وأعمالهم الكبرى ( أوناس ) بنفس القدر من البراعة .

ولم يعرف فن النحت مثل هذه المصادر المتنوعة للإلهام . كان المثال — لكي يضمن صلابة « الصور الحية » التى ينحتها فى الحجر والخشب — يختار عدداً محدوداً من الأوضاع للملوك والأشخاص فرادى أو جماعات . ومن جو الجمود المفروض ، تمكن الفنانون من أن يضفوا على التماثيل مظاهر الهيبة المحببة إلى نفوس الكبراء ، وهم يضيفون تأثيرات مبالغاً فيها باستخدام كثير للألوان الزاهية. وإذا كان جسم صاحب التمثال يحوى عيبا فنجد أن الفنان يبرزه بلباقة . ولكن غالباً مايصور الجسم الإنسانى بنسب مثالية . أما وجه التمثال فهو « بورتريه » أى صورة طبق الأصل لصاحبه . ويتوافر لنا من الأسرتين الرابعة والخامسة عدد صغير من القطع ذات المستوى الفنى المتوسط، بينما يوجد عدد كبير من القطع الفنية الممتازة ، مثل : تماثيل خفرع ومنكاورع ورع حتب مع زوجته نفرت ( الأسرة الرابعة ) وشيخ البلد ، والكاتب المصرى فى متحف اللوفر (الأسرة الخامسة) ثم أعجب التماثيل جميعاً ، وهو تمثال «أبو الهول» المنحوت من تل صخرى . ومع ازدياد عملاء المثالين فى الأسرة السادسة — بدأت جهودهم تتجه إلى إنتاج تماثيل بالجملة ، وهى — وإن كانت تتبع القيود الفنية المتوارثة — مقبولة فى مجموعها . ومن ناحية أخرى نرى صناع المعادن يصنعون تمثالاً عظيما من النحاس المطروق للملك بيبى ، وتمثالاً للإله الباشق حورس سيد معبد هيراكونبوليس .

ولم ينس المصريون القدماء تسخير الفنون الصناعية لخدمة الموتى في الدولة القديمة. ولا يتوافر لدينا عدد كاف من الآثار في هذا الصدد، باستثناء الأثاث الجنائزي المطعم بالذهب في مقبرة أم الملك خوفو، إذ إن معظم القطع الثمينة سرقت من المقابر. ونرى إنتاج وأعمال النجارين والصاغة تشغل مكاناً هاماً إلى جانب الفخارين ونحاتي الأواني الحجرية في نقوش المقابر. ويستمر إنتاج أنواع فاخرة من الأواني المرمرية في أيام الأسرة السادسة، ولكن هذه الصناعة تختفي بعد ذلك. أما الأواني الفخارية فقد فقدت جمالها وزخرفتها منذ عصر ما قبل التاريخ.

## الفن والديانة في الدولة القديمة

### عالم الأحياء

نعثر من حين لآخر على كتل حجرية متفرقة كانت جزءاً من المعابد التي أقامها ملوك منف للآلهة، ثم أعيد استخدامها في إقامة أبنية أخرى بعد ذلك، مثل ضريح أوزوريس في أبيدوس ومعبد « قصر الصاغة » في الفيوم، غربي بحيرة قارون. والواقع أن هذه الوثائق القليلة وتلك الآثار النادرة القائمة لا تكفي لتخيل رسم الأبنية المقدسة، ومعرفة ما إذا كانت هذه الأبنية قد احتفظت بنموذج المعابد الخشبية الأولى. وهكذا يبقى موضوع تطور المعابد الإقليمية الكبرى رهن البحث.

ولحسن الحظ تتوافر الوثائق الكافية لإلقاء بعض الضوء على مجموعة آلهة ذلك العصر، مثل اكتشافات الحفائر، وقوائم الألقاب المنقوشة على المصاطب، والأختام الأسطوانية، وأسماء المؤسسات الملكية، والتقاليد اللاحقة. وفي مجموعة الآلهة نجد كثيراً من آلهة الأقاليم الأساسيين، كما نجد عدداً من آلهة سيطويهم النسيان فيما بعد.

ففى الشمال : حورس من مدينة مسنت ، كبش مدينة منديس ، سيدة مدينة إيمى ، أوباستيس ، حيكة . . . إلخ .

وفى الجنوب : خنوم سيد مدينة حور ، سيدة مدينة القوصية ، إيون موتيف ، مين ، موشو . . . إلخ .

وتقوم على شئون العبادة فى كل معبد جماعة من الكهنة تسمى « خدام الإله » تحت إشراف « كبير الكهنة » ، ويعتبر كبار القوم فى العاصمة كهنة لهذا الإله الإقليمى أو ذاك ، وزوجاتهم كاهنات للآلهة نايت أو حاتحور . وتكشف عبادات الآلهة أنوبيس وخنوم وحاتحو فى كل معابدهم الإقليمية تطابقاً كاملا للآلهة المحليين الأوائل الذين كانوا على أشكال الكلب أو الكبش أو البقرة ، كما تذوب صفاتهم الأصيلة فى شخصية الآلهة الكبار . ويحتل أرقى المناصب الدينية هؤلاء الكهنة الذين يحملون الألقاب الآتية ( وكل لقب مصدره عقيدة دينية معينة هى السائدة فى المدن المناظرة ) :

خاتم الفم (١) — مدينة أوسيم ، كبير الراصدين — مدينة هليوبوليس .
كبير رؤساء العمال — مدينة منف ، كبير الخمسة — مدينة هرموبوليس .

وكان الأفراد يتخذون أسماء مشتقة أو منسوبة إلى أسماء الآلهة ، وذلك شاهد على الولاء المفروض لها حيث كانت الأسماء تصف الإله بأنه : خالق وسيد وغذاء وحام لعبده . غير أن الحياة الدينية الحقيقية التى عن طريقها ينفصل الفرد عن الإطار الاجتماعى للمعتقدات ويسمو إلى مرتبة الحياة الروحية الأصيلة لا يمكن إلا أن تكون موضع تأويلات واستنتاجات . ويبدو أن القادة الروحيين الكبار الذين ألفوا كتب الحكمة قد سلموا بوجود رب ( لم تحدد شخصيته ) يكافىء على الخير ويجازى على الشر كما تظهر — بصورة خافتة — فكرة الحساب الأخير فى النصوص الجنائزية . وحتى

(١) وفقاً لأسطورة أوزوريس — يعود هذا الإله إلى الحياة بعد « فتح فمه » ومن ثم اعتبرت هذه العملية طقساً سحرياً يوكل لأحد كبار الكهنة ، حيث إنها عملية مناظرة لإعادة الموتى إلى الحياة . ( المترجم ) .

إذا افترضنا وجود نظرية دينية موحدة فى الدولة القديمة ، فمن المستبعد أن تكون تاجاً لإدماج شخصيات الآلهة المختلفة ، كوسيلة للتوفيق بينها وبين الاعتقاد التقليدى فى تعدد الآلهة ، إذ كانت كتابات الحكمة — شأنها شان الكتابات الرسمية — تفصل دائماً فصلا تاماً بين كل إله وآخر .

فى الفترة من الأسرة الرابعة إلى الأسرة السادسة ينتشر استخدام الرموز الهيروغليفية لخدمة الأحياء والموتى على السواء ، وتتزايد باطراد كتابات المقابر ، وتنسخ الطقوس الدينية من المخطوطات على جدران المدافن الملكية ، وتتحول النقوش المحفورة على صخور الصحراء إلى مضابط حقيقية ، ويجعل فنانو منف من الرموز الهيروغليفية قطعاً فنية صغيرة رائعة . ويتخصص « كتبة الكتاب المقدس » فى المحافظة على الأدب الدينى وإثرائه ، بينما يظهر نوع من الكتابة السريعة على الصحائف ويتطور ليصبح نظاماً مستقلا للكتابة هو « الهيراطيقية » . ويصل إخراج الكتابات الإدارية إلى درجة عالية من الكمال . ويبدأ الكتبة فى استخدام الأقواس والفقرات المستقلة ( كما فى بردية أبوصير ، إلفنتين ) . وكما ينمو الأدب الدينى ينمو أيضاً الأدب الدنيوى . ويلتزم علماء الدولة القديمة التزاماً صارماً بالتقاليد التى خلقها إيمحتب ، فيكتبون المصنفات العلمية ويقصرون التأليف الأدبى على كتابة الحكمة .

ويتعمق المحنطون فى دراسة التشريح . وعن طريق التجربة والملاحظة يبتدع « جراح القرية » و « الساحر الشافى » نوعاً من العلاج العملى للأمراض ( انظر رسوم مقبرتى سقارة ) . وفى خدمة القصر تعمل هيئة من الأطباء العموميين وأطباء العيون والأسنان . وتشير بردية إيبرس إلى اثنتين من وصفاتها الطبية ترجع إلى الأسرة السادسة . ولا شك فى أن غالبية التراث العلمى للدولة الوسطى يرجع إلى الألف الثالث ق . م . ويسرى هذا أيضاً على المؤلفات الرياضية . إن بناة الأهرام

الذين وضعوا أسس فن العمارة توصلوا إلى مبادئ علم الحساب وفهموا العلاقات الهندسية البسيطة ( والمفيدة ) التي تحكم عمليات البناء .

وتصدر كتب « التعاليم » المفروض فيها أن تكتب في شكل وصايا يوجهها المؤلف إلى ابنه ، وهي في شكلها النهائي ، أقرب إلى مجموعة قواعد محددة للآداب العامة والسلوك المدني — منها إلى كتب الأخلاق . ويصوغ جدف حر ( بن خوفو ) مع وزيرين من الأسرة الخامسة ( بتاح حوتب ، كايرس ) يصوغون مواعظ أخلاقية للموظفين المتنورين ، ويدعون إلى عبادة النظام القائم . غير أن أفكارهم الجامدة عن المجتمع والإنسان لن تلبث أن تتخلف عن مجرى الأحداث ، وذلك عندما ينفجر الانقلاب الشامل الذي أعقب الأسرة السادسة .

# الفصل الثالث

## الفترة الانتقالية الأولى

كان التطور الاجتماعي يسرع الخطى على الأقل في منطقة منف — بينما تتمزق الدولة تحت وطأة طموح الأشراف . كان البنيان الاجتماعي مطعوناً في الأساس ، فانهار فجأة.فمنذنهاية حكم بيبي أو في أثناء حكم أحد خلفائه الأقربين— انفجرت ثورة شعبيةعاتية مصحوبة بأزمة حكم عنيفة(الأسرة السابعة).وكانت الأسرة الثامنة هي آخر الأسرات الحاكمة في منف،وحلت محلها أسرة ملكية جديدةفي هيرا كليوبوليس(١) ( الأسرة التاسعة ) .

وعلى خلاف الدولة القديمة ، لم نعثر في منف إلا على وثائق ضئيلة ترجع إلى المرحلة الانتقالية الأولى ، هذا بينما تتكاثر المدافن والجبانات الإقليمية . لقد تمكن الحكام العظام في الأقاليم الجنوبية من تأسيس دويلات مستقلة من الناحية العملية عن كل من منف وهيرا كليوبوليس . وكان لهذا التطور نحو اللامركزية ميزة ، هي أنها أدخلت العواصم الإقليمية في حركة التاريخ . وكانت منف قد طمست وجود تلك العواصم في أثناء المركزية المطلقة التي سادت في الدولة القديمة . ولكن النتائج المترتبة على قيام هذا النوع من الإقطاع كانت سلبية في مجموعها . لم تتمكن الثورة من إقامة منشآت خالدة، بل إن العنف الذي صاحب تلك الحركة،والحروب التي نشبت بين الأمراء ، وتقسيم البلاد — وهو بطبيعته أمر ضار بالنسبة لعملية

---

(١) إهناسيا المدينة — محافظة بني سويف . ( المترجم ) .

الاستغلال المنتظمة للأراضى الزراعية — كل ذلك تسبب فى انهيار الاقتصاد المصرى؛ الأمر الذى انعكس بدوره على فنون ذلك العصر .

غير أن ثانى الأسرات الحاكمة فى هيراكليوبوليس وصلت إلى حد من الاستقرار مكنها من بدء عملية إنعاش للدلتا والمناطق التابعة لها ، ولكنها لم تلبث أن انهارت أمام آخر هجمات ملوك طيبة ( حوالى ٢٠٥٠ ق . م ) ، وكان نفوذ هؤلاء قد أخذ يتزايد باطراد خلال سلسلة من الحروب والمعارك المحتدمة .

## الثورة والأسرات الحاكمة الأخيرة فى منف

من بين الأدلة المعاصرة للهزة التى اقتلعت الدولة القديمة من جذورها ، الفقر الواضح لمقابر جبانات منف .

أما مصادرنا الحقيقية فهى ثلاث وثائق تستعيد ذكرى العاصفة فى تاريخ لاحق : الأولى «مجموعة التحذيرات» . وهى شكوى «تنبؤية» كان يغنيها الشاعر إيبو—ور فى حضرة الفراعنة المسنين . والثانية نبوءة نفرتى التى وضعت فى عهد أمنمحات الأول . والثالثة أجزاء من « خواطر عنخو » ، وهى تأملات كتبت من أيام سيزوستريس الثانى . إن هذه الأعمال الأدبية الجميلة تصور بشكل رائع ما انتهت إليه تلك الأحداث من مآسى .

ولكن التبريرات المصاغة فى أسلوب تغلب عليه المعانى التقليدية القديمة تحول دون تبين المغزى التاريخى الحقيقى للأزمة .

لقد وصلت أصداء الثورة إلى كل أنحاء مصر ،ولكن جميع الدلائل تشير إلى أن الانفجار الشعبى حدث أساساً فى منطقة منف وهليوبوليس حيث تزداد نسبة سكان المدن ويزداد نفوذ الكهنة وأصحاب المهن . قام «صغار المواطنين الأحرار » (بجس)

بتحريض الفقراء وهاجموا الأغنياء ورجال الإدارة . وأجبر الكبار على التخلى عن ممتلكاتهم أمام الجموع الثائرة ، وهاجر البعض ، وسقط الآخرون فى مهاوى الفاقة . وعجز الموظفون عن مواجهة الموجة ، وتعرضت مكاتبهم للنهب والسلب . وعجزت الحكومة عن حفظ النظام وتركت الأقاليم نهباً للصوص وقطاع الطرق والعصابات النوبية .

كذلك تدفقت قبائل الأعراب الآسيويين عبر الحدود الشرقية واحتلت شرقى الدلتا ونشرت فيه حكم الإرهاب والفوضى . وحيث أفلت زمام الأمن ، تعطلت الأيدى العاملة ، وهجرت أعمـــال الزراعة ، وحل الخراب وقضى على الاقتصاد المصرى .

وتبرز النصوص الأثرية ما يتم فعلاً من التخلى عن المعتقدات وعن مفهوم الكيان الملكي الإلهى . ويتولى الثوار إحراق القصر الملكى نفسه . وتثبت الحفائر الأثرية سيادة اللامبالاة تجاه الآلهة والموتى على السواء ، والتخلى عن الاهتمام بالمدافن والجبانات وشيوع أعمال السلب والنهب لها . ويتحدث البعض كثيراً عن « تكافؤ الفرص بالنسبة إلى الامتيازات الجنائزية فى الدولة الوسطى ، ولكن يجب ألا ننسى ، ونحن بصدد تقييم الآثار الأخلاقية للفترة الثورية ، نظرة الشك التى تناول بها الكتاب المتشائمون موضوع جدوى النصوص الجنائزية والطقوس الدينية ، بل ومسألة خلود الروح نفسها . ولكن احتقار الملكية أدى فى نفس الوقت إلى إثراء الأدب الشعبي بقصص تعادى الملوك القدامى وتنال من هيبتهم .

يقول تفرتى فى تصويره للكارثة المهولة : « تصدر القوانين المنافية لمصالح ( ؟ ) البلاد . . . ويتصدى للقيادة عدد غفير من الناس . . . وتشتد وطأة الضرائب على دافعيها . . . » ويستدل من ذلك على أن الثورة الشعبية قامت بمحاولة إعادة تنظيم الحكومة على أسس جديدة . وحتى لو افترضنا أن ثورة منف تمخضت عن مثل هذا

النظام السياسى الجديد فلا بد أن يكون قد أيد على أيدى الإقطاع الإقليمى ، أو بوساطة الأسرات الملكية التى أعقبته . والواقع أن جميع الكتابات التى سجلها المتنبئون عن تلك الفترة نهجت نهجاً معادياً للثورة ، وصورت الأزمة على أنها مجرد تغيير الأيدى القابضة على الثروات . ومن أمثلتها : « إن أولئك الذين لم يكن فى مقدورهم أن يأمروا بصنع صندل لأقدامهم قد استولوا على الكنوز » وعلى الرغم من عدم توافر أية أدلة معاصرة ، فإن الباحث لا يمكن أن يصدق مثل تلك الأقوال المغرضة .

والواقع الثابت أن المفهوم الملكى للحكم ، على الرغم من الهزات التى تعرض لها ، قد ظل قائماً بعد مرور العاصفة . ولقد استخدم مانيتون تعريفاً رمزياً للإشارة إلى الأسرة السابعة حيث قال إنها تتكون من « سبعين ملكا فى سبعين يوماً » . ووفقاً لهذا التعريف يمكن الاستدلال على أنه قد تتابع على رأس السلطة فى فترة وجيزة سلسلة من المغتصبين قصار العمر من المحرضين الشعبيين أو من قادة الأقاليم . أما الأسرة الثامنة فقد جاءت بنوع من الحكم المختصر ، وإن يكن أكثر استقراراً . ولا علك أن نقدم قائمة كاملة لخلفاء بيبى الثانى ، فلنقتنع بإيراد بعض الأسماء : ذكرت قائمة أبيدوس أسماء ثمانية عشر ملكا بين الدولة القديمة والدولة الوسطى ، وحددت فى بعض الأحيان أسماءهم الخاصة . ويمكن الاطمئنان إلى صحة تلك القائمة حيث تتفق أسماء الملوك مع أسلوب ذلك العصر فى التسمية ، ومن أمثلة ذلك : نبى ، شماعى ، خنو ، دجرر ، بيبى سنب ، عانو . وهناك خمسة ملوك باسم مرى كارع مما يوحى بأن هناك ملوكا حاولوا إحياء ذكرى بيبى الثانى . وعثر فى سقارة على نقوش بأسماء نفر كارع الأصغر ، كاكارع إيبى ، حورس تاوى — مما يؤكد أن منف كانت ما تزال تحتفظ بمركزها كعاصمة للبلاد . كما تدل النقوش التى عثر عليها فى وادى الحمامات باسم المليكين إيتى ، إيمحتب — على أن آخر ملوك منف كانوا لا يزال لديهم القدرة على استغلال مناجم الصحراء الشرقية . أما مراسيم قفط التى أصدرها

الملكان : حورس ديعيج إيبتاوى ، نفركاو حر — فتدل على أن هذين الملكين ظلا محتفظين بالتقليد الخطير الخاص بوقف الممتلكات والمؤسسات الكبيرة على المعابد ، ومنح امتيازات ضخمة للحكام العظام فى الإقليم الخامس ، بوصفهم من الوزراء والخلفاء .

## مملكة هيراكليوبوليس

هل قدر لملوك الأسرة الثامنة أن يقفوا فى وجه منافسة أسرات ملكية مناوئة نابعة من الإقطاع المحلى ؟ . الواقع أنه يجب أن نطرح جانباً النظريات التى تقول بوجود أسرة ملكية فى قفط وفى أبيدوس ، وأسرة كنعانية فى الدلتا ، ولا ينبغى أن نعلق أهمية كبيرة على وجود مدفن للملك غامض ( خووى ) فى ( دارا )(١) من مصر الوسطى . ومهما كان الأمر ، فقد أصبحت مدينة هيراكليوبوليس الكبرى ، شمالى السهل الغنى لبحر يوسف ، وهى عاصمة الإقليم العشرين — أصبحت مقراً لبيت ملكى جديد حوالى ٢٢٢٠ ق . م . وبين الأسرتين التاسعة والعاشرة تمكنا من أن نعرف بالاسم للملوك الآتى ذكرهم : مريب رع — خيتى ، واح كارع — خيتى ، نفر كارع ، نب كاو رع — خيتى ، مرى كارع . ومريب رع هو أول ملك رتب ألقابه وفقاً للأصول : ( حورس ، خادم السيدتين ، حورس الذهبى ، الملك ، ابن رع ) .

ويقال إن أول ملك فى هذه الأسرة يحمل اسم خيتى الأول كان طاغية . أما خلفاؤه فقد قاموا بالكثير من أجل إنهاض مصر على الرغم من المشكلات التى كان يثيرها منافسوهم فى حكام هرموبوليس وطيبة . وفى عهد الملكين خيتى الثالث ومرى كارع أصبحت منف إحدى المراكز المحصنة فى الدولة . وتم إخضاع الدلتا

---

(١) بالقرب من أسيوط . ( المترجم ) .

ووادى النطرون لنفوذ هيراكليوبوليس ، وأعيد احتلال وادى الطوميلات على الحدود الشرقية (وقد شوهد اسم نب كاو رع فى حفائر تل المسخوطة بالقرب من الإسماعيلية) . ونظم نوع من الاستعمار العسكرى امتد إلى القنطرة لكى يمكن صد تسلل القبائل الآسيوية . وفى « وصايا إلى مرى كارع » سجلت تلك الأعمال ، منوهة بالدروس التى تلقاها الجنوب من هزائمه . وداعية إلى تفضيل الوسائل السلمية من أجل إعادة الرخاء إلى ربوع مصر ، وإلى الإعلاء من شأن التاج والمبادىء الملكية — ولكن فى أسلوب أكثر آدمية من التعاليم القديمة ، إذ تربط بين توفيق الجالس على العرش و « الدين النابع من القلب » ، كما تدعو إلى المحافظة على النظام الذى يريده الرب . ويبدو أن النظام الإدارى للأسرة التاسعة جمع بين بعض التنظيمات الإدارية لدولة منف ، مثل حرس الـ( تفرو ) ، وبين المناصب الناشئة من إدارة البيوت الخاصة — مثل « مدير البيت الملكى » .

وكان أهم شىء بالنسبة للأسرة التاسعة هو استعادة البناء الاجتماعى ، وإن كانت لم تتردد فى اتخاذ موظفين من بين صغار الأحرار ( نجس ) ، كما عملت على استتباب السلم الداخلى عن طريق توفير العيش وإقرار العدالة . وحدث فى أيام حكم الملك نب كاو رع أن كتب أحد المثقفين الفصحاء على لسان فلاح فقير من الواحات نقداً لاذعاً للنظام القضائى . ويبدو أن ملوك هيراكليو بوليس قد تمكنوا من إعادة شىء من الرخاء القديم إلى الأقاليم الواقعة شمالى أبيدوس وذلك بمعاونة حكام إقليمى سيوط وقوصية(١) ، وسيكون هؤلاء الملوك المثل الذى يلهم مؤسسى الأسرة الثانية عشرة فى طيبة .

---

(١) أسيوط والمنيا . ( المترجم ) .

# إمارات الجنوب وانطلاق طيبة

كانت أقاليم الجنوب فى أثناء الفترة الانتقالية الأولى بأيدى من جرت العادة على تسميتهم بالإقطاعيين . ولا بأس من أن نستخدم هنا كلمة الإقطاع على أن يفهم منها المدلول العام لنظام السادة فى الشرق الأقصى ، وألاتدل على مفهوم الإقطاع (١) فى العصور الوسطى ، لكيلا تترتب على ذلك نتائج تاريخية مفتعلة من أساسها . انتهزت أسرات الأمراء ، وكانت أغلبها قد استقرت منذ الأسرة السادسة ، فرصة الثورة لتنتزع لنفسها جوهر السلطات الملكية . وبينما كان كبار قادة الأقاليم يسلمون اسماً بسلطة الملك فى منف ثم فى هيرا كليو بوليس ثم فى طيبة ، إلا أنهم كانوا يتولون بالفعل كافة سلطان الملك فى أقاليم مصر الوسطى ( جبنو ، هرموبوليس ، قوصية ، سيوط ) وفى مصر العليا ( دندرة ، قفط ، طيبة ، إدفو ، هيرا كو نبوليس ، إليفنتين ) . ولم يعد أمراء الأقاليم يؤرخون أعمالهم وفقاً للحوليات الملكية ، وإنما وفقاً لحوليات أسرهم الإقليمية . وأخذوا يستغلون الناجم والمحاجر لحسابهم الخاص ، ويتولون بصفتهم كبار كهنة الأقاليم إدارة شئون المعابد المحلية . وقد ترتبت على هذه اللامركزية نتائج هامة ، إذ تحول كل جهاز إدارى تحت سلطة الحاكم المحلى إلى دولة داخل الدولة . وتكونت حول سادة الأقاليم بورجوازية جديدة من الموظفين والكهنة والأتباع ، واكتسبت فرق الجند المحلية أهمية خاصة غيرت الجهاز العسكرى فى البلاد تغيراً تاماً .

وتحتل الترجمات الشخصية مكاناً كبيراً فى مقابر الأمراء ، وهى تبرز -- بأسلوب تقليدى — السياسة الأبوية للفروض أن يحتذيها القادة ، ولو نظرياً ،

---

(١) يقصد الإقطاع الأوربى . (المترجم) .

فى تلك الفترة العاصفة . ويتحدث الأمراء كثيراً عن نجاحهم فى جلب الرخاء لمقاطعاتهم الصغيرة ويشجعون رعاياهم على العودة إلى ديارهم ويرحبون بزيادة سكنى المدن ، وهم يواصلون مطاردة قطاع الطرق الذين يعملون تحت جنح الليل ، ويحترمون ملكية صغار الأحرار ( نجس ) ويعولون الفقراء والمعوزين والأرامل ، ويأخذون الحيطة ليجنبوا البلاد ويلات المجاعات الدورية . ولكن الواقع أن تلك المجاعات التى لا يأتى ذكرها إلا فى هذا الزمان ، ليست إلا نتيجة حتمية للانقسام السياسى والحروب الداخلية التى مزقت وحدة الأراضى المعتمدة على الرى . ويعترف الإقطاعيون — ضمناً — بمسئوليتهم فى خراب البلاد عندما يضيفون إلى السجل التقليدى لمناظر الحياة الاجتماعية والاقتصادية صوراً جديدة للحروب والمعارك الداخلية ، وحينما يهنئون أنفسهم بالانتصارات التى يحرزونها ضد أبناء جلدتهم على أيدى أعوانهم الشبان والقوات المرتزقة من النوبيين والليبيين والساميين . ومن أمثلة تلك الحروب : غارات الأمير « عنخ تى فى » قائد الأقاليم الثلاثة فى أقصى الجنوب ضد إقليم أرمنت ( حوالى ٢١٣٠ ق . م ) ، ثم تمرد أمراء إقليم « الأرنب البرى» ضد ملك هيرا كليوبوليس ، وخاصة النزاع الطويل الذى قام بين طيبة وبين ملوك إهناسية . والمرجح أن أنتف الأكبر وخلفاءه قد كتلوا حكام طيبة وقفط فى إمارة عسكرية قوية وأعلنوا التمرد ضد مملكة هيرا كليوبوليس فى أثناء حكم خيتى الأول . وفى عهد الملك نفر كارع يكاد الأمير « عنخ تى فى » يصل إلى نفس الدرجة من القوة العسكرية التى وصل إليها أمراء الأناتفة ، ويؤكد هؤلاء الأمراء استقلالهم عندما ينتزعون الامتيازات الملكية ، ويحيطون أسماءهم بالخراطيش ويخلعون على أنفسهم ألقاب حورس ، ابن رع . وفى أثناء حكم خيتى الثالث خسرت مملكة هيرا كليوبوليس منطقة طيبة فى حروبها ضد أمراء الجنوب ، ثم استردتها ، ثم عادت وخسرتها من جديد . ولذلك أوصى الملك خيتى الثالث ابنه بأن ينشد السلم مع أمراء الجنوب . ولكن حلفاء مملكة هيرا كليوبوليس من منطقة أسيوط

يضطرون لدخول معارك دفاعية لصد مزيد من هجمات أمراء الجنوب . وبعد ذلك تتلاحق الأحداث بسرعة ولايلبث أن ينجح الملك سعنخ تاوى — منتوحوتب الأول قائد التحالف الجنوبى من خلع الملك مرى كارع آخر ملوك هيرا كليوبوليس .

وقد استمرت مصر الإقطاعية — على الرغم من تجزئتها — على علاقة وثيقة مع بلاد النوبة السفلى ، وهى التى تسمى حينئذ بلاد واوات نسبة إلى أقرب القبائل النوبية إلى أسوان . وتظل البضائع الإفريقية تصل إلى هيرا كليوبوليس فى فترات السلم. ويواصل الملوك خيتى والحكام الكبار فى الأقاليم تجنيد رجال من قبائل النحس والميجا ، لفرق حملة الأقواس . ويقوم الأمير عنخ تى فى بعد بلاد واوات بالمؤن لإنقاذها من المجاعة . ويصل « قائد المترجمين » إلى واوات لتحصيل الضرائب العينية لحساب أمراء طيبة . وكان هذا الوضع نتيجة عوامل متناقضة : عندما اجتاحت الدلتا قبائل « عامو » السامية ، قامت الأسرة الثامنة ببسط النظام الذى خلقه مترجمو إليفنتين فى أثناء حكم الملكين ببى إلى الجنوب . ومن الدلائل التى تشير إلى وجود بذرة مصرية فى النوبة ، وانتشار اللغة والتعاليم المصرية فى تلك الأنحاء — نذكر كتابات النوبى سجرسنتى ، وهو من أتباع الملك الغامض واح كارع ، حيث يستعمل هذا النوبى الرموز الهيروغليفية لتسجيل انتصاراته على القبائل المجاورة لمدينة دهميت ، ويذكر اسم مدينة أخرى إلى جنوبها تحمل الاسم المصرى برسنبت . وتظهر فى أثناء حكم أمراء الأناتفة تقريباً ، وفى المنطقة ما بين دابود والشلال الثانى ، تظهر أسرة نوبية عرف اثنان من ملوكها عن طريق عشر كتابات صخرية محلية ، وهما : « كاكارع — إينى » الذى يحمل خمسة ألقاب على غرار ملوك خيتى ، « إيب خنت رع » . ولاشك أن انتصارات ملوك طيبة قضت سريعاً على تلك البشيرة المتواضعة للمملكة الفرعونية فى السودان .

# القيم الحضارية : الأخلاقية والمادية

## فى الفترة الانتقالية الأولى

إن المادة التى يعتمد عليها عالم الآثار فى دراسة الفترة الانتقالية الأولى ، شأنها شأن الدولة القديمة ، مستمدة فى غالبيتها من الجبانات ، بينما لا نعرف شيئاً عن المعابد. كانت الحالة قد انحدرت بأهل منف ، بحيث لم يعودوا قادرين على إقامة المنشآت الضخمة ، بينما لم يكن أهل طيبة قد أيسروا بعد بدرجة تسمح لهم بذلك . أما حكام الأقاليم الذين كانوا يتحدثون أحيانا عما أنجزوه من تجميل معابد مدنهم ، فإنهم فى الواقع لم يقوموا بشىء أكثر من ترميم المنشآت القديمة بتكاليف هزيلة . ولم يكن ثمة سوى الملوك الذين عرفوا باسم خيتى الذين كانوا فى حالة تسمح لهم بإقامة معبد عظيم لإله عاصمتهم . ولكن حتى الآن لم تتمكن أعمال التنقيب التى أجريت فى هيرا كليوبوليس من العثور إلا على الآثار اللاحقة على الأسرة الثانية عشرة .

ويبدو أن ملوك الأسرتين السابعة والثامنة لم يتمكنوا من بناء مدافن تليق بمكانتهم . وقبل أن ينشىء الملك مرى كارع الجبانة الملكية بسقارة ، لم يعثر فى منف إلا على الهرم الضئيل الذى بناه إيبى ، والمصاطب الصغيرة الخاصة . وعلى خلاف ذلك أقيمت مقابر متعددة للأشراف محفورة فى الجبل ، ونحتت كهوف الحكام المحليين فى بنى حسن وميرو أسيوط ودراع « أبو النجا »( جبانة الأناتفة ) وإدفو ... الخ . وتوجد للناس البسطاء مقابر على شكل حفر فى مساحات واسعة فى مصر الوسطى ( قاو ، مطمار ) وفى غرب الدلتا ( كوم الحصن ، قطة ) . وهذه المقابر مزودة بأثاث جنائزى متواضع وإن كان يحتوى أحيانا على قطع صغيرة من الحلى الذهبية ، وينفرد بعض الأختام الدائرية عليها زخارف هندسية قد يرجع نموذجها الأصلى إلى موطن آسيوى . أما مدافن الأغنياء ، وهى المقبرة المحفورة فى الجبل والمصطبة المبنية باللبن ( لم يستخدم الحجر الجيرى إلا فى صنع اللوحة الداخلية ) ، فهى تقلد النماذج السائدة

فى الأسرة السادسة . ولكن أدخلت — منذ ذلك الحين — تعديلات هامة فى الأثاث الجنائزى : استبدل التابوت الحجرى بتابوت خشبي مزدوج تكتب بداخله النصوص الجنائزية فى خطوط عمودية ويعلوها رسوم تمتد أفقيا مكونة من الأدوات والحلى الجميلة ، وتكتب تعويذة الألقاب الممنوحة من الملك للمتوفى. وتوفيراً للمجهود ، جسدت صور الحياة الخاصة فى تماثيل صغيرة من الخشب أو من الحجر الجيرى . ووجدت فى حجرات الدفن أكداس من مجموعات هذه التماثيل التى تمثل مختلف الحرف والقرابين الغذائية ومراكب الحج .

وهذه النماذج الفنية الجديدة تظهر إبداع الفنانين الإقليميين وتميزهم عن صانعى النماذج المألوفة . فإن أجمل التماثيل التقليدية المنحوتة فيما بعد ( مثل تمثال نختى فى اللوفر ) لا تعدو أن تكون مجرد امتداد لفن النحت فى الأسرة السادسة . إن المجموعات الشهيرة التى تمثل « حاملات القرابين » و « الفرقة المزدوجة لجنود الشريف مسيحتى » المشكلة من حملة الرماح الأسيوطيين ذوى اللون الأحمر وحملة الأقواس النوبيين ذوى اللون الأسود ، إن هذه التشكيلات الجميلة من صنع نخبة ممتازة من أمهر الصناع فى تلك الفترة . ولكن النماذج كانت فى الغالب خشنة الصنع ، ومع ذلك فإن الأسلوب المؤثر والموحى بالمجهود الكبير الذى بذله صانعوها البسطاء يجعل منها عملا فنياً لا مجرد مادة للتسلية . ويشوب مثل هذا الضعف اللوحات الحجرية الجنائزية فى مصر العليا ، وإن تكن هذه اللوحات أقل جاذبية من النماذج . وأدخل صناع الحفر تفاصيل لطيفة — ولا سيما فى الرموز الهيروغليفية . ولكنهم رسموا الأشخاص فى صور ناقصة وبدائية ، وهى ليست سوى تقليد ضعيف للأصول الفنية القديمة فى منف . أما الرسوم المصورة على جدران المقابر المحفورة فى الصخر — فتتفق مع مايتسم به ذوق تلك الفترة من بدائية ، وتضحى بالقواعد الفنية فى سبيل تحرى الدقة فى التسجيل التاريخى . ففى آثار أسيوط وبنى حسن تفتقر الصور إلى الحيوية ، ومن أمثلتها : رسوم الحصار ، كتيبة الأمير إتيبى، الرقص الحربى فى مقبرتى

با كتى وختى . وعلى العكس ، نجد مجموعة أخرى من الرسوم المليئة بالحركة العنيفة المتحررة من القيود التقليدية تصور أعداداً لا حصر لها من الصارعين ، وفى مقبرة (عنخ تى فى) بيلدة المعلى نجد صورة معارك المرتزقة والمراكب المقدسة ، وبصفة عامة كان فن الفترة الانتقالية الأولى تقليداً ضعيفاً لفن منف ، وما كانت تلك الفترة لتستحق اسمها لولا أنها كانت بشيراً لمقدم الدولة الوسطى فى مجالات أخرى ، والإضافة الحقيقية التى أتت بها تتمثل فى تطور الديانات المحلية ونصوص التوابيت التى حددت للمفهومات الجنائزية ، ثم بعض الأفكار الجديدة التى نجد تعبيراً لها فى الأدب الأخلاقى والسياسى .

من الواضح أن الديانات المحلية قد استفادت من مولد دويلات صغيرة حول العواصم الإقليمية . ارتقى إله المدينة : أوبوات فى أسيوط ، خنوم فى شوطب ، حيمين فى حيفات — ولقد ارتقى فى نفس الوقت كل إله للإمارة ، إلى إله يدين له «الحاكم الكبير» بالولاء ، يعزو إليه انتصاراته ويرتكن إليه فى سلطته . وعندما استقرت أسرة هيرا كليو بوليس فى الحكم وصل الإله إرسافيس إلى مجمع الآلهة الكبار الذين ينتسب إليهم الفراعنة . كذلك صعد الإلهان مونتو ( أرمنت ) وآمون ( طيبة ) إلى مراتب الآلهة الكبار مع صعود نجم أسرة أنتف . أما الإله آمون فقد كانت عبادته قديمة فى طيبة ، حيث يشهد معبد الكرنك تقليداً لعبادة سنفرو بصفته أقدم ملك عبد هناك ، ووجود نسخ التماثيل التى أهداها ساحورع ونى أوسررع وبيبى الأول . غير أن آمون — الذى سيصبح فيما بعد ملك الآلهة والذى انتحل صفات « مين » ( إله قفط ) ومثل بالإله « الذى لا يرى » وهو أحد آلهة الكون فى أسطورة الخليقة لمدينة هرموبوليس — كان هذا الإله أمون يقل شأناً عن منتو فى الدولة القديمة . وعندما استقر أمراء أنتف فى طيبة رفعوا « بيت الإله آمون » إلى نفس مرتبة ضريح مونتو إله أرمنت . أما أبيدوس فقد ظلت

محتفظة بمكانتها على الرغم من المعارك العنيفة التى شنت حولها ، ولكن ديانة أوزوريس التى أصبحت أكثر تشبعاً بمفهوم الحساب بعد الموت ، فقد ظلت تحتل مكاناً ثانوياً فى نصوص التوابيت .

وإذا قارنا نصوص التوابيت بنصوص الأهرام ، وجدنا الأولى تستعير أو تقتبس بعض فصول الثانية ، وهى فى جملتها أقل تجانسا ولغتها أكثر حداثة . وتظهر فيها التطورات التى جرت فى المفهومات الدينية بعد الأسرة الخامسة ، وتحتل النظرية الشمسية المكان الأول فى نصوص التوابيت ، ولكن بعض التراتيل ، ومنها مالا يوجد إلا فى جبانة واحدة فحسب ، تعكس تأثير الطقوس الإقليمية القديمة . كما أن اتساع رقعة العالم المعروف أدى إلى أن تظهر الإلهة حاتحور فى أشكال جديدة مستمدة من بيبلوس وبلاد بونت . أما السحر فلا يهدف إلى ضمان النصر العظيم فى السماء للمتوفى ، ولكن مهمته تقتصر على تجنيبه العقبات والمخاطر التى قد يتعرض لها من الكائنات الشريرة فى العالم الآخر ، وذلك عن طريق الترتيلات الدينية التى تعمد على الصيغ ذات التأثير فى تحويل الأشياء إلى أضدادها ، وعن طريق تعريف المتوفى بكنه العقبات والمخاطر ( المثبتة فى الكتاب المعروف باسم « كتاب الطريقين » ) . ولا تهدف الطقوس السحرية إلى تحويل المتوفى إلى إله ولكنها توفر له الحياة العائلية والغذاء الصحى والملذات الحسية التى يطمح إليها البرجوازى الصغير .

إن دخول الطبقة الوسطى إلى المعترك السياسى قد جعل للرأى العام وزناً فى جميع ميادين النشاط العام . كان بلاط الملك فى هيرا كليو بوليس يسعى لكسب تأييد الموظفين ، ومن ثم نشأ أدب للدعاية من أمثلة (تعاليم الملك خيتى الأول المفقودة، ووصايا الملك مرى كارع ، وشكاوى فلاح الواحات). وسوف نشهد ازدهار مثل هذا الأدب فى الدولة الوسطى . ولكن نوعاً من كتابات الحكمة ينشأ ويستقر بعيداً عن كل توجيه حكومى . وكانت الثورة قد أنزلت ضربتها بهؤلاء

للمثقفين الذين كانوا يستمدون امتيازاتهم من دولة منف وكانوا يرون فيها مثالا للكمال ، والذى ظلوا على ولائهم لها ، وحاولوا أن يخلدوا ذكرها . والوضح أن أن بعض التنبؤات الهامة فى الدولة الوسطى مثل : تحذيرات ونصوص « نفرت » تستمد وحيها من الشكايات التى حررت فى أثناء الأزمة الكبرى وكانت تتحدث عن « مآسى الزمان » . وإذ انفجر السخط الشعبى وكشف الإقطاع عن ضراوته نجد عدداً من المفكرين يندفع إلى البحث عن « كلمات لم ينطق بمثلها من قبل » وعن « صيغ جديدة لم يسبق إليها الأولون » ( مثل محاولات عنخو ) . ولكن الفردية التى دفعهم إليها القلق الاجتماعى لم تنته بهم إلا إلى اليأس . إذ يذهب ذلك المفكر الذى ألف كتاب « المتعب من الحياة » إلى حد إنكار جدوى العبادات الجنائزية ، غير أنه يتردد فى الاختيار بين الانتحار أو الانغماس فى اللذات الرخيصة التى يتغنى بها عازفو القيثار . وسنرى كيف تقمع الدولة الوسطى تلك الفلسفات العلمانية الإنسانيةالسابقة لأوانها وتغرقها فى فيض من الفكر التقليدى القديم .

# الفصل الرابع

## الدولة الوسطى والفترة الانتقالية الثانية

أسس الملك منتوحوتب الأول الأسرة الحادية عشرة ، وخلفه ملوك عديدون يحملون اسماً واحداً(١) هم صلب الأسرة الحادية عشرة (من ٢٠٦٥ إلى ٢٠٠٠ ق . م) وقد واصل هؤلاء الملوك سياسة أسلافهم من بيت أنتف من أجل تدعيم وحدة البلاد . وستبلغ الدولة الوسطى أوجها فى أثناء حكم الملكين أمنمحات وسنوسرت من الأسرة الثانية عشرة (من ٢٠٠٠ إلى ١٧٨٥ ق . م) وهى أسرة طيبية نقلت مقر الحكم إلى الليشت بالقرب من الفيوم . وتكون نظام جديد يتجه نحو المركزية وحقق للطبقة الوسطى درجة من التقدم كما نجح فى الحد من سلطة الأشراف المحليين باطراد . ولم تكتف مصر بالمحافظة على حدودها وإنما ذهبت تستعمر النوبة .

وبينما توجد أغلبية آثار الأسرة الحادية عشرة فى إقليم طيبة نجد أن آثار الأسرة الثانية عشرة منتشرة فى جميع مراكز الوادى ، ولا تفتقدها حتى فى الدلتا . أما الوثائق الأثرية الخاصة بالأسرة الثالثة عشرة فهى نادرة ، ومن المؤكد أن الأوضاع الداخلية لم تتغير تغيراً جذرياً كما يقال ، ولكن التدهور الواضح أصاب كلا من النشاط المعمارى والسياسة الخارجية للبلاد . وتمتد الفترة الانتقالية الثانية من الأسرة

---

(١) كانت أسرة أنتف مستقرة فى أرمنت ، وعندما انتقلت إلى طيبة (الأقصر) ، احتفظت باسم الأسرة الإقليمى وهو الاسم الواحد الذى تسمى به كل هؤلاء الملوك . (المترجم) .

الثالثة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة خلال ما يقرب من قرنين ( ١٧٨٥ — ١٥٨٠ ق . م ) ومعلوماتنا عنها أقل من معلوماتنا عن أية فترة تاريخية أخرى فى مصر الفرعونية . ولا يرجع ذلك إلى تعقد ضبط التتابع الزمنى الذى تخلقه الأساطير الملكية والأعداد الكبيرة من الجملان الأثرية — بقدر ما يرجع إلى تعذر الحصول على المصادر الواضحة التى تمكننا من تحليل الأسباب الجماعية لتدهور دولة طيبة .

لم تتمكن الأسرة الرابعة عشرة من صد هجمات الهكسوس على الدلتا . واحتل هؤلاء الملوك الآسيويون ( من الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ) الجزء الأكبر من مصر ، وأضيف بذلك عامل جديد إلى عوامل إفقار البلاد ، مما أدى بدوره إلى إفقار لا مزيد عليه لمصادر معلوماتنا . وهكذا لا يمكننا أن نحدد بالدقة الأساس الذى قامت عليه دولة جديدة فى طيبة ( الأسرة السابعة عشرة ) التى تمكنت من استرداد مصر من الغزاة وأنشأت الدولة الحديثة .

## الأسرات الطيبية

### من منتوحوتب الثانى إلى ديدوميس الثانى

إن البت فى أمر تتابع ملوك المانحة على عرش مصر الفرعونية هو من المشكلات القليلة التى لا تزال تثير الكثير من الجدل والنقاش . لم يتمكن المتخصصون حتى الآن من الفصل فيما إذا كان « حورس نترى حدجت » و « حـــورس سماتاوى » هما اسمان متتاليان لنفس الملك « نب حبت رع — منتوحوتب الثانى » أو إذا كان هناك ملكان مختلفان يحملان هذين الاسمين . ولكن الجميع متفقون على أن الأسرة الحادية عشرة تنتهى بحكم سعنخ كارع وبالمغتصب نب تاوى رع . وتشهد الآثار المتعددة الجميلة المنتشرة بين أبيدوس وإليفنتين على ما وصلت إليه المملكة

فى عهد هؤلاء الملوك من نهضة . وفى الشمال قام منتوحوتب الثانى ( وخليفته الذى اتخذ نفس الاسم وثار حول توليه الملك كثير من الشكوك ) — قام بالقضاء على حركات المقاومة الأخيرة للحكام العظام المحليين ، بل لقد ذهب إلى حد قيادة بعض الغارات إلى خارج الحدود .

فى أثناء حكم الملك نب تاوى رع فى حوالى ٢٠٠٠ ق . م انتزع الحكم وزيره المسمى أمنمحات بن سنوسرت . وبعد ثلاثين عاماً من الحكم ( من ٢٠٠٠ إلى ١٩٧٠ ق . م ) سقط صريع مؤامرة فى القصر ، ولكن ابنه سنوسرت نجح فى إبقاء الأسرة على العرش . ولقد لجأ غالبية ملوك الأسرة الثانية عشرة إلى احتياط حكيم ، إذ أشركوا الابن الأكبر فى تحمل أعباء الملك . ومن العوامل التى ساعدت على مزيد من استقرار الحكم على أيدى تلك الأسرة أن قدر لملوكها أن يظلوا على العرش مدداً طويلة : إذ تولى سنوسرت الأول عام ١٩٧٠ ق . م ثم أمنمحات الثانى عام ١٩٣٨ ق . م . وسنوسرت الثانى عام ١٩٠٦ ق . م ، ثم أعظم ملوك الأسرة سنوسرت الثالث عام ١٨٨٧ ق . م وأمنمحات الثالث ( من ١٨٥٠ إلى ١٨٠٠ ق.م). وقد أصبح سنوسرت الثالث المثل الأعلى للفاتح المصرى ، كما أصبح أمنمحات الثالث ( تحت اسم « لاماريس » أو « موريس » ) إلهاً يعبد فى الفيوم .

وأسس الملك أمنمحات الأول مقراً جديداً للحكم على الحدود بين الإقليم الحادى والعشرين فى الجنوب ( إقليم سمينو حور ) والإقليم الأول فى الشمال ( منف ) ، وسمى المقر الجديد مدينة «إيث تاوى» أى القابضة على القطرين ، واسمها الحالى (الليشت). وأقام ملوك الأسرة الثانية عشرة أهراماتهم كما أقاموا المجموعات السكنية للصناع والكهنة ممن يعملون بها فى دائرة تلك المدينة : ففى الليشت نفسها أقيمت منشآت أمنمحات الأول وسنوسرت الأول ، وأقيمت منشآت أمنمحات الثانى وسنوسرت الثالث وأمنمحات الثالث فى دهشور ، ومنشآت سنوسرت الثانى بالقرب من اللاهون

عند مصب بحر يوسف فى منخفض الفيوم . ويبدو أن منطقة الفيوم كانت مهملة فى الدولة القديمة ، وظل هذا المنخفض الضخم من الصحراء الغربية منطقة صيد وقنص شاسعة ، ولكنها أصبحت موضع اهتمام بعد أن استقرت الحكومة إلى جوارها منذ سنوسرت الأول ( راجع مسلته القائمة فى إبجيج ) والواقع أن الفيوم تدخل التاريخ ابتداء من عهد أمنمحات الثالث حين أقام هذا الملك بالقرب من شدت ( مدينة الفيوم ) التى سبقه أسلافه إلى تجميلها ، أقام هرماً فى هوارة ، كما بنى قصر اللابيرنت وهو مجموعة جنائزية قصد بها محاكاة منشآت الملك زوسر . ولكن مايزال الجدل قائماً حول طبيعة أعماله العظيمة فى مشروع تخزين المياه فى منخفض الفيوم ( التى يشهد بها مقياس النيل فى سمنه(١) ). وأبدى بعض المتخصصين حججاً وجيهة لإنصاف ماذهب إليه هيرودوت من أن الفيوم تحولت حينئذ إلى خزان هائل لجزء من مياه الفيضان . بينما انحاز الكثيرون إلى الرأى القائل بأن قناطر اللاهون لم تكن سوى وسيلة للتحكم فى عمليات غمر المنخفض بمياه الفيضان بشكل دورى من أجل استصلاح الأراضى الزراعية .

تنقطع سلسلة الملوك الذكور فجأة بعد الملك أمنمحات الرابع ( ١٨٠٠ — ١٧٩٢ ق . م ) وتنتهى الأسرة الثانية عشرة بشكل غامض بحكم الملكة سبك نفرو رع ( حوالى ١٧٨٥ ق . م ) وهنا بدأ التدهور يصيب الدولة الوسطى . ونكرر أننا لانعرف إلا القليل عن أسباب هذا التدهور ، وإن كان يختلف عن نظيره فى الفترة الانتقالية الأولى ، حيث سادت ظاهرة الانقسام الإقليمى والصراع الاجتماعى ، إذ اتخذ التدهور فى الدولة الوسطى شكل أزمات فى الأسرة المالكة . ولا تستند

---

(١) فى النوبة السودانية — حيث عثر على مقياس للنيل عليه رموز هيروغليفية تربط بين مستوى المياه هناك وأعمال التخزين الكبرى فى الفيوم — وترجع إلى عهد أمنمحات الثالث .
( المترجم ) .

النظرية القائلة بانقسام مصر — فى أثناء الفترة الانتقالية الثانية — إلى دويلات صغيرة ، إلا على تفسيرات بعض الوثائق النادرة والمشتتة جغرافياً ، الأمر الذى يجعلنا لا نعزو إليها قيمة إحصائية ثابتة .[ولا يستبعد أن الليشت ظلت مقر الحكم والإدارة ، وأنها شهدت سلسلة من انقلابات القصر . ومن المرجح أيضاً أن التمردات والمراكز المحلية للسلطة لم يكن لها سوى وجود عابر ، ( ومن أمثلة ذلك : نيخامعات رع خنجر فى الجنوب ومرمشع فى الشمال ) .

وقسم مانيتون فترة تقل قليلاً عن قرن من الزمان ( ١٧٨٥ — ١٦٧٥ ق . م ) إلى أسرتين هى : الثالثة عشرة والرابعة عشرة . وتورد القائمة الملكية فى متحف تورين أسماء حوالى أربعين ملكاً . ومن المؤكد أن بعض هؤلاء الملوك حكموا مدداً طويلة ، ولكن معظمهم لم يبق على العرش إلا مدة وجيزة ليحل محلهم منافسون من مثل نوعهم . ولا مناص من أن تقنع ببعض الوقائع البارزة المستخلصة من فوضى الدلائل والقرائن المتعارضة . لقد اعتبر مانيتون أن الأسرة الثالثة عشرة أسرة طيبية . والواقع أن الآثار التى خلفها مؤسسها أمنمحات سوبك حوتب الأول وخلفاء الملك سبك نفرو رع — فى طيبة ومدامود — تشهد بأصل هذه الأسرة الطيبى . كذلك تدل الآثار على أن الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة هما استمرار للأسرة الثانية عشرة . وأهم هذه الآثار هى : الأسماء والألقاب التى انتحلها مغتصبو العرش العديدون والمدافن الملكية ( حور فى دهشور ، وخنجر وأحد الملوك الآخرين فى سقارة ، وهرمان فى مزغونة ، ونصوص متناثرة فى الليشت ومدامود) . وقد ظهر من بين كبار رجال الدولة الذين اغتصبوا العرش حوالى ١٧٥٠ ق . م مجموعة من الشخصيات البارزة ، كما تشهد بذلك آثارهم ، وبخاصة التماثيل الضخمة التى أقاموها فى الكرنك ومدامود وحيفات والدلتا ، ونذكر من هؤلاء : مزمشع ، وملكين يحملان اسم سوبك حوتب ، وملكين يحملان اسم نفرحتب . ولا يلبث التاريخ

المصرى بعد ذلك أن يسقط فى مهاوى الظلمات التى تضيئها — ولمدة قصيرة — الحرائق التى تشعلها الحشود الآسيوية الغازية إبان حكم الملك ديدوميس الثانى .

## المجتمع والشرائع الاجتماعية فى الدولة الوسطى

لاشك فى أن الناتحة أرسوا أساس تنظيم إدارى جديد ( مثل إحياء منصب الوزير ) ، ولكنهم كانوا يفتقدون إلى التجربة السياسية ، إذ يبدو أنهم أولوا اهتماماً خاصاً بإماراتهم فى الجنوب ، وفيما عدا ذلك انصرف همهم إلى إقرار نظام بوليسى محكم فى بلاد ظلت تحكمها الفوضى حوالى قرنين ، وإلى صيانة الحدود التى درجت الشعوب المجاورة على انتهاكها . وهكذا أعيد حق الملك فى ملكية جميع الأراضى الزراعية التصرف فيها ، والتى فقدها التاج فى أواخر الدولة القديمة . ويمكن أن نستخلص من رسائل الكاهن حكانخت عن ملكياته الزراعية فى منطقة طيبة ومنطقة منف أن ملوك الأسرة الحادية عشرة بدأوا توزيعاً جديداً للأراضى عن طريق الهبات الممنوحة لأعوانهم .

وإذ ينقل الملك أمنمحات الأول مقر الحكم إلى مركزه الجديد بين القطرين تصبح إرادة التخلص من التراث الثقيل الذى خلفته الفترة الانتقالية الأولى عملية أكثر وعياً وانتظاماً . واتجهت الجهود الملكية فى ثلاثة اتجاهات رئيسية : فأولا — كان من الواجب كبح جماح الإمارات القديمة وتدعيم الوحدة السياسية للبلاد . وثانيا الإسراع بإعادة إنعاش البلاد ، وذلك بخلق جهاز إدارى طيع وفعال ، ومن ثم توفير الاستقرار الاجتماعى وترتيبه فى هيكل عام شبيه بمثيله فى الدولة القديمة . وأخيراً — إحياء الأيديولوجية الملكية بكل مقوماتها . وأعلن بناة الأهرام الجدد تعلقهم صراحة بالأيديولوجية الملكية التى ستكون — بعد أن يتم لها النجاح — عنواناً أدبيا للمجتمع الجديد فى الدولة الوسطى . ويعود الأمر كما كان فى الدولة القديمة ، يحيط البيت الملكى

نفسه بحاشية دينية تلتف حول شخصية الملك الإلهية ،ولا يتردد الملك فى تسخير الأدب لأهداف الدعاية على غرار ما فعل ملوك هيراكليوبوليس . وتؤكد الكتابات التى صيغت فى مدائح الملوك ، ونصائح أمنمحات الأول ، وتعاليم الولاء — تؤكد كلها أن الملك هو مصدر كل سلطة وسبب كل رخاء .

وفى المسائل الاجتماعية والإدارية وضعت حكومة الليشت فى اعتبارها بعض التعديلات التى أدخلت منذ الأسرة السادسة ، واحتفظت بها . والمقطوع به أن النظام المركزى فى الدولة الوسطى كان أقل صرامة مما كان عليه أيام ملوك منف ، وأن الدولة الوسطى اعترفت بالانتصارات الجزئية التى حققتها الطبقات الوسطى وضمنتها نهائيا فى نظام الدولة .

لقد اضطر الأناتفة —ومن قبلهم دون شك، ملوك خيتى— إلى خلع أمراء الأقاليم وتعيين محافظين محليين بدلا منهم ، وذلك فى المناطق الخاضعة خضوعاً مباشراً لسلطانهم . أما شمالى ذلك فيبدو أن الناتحة تركوا الأمراء فى مراكزهم بشرط أن يعلنوا الولاء لهم . ولكن آثار الإقطاع ظلت باقية ، ويقال إنها السبب فى سقوط الأسرة الحادية عشرة . وفى أوائل الأسرة الثانية عشرة ظل المحافظون ( حاتى عا ) يختارون من بين الأعيان المحليين . وفى أثناء حكم سنوسرت الأول أسس إيسى حاكم مدينة إدفو وأحد أبنائها ، بالاشتراك مع قادة المترجمين ، أسس أسرة « القادة الكبار » . وفى مصر الوسطى تستمر بيوت حيبنو وهرموبوليس وقوصية . . إلخ فى البقاء لأجيال عديدة ، وظل بعض ممثليهم يسجلون التاريخ بالنسبة إلى تقاويم أسراتهم الخاصة. ولكن على الرغم من هذا الامتياز الشكلى، وعلى الرغم من لقب «الحاكم العظيم » ، فإنهم أخذوا يتحولون بالتدريج إلى مجرد محافظين مكلفين بإدارة شئون الزراعة وتنظيم قوة الأمن المحلية وفرض السخرة لحساب الملك . هكذا يتم رفع وضع يد الأشراف عن الأقاليم : كان الشريف حاب دجفا العاصر للملك سنوسرت

الأول قائداً كبيراً لإقليم أسيوط ، وقد تضاءلت ثرواته التي آلت إليه عن طريق الميراث ، فمنح « بيت المحافظ » بما يدر من إيرادات ، وأصبح بذلك مجرد موظف يعمل بمرتب . وكان الملك أمنمحات الأول قد بدأ — عن طريق ضم بعض ممتلكات أسرة أشراف حيبينو وترتيب زيجات خاصة — كان قد بدأ في تحطيم روابط هذه الأسرة بالأراضي التي كانت في حوزة أسلافهم ، ثم تولى تخطيط حدود كل مدينة ، وقسم الأقاليم القديمة إلى وحدات صغيرة . وتتدهور حالة الجبانات الكبيرة المحفورة في الصخر في أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر ق . م . وهناك حالة منفردة في مدينة أنتيوبوليس ( قاو ) في عهـــد أمنمحات الثالث تقام فيها جبانة كبيرة للأشراف . ثم يزول إلى الأبد لقب «الحاكم العظيم» ، ويحل مندوبو الملك (حاتي عا) محل أسرات الأشراف الكبرى في كل مدينة . ويسهر على تنظيم اقتصاد الأقاليم موظفون من مختلف المراتب ، مثل : رؤساء عشرات الجنوب ، ورؤساء الأراضي الزراعية : . إلخ . وقد يكون عهد سنوسرت الثالث هو العهد الذي تمت فيه المركزية عن طريق ثلاث إدارات ( أوعارت ) تهيمن كل منها على شئون الشمال ومصر الوسطى ومصر العليا على الترتيب . وكان هذا النظام أفضل من نظيره في الدولة القديمة حيث يقيم اعتباراً للأقاليم إزاء العاصمة ، وظل معمولا به — على حد معلوماتنا — إلى وقت غزو الهكسوس للبلاد . ولا يوجد لدينا ما يثبت أن موظفي الأسرة الثالثة عشرة أقاموا نظاماً إقطاعياً جديداً ، وساهموا بذلك في سقوط الدولة الوسطى . وليست لدينا سوى حالة واحدة ، هي ما قام به محافظو مدينة الكاب في أقصى الجنوب من تخويل أنفسهم سلطة عسكرية مستقلة باعتبارهم «أمراء ملكيين» ، وأسسوا نوعاً من أسر الأشراف ، وحفروا لأنفسهم مدافن في الجبل ، وهي جبانة الأشراف الوحيدة التي بقيت لنا من الفترة الانتقالية الثانية .

في الأسرات الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة تقوم مكاتب الليشت

بإدارة الشئون العامة ، وتستخدم لذلك عدداً من القائمين بالأعمال والكتبة والمساعدين . . إلخ . ويدين تنظيم الوزارات فى تلك الأثناء ، كما تدين نظم الحكم المحلى بالكثير لفترة الإقطاع . ويبقى من الأزمنة القديمة الكثير من ألقاب حاشية الملك وألقاب الشرف ، ولكن لا يبقى سوى القليل من المناصب الفعالة ، من أمثلتها : قائد عشرات الجنوب ، وأهمها الوزير ، وهو رئيس الحكومة ووزير العدل فى ذات الوقت . أما المناصب الأخرى ، مثل : مدير أملاك الملك ، ومدير أختام الملك ( أى مدير الشئون المالية ) ورؤساء المصانع والمخازن . . . فقد بقيت ؛ ولذلك نعتقد أن أغلب التنظيمات الاجتماعية للدولة الطيبية الأولى كانت مستمدة من مثيلاتها فى الإدارات الخاصة للدولة القديمة التى قدر لها أن تهيمن على إدارة الأقاليم الإقطاعية الصغيرة . أما لقب « النادى » واختصاصاته فأمر مايزال محل جـــدال ، وكذلك لقب « أمير أخنوتى » ، وهو رئيس إحدى الإدارات المركزية ويعزى إليه الإشراف على المالية والجيش وشئون الدلتا . لقد كانت الإدارة المدنية فى دولة طيبة على نفس الدرجة من التفرع والتشابك التى كانت عليه فى الدولة القديمة ، وإن كانت أقل منها تعقيداً . فقد كانت قوائم الألقاب الخاصة أكثر اختصاراً ، مما يدل على الحد من تعدد الوظائف وسرعة الترقى .

ومن أجل تدعيم الجهاز البوليسى الضخم وتدعيم النظام الاقتصادى ، اتجه ملوك الليشت ، وفق نصائح مرى كارع ، إلى الطبقة الوسطى التى خرجت من الفوضى الاجتماعية السالفة وقد زاد عددها وقوى نفوذها . ولقـــد نجت البرجوازية الصغيرة التى تكونت فى منف من ويلات الثورة ، إذ أحصى الملك خيتى الثالث من هؤلاء عشرة آلاف ، مابين مواطن « نقى » ( واعب ) ، وصغار أحرار ( نجس ) ممن كانوا معفين من الضرائب . وطبيعى أن الحكومات المحلية فى الأقاليم كانت قد خلقت جهازها الخاص من البيروقراطيين والعسكريين المختارين وزادت من ثرواتهم . ووضع ورثة هؤلاء أنفسهم فى خدمة الملك الذى أعالهم بالمرتبات العينية ووفرلهم

التعليم الذى يؤهلهم للنهوض بأعباء وظائفهم . وكون بعضهم نوعاً من الجيش الدائم يقوم بالحملات التى توجه إلى الصحراء ، ويكون فرقاً للصدام ، ويرافق صاحب الجلالة فى تنقلاته . ومن الألقاب التى حملوها : « عحاوتى ( المحاربون ) » ، والرجال الذين يعيشون على مائدة الملك و « أولادكاب » و الأتباع ورجال البوليس . وتستخدم الإدارات المحلية البعض الآخر فى مختلف الوظائف ، مثل : المسجلين الرسميين فى الأرياف (وعارتو) ، والنظار ، ومختلف مراتب السكرتيرين ، وأمناء المخازن ، ومستشارى المحاكم المحلية . . . إلخ . وبالإضافة إلى هؤلاء يوجد : الصناع المهرة ، والفلاحون الموسرون ، والكهنة الجنائزيون الذين لاغنى عنهم لإقامة الشعائر . تلك هى الفئات الوسطى الكبيرة العـــدد فى الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة التى سجلت أسماؤها فى أبيـــدوس على اللوحات الحجرية المتواضعة التى تكتظ بها المتاحف . ومن بين هذه الطبقة الموسرة تتميز فئة الكتبة الذين يرتقون سلم الوظائف بسرعة ، وذلك بفضل مستواهم العلمى . وعندما يسخر الكاتب خيتى فى « نصائحه إلى ابنه » من مساوئ المهن المختلفة فإنه لا يذهب إلى حـــد تنفير ابنه من الاتجاه إلى المهن الأخرى التى تحط من قدره ، بقدر ما يرمى إلى تربية ابنه — قياماً بالواجب — بروح الاعتزاز بالطائفة التى ينتمى إليها . ويحلو لهؤلاء المثقفين أن يرفعوا من شأن النظام الملكى الذى يرعاهم ويطعمهم .

وليس من شك فى أن المجهود الإنشائى للأسرة الثانية عشرة قد ساعد كثيراً على استثمار الموارد الزراعية . فإلى أى حد حسنت تلك الأسرة من أحوال فقراء الريف ؟ . الواقع أننا نعرف عن الفلاحين من الإحصاءات الرسمية أكثر مما نعرفه من النصب التذكارية . ومن صور الفلاحين المنقوشة فى المقابر الصخرية نرى أن الضرائب كانت تجبى باستخدام الهراوة . وهى طريقة ظل معمولا بها حتى القرن التاسع عشر ( بعد الميلاد ! ) . وظل الفلاحون ينوءون تحت نير السخرة فى إقامة المنشآت والمبانى واستغلال المناجم . ولكن ملوك أمنمحات ورثوا عن مـــلوك

هيرا كليوبوليس مراعاتهم للعدالة ونقلوا ذلك إلى إدارة طيبة . الأمر الذى أدى مع عودة السلم الداخلى ، إلى تحسين أحوال بسطاء الريف . وبشكل عام ، فإن الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثالثة عشرة (على الرغم من أزماتهما السياسية) تقدمان صورة نظام اجتماعى متوازن نسبياً . وبصفة خاصة يبدو أن مالية الدولة كانت تعالج بحكمة . وكانت مصادرها الأساسية هى الإيرادات العادية ، والجزية المفروضة على الرعايا والموالين الأجانب . وفى البداية — على الأقل — لم تشك مالية الدولة من مصروفات البيت المالك أو الإنفاق على جيش الموظفين . إذ إن الملوك راعوا عدم تبديد الأموال على الآلهة والكهنوت . واكتفوا بإقامة أهرامات من اللبن وعرفوا كيف يطبقون سياسة خارجية توسعية مربحة .

## المعتقدات والفنون والآداب فى الدولة الوسطى

كانت عودة الأمن والرخاء إلى ربوع البلاد إيذاناً بمولد آداب وفنون جديدة فى جميع المجالات . وهى — وإن لم تقطع مابينها وبين الماضى — فإن لها شخصيتها وأصالتها الخاصة .

إن المدافن الملكية الوحيدة الباقية من الأسرة الحادية عشرة هى تلك المجموعة الجنائزية الكبرى لأسرة منتوحتب فى الدير البحرى . وهى ذات طراز جرىء وغير مألوف ، وتتكون من هرم صغير مبنى على مدرجين مسورين بالأعمدة ، بينما حجرات دفن الملك والأميرات محفورة فى باطن الأرض . أما الملوك الذين تسموا باسمى أمنمحات وسنوسرت فقد عادوا إلى الطرز المعمارية القديمة، ونستدل على ذلك من آثارهم التى أقيمت فى الليشت ودهشور واللاهون والهوارة . وكانت أهراماتهم تبنى وتغطى بطبقة من الحجر الجيرى وإلى جانبها يقام مبنى للطقوس الجنائزية . ويرقد كبار الموظفين إلى جوار سيدهم فى مصاطب من اللبن كما كان الحال فى الدولة القديمة . وظلت الأسرات الحاكمة فى الأقاليم ، ولمدة من الزمن ، تقيم جباناتها الخاصة المنقورة

فى التلال الحجرية . وظل التصميم الذى توصل إليه الإقطاعيون المحليون معمولا به فى واجهات المقابر الصخرية وغرفها ذات الأعمدة . ولايفوتنا هنا أن نسجل ظهور النظام الزخرفى المعروف « بما قبل الفن الدورى » فى آثار بنى حسن . وفى نفس الوقت حاول المعماريون محاكاة المعابد الملكية القديمة فى منف ، فأقاموا مقصورتين فى الهواء الطلق يتصلان بمنحدر ، وذلك النموذج يظهر بوضوح فى المقابر الصخرية بمدينة أنتيوبوليس ( قاو ) .

وتحتوى النصوص الجنائزية ، حتى الأسرة الثامنة عشرة ، على سجل نصوص التوابيت مع اقتباسات كبيرة من نصوص الأهرام . وكانت هذه النصوص تنقش أحياناً فى حجرات الدفن ( مثل مقبرة سنوسرت عنخ فى الليشت ) أو تنسخ على أوراق البردى .

واستمرت صناعة التماثيل الصغيرة فى أثناء حـــكم ملوك الناتحة . وقبيل اندثارها نهائياً بلغت تلك الصناعة أوجها من حيث تكوين المجموعات الجميلة وتصوير الشخصيات وتلوينها ( مقبرة مكت رع )(١) . وتعود مناظر الحياة الخاصة للظهور مرسومة أومحفورة على جدران المقابر ( كما فى ميروبنى حسن ومقبرة أنتف أوكر فى طيبة ) وكثيراً ماتصل هذه المناظر إلى مستوى نظيراتها فى منف ، جمالا وحيوية . وفى نهاية الأسرة الثانية عشرة يظهر نوع جديد من الآثار فى المقابر الشعبية ، أى الـ (أو شابتى) وهى عبارة عن تماثيل صغيرة للمتوفى على هيئة مومياء تكلف بتنفيذ أعمال عالم الموتى نيابة عنه .

ومن السمات المميزة لتطور العقائد الجنائزية نمو عبادة أوزوريس فى أبيدوس إلى حد أصبحت تنافس عقيدة العبادة الشمسية وتكاد تحتل المركز الأول فى البلاد .

---

(١) عثر فى هذه المقبرة على نماذج عدة لقوارب نيلية مختلفة . ( المترجم )

ويتمشى هذا التطور مع ظهور مفهوم جديد عن القربان والأخذ بفكرة تبرئة الروح عند الحساب فى العالم الآخر وفقا للأعمال الصالحة فى الحياة الدنيا . وتعم صياغة جديدة للطقوس الخاصة بالقربان فى الأسرة الثانية عشرة . ووفقاً لها لم يعد القربان منحة صادرة عن الإله والملك بالاشتراك ، وإنما أصبح الإله هو الذى يمنح القربان للمتوفى بعد أن يتلقاه من الملك . ومنذ عهد منتوحتب الثانى يرفق اسم المتوفى بلقب جديد ، هو « برىء الصوت » الذى يشهد بأن المتوفى قد مثل أمام محكمة أوزوريس للحساب وأنه قد برئت ساحته . ولكن انتصار عبادة أوزوريس لم يؤثر فى الطقوس والنصوص الجنائزية بقدر ما أثر فى عالم الأحياء ، إذ إن الملاحم الدينية الخاصة ببعث الإله والتى كانت تحظى بالرعاية الملكية ( كما ورد فى لوحة إخرنفرت التذكارية ) ، بالإضافة إلى زيارة ضريح أوزوريس — كانت تجذب حشوداً كبيرة من الحجاج إلى مدينة أبيدوس . وكان حلم المصريين أن يدفنوا فى تلك المدينة . بنى الملك سنوسرت الأول ضريحاً له فيها ، أما صغار البرجوازيين الذين لا تتسير لهم إلا حفرة صغيرة فى قراهم ، فقد كانوا يتجمعون للحج — ومع أسرهم إن دعت الحاجة — ليتركوا لوحات حجرية صغيرة تخلد أسماءهم بالقرب من أوزوريس .

وأعادت العبادة الرسمية فى الدولة الوسطى إلى مدينة هليو بوليس أهميتها السالفة ، وأعاد سنوسرت الأول بناء معبد تلك المدينة ( انظر الوثيقة المكتوبة على الجلد بمتحف برلين ) ، كما أقام مسلتين أمام المعبد لا تزال إحداهما باقية حتى الآن ، وهى الشاهد الوحيد على مقر معبد الشمس الشهير . وإذ أصبح من اللازم مراعاة المكاسب التى حققتها بعض الآلهة المحلية حين ارتقت إلى مرتبة الآلهة الحامية للعرش ، سارت الديانة فى طريق إدماج الآلهة ، ومهدت بذلك لسيادة الإله الواحد فى الدولة الحديثة(١) . وفى أثناء الأسرة الثانية عشرة يستفيد الإله التمساح ( سوخوس ) إله

(١) لقد أصبح « آمون » ملكا للآلهة وسيدا لعروش القطرين ، وذلك نتيجة للانتصارات التى فاز بها سدنته . أما « منتو » الذى كان معبوداً فى الكرنك فقد اندمج وأصبح هو منتورع وآمون رع ( المراجع )

مدينة شدت ( الفيوم ) من ازدهار الإقليم ، ويندمج مع الإله رع في شخص الإله سكميوفريس ( أى سوخوس هو إله الشمس الكامل ) ، كما اتخذ اسماً آخر معناه « سوخوس هو روح الإله رع » . ويتضح هذا من الطريقة التى يختار بها الملوك الناتحة وأمنمحات وسوبك حتب مجمع الآلهة الذى يحمى العرش . وقد أثبت ملوك الدولة الوسطى أنهم من كبار بناة للمعابد وأنهم قدموا فروض الولاء للآلهة الإقليميين بما فى ذلك الإله أرسافيس نفسه .

وابتداء من الدولة الوسطى يتيسر لنا دراسة فن العمارة فى خدمة الأحياء . فهناك : القلاع العسكرية فى النوبة ، وقصور الأثرياء ، والمدينة العمالية فى اللاهون ، ونماذج المنازل الصغيرة التى يعثر عليها فى مقابر الفقراء والمعروفة باسم « بيوت الروح » . أما أبنية العبادة فلم يبق منها سوى الضريح الصغير الذى شيده أمنمحات الثالث للإله سوخوس والإلهة إرموثيس ، إلهة الحصاد ( مدينة ماضى ) . وهو عبارة عن بهو بسيط يؤدى إلى ثلاث قاعات لتماثيل الآلهة . ومن جهة أخرى تمكن الباحثون من العثور على كتل من المرمر استعملت فى حشو « البوابة » الثالثة فى الكرنك ، وأعادوا تركيبها لتكون معبد استراحة(١) أمر بصنعه الملك سنوسرت الأول . ولا يمكن معرفة شىء محدد عن المنظر العام للأبنية الدينية فى الأسرات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة فى كل الصعيد ، وبخاصة فى الكرنك ، والمدن الأربع التى كانت تعبد الإله منتو ( طود وأرمنت وطيبة وميدامود ) ، وكذلك فى مصر الوسطى ( هرموبوليس والفيوم ) وفى الدلتا ( بوبستس ) ، وحتى فى بلاد النوبة . ولكن ، لحسن الحظ ، تسمح القطع الأثرية العديدة التى عثرنا عليها فى المعابد الجنائزية فى تلك المواقع ، تسمح بأن نأخذ فكرة عن المناظر التى تزين الجدران ،

---

(١) لمركب الإله آمون . (المترجم) .

وأن نسجل صور نماذج معمارية جديدة ، مثل : عمود أوزوريس(١) ، والعمود ذى التاج البشرى ، والزخرفة المستوحاة من الإلهة حاتحور . وحذا مثالو الأسرة الحادية عشرة حذو أسلافهم في الدولة القديمة ، وتخلصوا من مظاهر الضعف التى تميزت بها أعمال فنانى دولة طيبة الأوائل ، إذ سرعان ما نبذوا الأسلوب الخشن فى نحت الأجسام البشرية ، واتجهوا نحو تهذيبها ومراعاة نسبها الطبيعية . أما الرسم المنقوش الذى كان بسيطاً فى البداية فقد أصبح يحفر بمهارة فائقة . وفى التصوير ، تخلصت فنون الأسرة الثانية عشرة من التفاصيل المملة ، وتميزت رسومها بالرشاقة والرقة — دون تخنث — وهى صفات اشتهر بها — عن جدارة — المعبد الأبيض بالكرنك .

هذا ، وقد عثر فى المعابد الإلهية والجنائزية على عدد كبير من التماثيل الكاملة أو المهشمة للملوك . ولا شك فى أن تمثال منتوحتب الرهيب فى الدير البحرى ليس دليلا على عدم مهارة فى الأداء الفنى . إنه تمثال غليظ التركيب ، ذو طابع دينى قديم مبالغ فيه ، وملامح إفريقية وحشية ، وألوان مثيرة فاقعة . وهذا النموذج المتميز يشير إلى ما كان يمكن أن يكون عليه فن وادى النيل بعد خروجه من عصره الوسيط الأول . ولكن لم تلبث أن عادت التماثيل فى الأسرات التالية تستعيد — وإن لم تبلغ دائماً — الطرز المستقرة للدولة القديمة ، وذلك تنفيذاً لما اختطه ملوك الليشت من برنامج لإحياء الماضى . ثم تدهور فن النحت فى المرحلة الانتقالية الثانية إلى مستوى الجمود التقليدى . وبصفة عامة ، ينحو الأفراد منحى الفراعنة فى صناعة تماثيلهم . ونشأت مدينة فنية جديدة فى منف ، تظهر فيها وجود التماثيل أكثر تهذيباً والأجسام أكثر تناسقاً . وفى نهاية الأسرة الثانية عشرة ظهرت

---

(١) تطورت أسطورة أوزوريس فى الدولة الوسطى . وفى جزء من الأسطورة يتخذ الإله بعد مقتله شكل عمود خشبى ، وقد استخدم هذا العمود رمزاً له فى المعابد . (المترجم) .

مدرسة أخرى فى طيبة . وهى — على عكس المدرسة السابقة — تراعى تصوير الوجوه بواقعية صارمة ، وتنتج نماذج رائعة لا تقل عن مثيلاتها فى العهد القديم ، مثل الوجوه القاسية للملكين سنوسرت الثالث وأمنمحات الثالث ( فى الكرنك والدير البحرى وميدامود وكوم الحصن والفيوم ومنف ) كما أنتجت نفس المدرسة نماذج غريبة مثل « مقدمي القرابين التوائم » و « الأسود ذات الوجوه البشرية » وهى نماذج تعيد إلى الأذهان قسوة ملامح تمثال منتوحتب الكبير .

وفى عصر شهد حالة من الرواج والازدهار ، وتوسعاً استعمارياً كبيراً ، وتدفق ثروات طائلة إلى الوادى ، ازدهرت فنون صياغة الحلى شأن غيرها من الفنون الجميلة (كنوز أميرات اللاهون ودهشور ) . ولا يفوتنا أن نذكر أن الدولة الوسطى هى التى شهدت مولد صناعة الجعلان(١) ونحوها ، ووضعها فى خدمة الكبار والعامة .

ولا نزاع فى أن أهم ما أسهمت به الدولة الطيبية الأولى فى الحضارة الفرعونية هو إنتاجها الأدبى . تطورت اللغة تطوراً هاماً . ففى الفترة الانتقالية الأولى حلت لغة شعبية محل اللغة المصرية القديمة ، وتحولت هذه اللغة الشعبية إلى ما سمى بالمصرية الوسيطة ، وهى لغة مركزة وأنيقة ذات نظام كامل ودقيق للتسجيل الكتابى . وروعى فى قواعد النحو والخط — سواء فى الرموز الهيروغليفية أو النسخ الأدبى أو الكتابة الإدارية السريعة — أن تهدف جميعها إلى التبسيط وتجنب كل ما يثقل الأسلوب أو التدوين . وتظل هذه القواعد سائدة فى الأسرة الثانية عشرة ، ويظل أثرها يطبع الكتابات الرسمية والدينية حتى انقراض اللغة المصرية القديمة .

---

(١) اتخذ الجعلان ( الجعرانى ) ابتداء من الدولة الوسطى رمزاً للقوة الإلهية المحركة للشمس . ويعتقد الباحثون أن المصريين القدماء استوحوا هذا المفهوم من منظر الجعل فى الطبيعة وهو يدفع أمامه كرة من روث الحيوان تحوى داخلها بويضاته ، يدفعها ليعرضها لأشعة الشمس حتى يتم فقسها . ( المترجم ) .

وفى الأسرة الثانية عشرة تصبح السير الخاصة قطعاً أدبية جميلة ( مثل النص الكبير للشريف خنوم حتب فى بنى حسن ) ، ومثل قصة سنوهى ، وهو شريف نفى نفسه فى بلادرتينو ، واعتبرت هذه المؤلفات الأدبية بمثابة النماذج للأسلوب الراقى فى جميع العصور . لقد وهبت تلك الفترة لمصر أدباً عاليا تربى عليه المثقفون المصريون فيما بعد ، ( ويشهد اللخاف للدولة الحديثة بذلك ) . وفى الأسرة الحادية عشرة ألف كاتب مجهول مجموعة أدبية اسمها « كميت » ، وهى نماذج متفرقة لفن البلاغة . ونشط مثقفو منف والدلتا فى التأليف الأدبى فى أثناء حكم الأسرة الثانية عشرة. واتخذت كتب « التعاليم » طابعاً سياسياً واجتماعياً على يدى الكاتب خيتى من مدينة سبنيتوس الذى ألف موضوع « السخرية من الحرف » ، والنصائح للملك أمنمحات الأول — وكان كتابا « النصائح المخلصة » و « الأناشيد الملكية » ، فاتحة المدائح فى الأدب المصرى القديم . ونشرت كذلك كتب الحكمة . وهذه الكتابات الفلسفية — التى فقدت كلها تقريباً — وكذلك التنبؤات ، تستوحى الأدب المتشائم من الفترة الانتقالية الأولى . وكانت عبادة الماضى من القوة بحيث ظلت آثار الأفكار المنافية للدين التى عبر عنها المفكرون القدامى باقية فى أغانى عازفى القيثار ، ولكن دون أن تمس المعتقدات المستقرة . بيد أن الكتاب كانوا يفضلون أن ينقلوا نصائح سادة منف القدامى إلى اللغة المصرية الوسيطة . ولم يقتصر هذا العمل المحافظ على نقل أعمال وأفكار الفترات السابقة ولكنهم عمدوا أيضاً إلى صياغة الأدب الشعبى صياغة منقحة . وحققت الحكايات الكبيرة الكثيرة الفصول التى يحبها صغار الأحرار ( نجس ) إشباعاً للذوق الشرقى الأصيل ، ومن أمثلتها : « المصرى الغريق » و « ثعبان بلاد بونت » و « حكايات السحرة » الواردة فى بردية وستكار ، وقصص أخرى عديدة لم يبق منها شىء للأسف .

وكان المتخصصون يقومون بتجميع معارف زمنهم فى الرياضيات ( بردية ريند وبردية موسكو ) وكذلك فى الطب ، الذى يجمع بين الطقوس السحرية ومبادىء العلاج العلمى التى ورثها هيبوقراط وأرسطو ( برديات إيبرس وبرلين وهيرست

ومعبد الرامسيوم ، وقطعة بردية كاهون عن فن الولادة ، ومجموعة سميث عن الجراحة ) . ولا نكاد نعرف شيئاً عن مثل هذه الأعمال إلا عن طريق البرديات واللخاف الذى يعود إلى الدولة الحديثة . ولكن يمكننا أن نؤكد أن نسخ هذه المؤلفات بدأ منذ الأسرة الثانية عشرة واستمر طيلة أيام الهكسوس .

## السياسة الخارجية للدولة الوسطى

ما إن استقرت الملكية الفرعونية من جديد ، بعد العزلة النسبية أيام ملوك منف والمهانات التى تعرضت لها مصر من جاراتها فى الفترة الانتقالية الأولى ، حتى اكتشفت فى نفسها ميلا للغزو والفتح . ومنذ فترة طويلة أبرزت هذا الجانب من « النهضة الطيبية » سلسلة من النقوش الحجرية ( فى النوبة وسيناء والصحارى)، وهى كتابات صادرة عن الملك أو عن معاونيه . وقد تمت فيما بعد أعمال حفر كشفت عن نتائج هامة فى السودان وسوريا وفلسطين ، كما نشرت نصوص الدعوات التى تستنزل اللعنات على الخصوم من الأسرة الثانية عشرة ، الأمر الذى مكننا من تقدير المدى الذى وصل إليه هذا التوسع خارج الحدود . وقد أصبح من الأمور الواضحة اليوم أن حكومة سنوسرت الكبير قد بسطت نفوذها من هضبة العلويين حتى دنقلة .

ولم تكن السياسة الخارجية جديدة فى روحها فحسب ، بل كانت أيضاً جديدة فى أساليبها العسكرية التى تعتبر إحياء للإقطاع . كانت فرق « النفرو » و « كاتم سر الإله » و « القيادة البحرية » التى احتفظ بها ملوك هيراكليوبوليس قد اختفت بنهايتهم . وتدهورت أحوال الأدلاء ( سيمنتى ) والترجمين مع نمو النظام الاستعمارى الذى أفقد بعثاتهم المتنقلة فائدتها ، وانتهى بهم وبأمرائهم من قادة هذه البعثات إلى الانهيار . ومع ذلك فقد استعادت الدولة الوسطى جهازها العسكرى من « القادة الكبار » ، إذ عمد ملوكها إلى تاهيل الحاشية وزيادة عدد « الأتباع » وتقوية

الفيلق النوبى بمجندين يستدعيهم « رؤساء الفرق » المحليون .وتغيرت بشكل جذرى القيادة العليا للبعثات الاقتصادية ، فإذ يفتقد الملك وجود قيادة متخصصة ، تراه ينتدب رجلا موضع ثقته ، قد يكون جنرالا عسكرياً ، أو قائداً بحرياً ، أو مجرد مدير أعمال أو محافظاً أو حاكما أو « مدير أخنوتى »(١) . وكان هذا النظام أكثر مرونة من نظام ملوك منف ، إذ هو يتجاوب مع فئات أكبر من الأمة التى أصبحت أكثر عسكرية فى أثناء فترات الاضطراب ، كما أنه نظام فعال يضمن الأمن الكامل للبلاد، ويستعيد بناء صناعة التعدين الكبيرة ، ويفتتح سياسة استعمارية جديدة ، أصبح لا معدى عن اتباعها .

انتهت تهدئة البلاد المجاورة حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . وبفضل ذلك استؤنفت الحملات الاقتصادية الباهرة . وأخضع ملوك المناتحة الأوائل النوبة الجنوبية التى أمدت نب حتب رع بالجنود . وقد أتمت جيوش أمنمحات الأول تهدئة بلاد واوات بنجاح ( نقوش كورسكو ) إلى الحد الذى أصبحت فيه عملية استعمار السودان تتقدم باطراد فى نهاية حكمه . وكانت قبائل العامو السامية وقبائل يونتيو النوبية التى تجوب الصحراء الشرقية قد تمكنت من أن تعيث فى البلاد بحرية فى أثناء عهود الفوضى . وأوقع تترى حدجت بهم الهزيمة ، ولكنهم ظلوا مصدر إقلاق للدولة فى عهد سعنخ كارع ، ولم يهدأوا فى الأسرة الثانية عشرة إلا ليمارسوا التجارة السلمية ، ولم يعودوا يعوقون تحركات البعثات التى كثر عددها فى أثناء الأسرة الحادية عشرة ، وتضاعفت فى عهد ملوك أمنمحات وسنوسرت متجهة نحو محاجر الشيست من الحمامات ومناجم الذهب فى الفواخير وزبارا والفيروز فى وادى الهودى والذهب فى وادى العلاق والديوريت والأحجار الكريمة التى توجد شمالى غرب توشكا . وأقيمت علاقات مع بلاد بونت، بلاد اللبان ، عن طريق الدروب التى تربط قفط وبيرنيس والقصير ( نقوش حنو )

---

(١) أى مدير إدارة البلاط . ( المترجم ) .

ووادى جاسوس ( لوحة سنوسرت الثانى ) . وظهرت كذلك حملات اقتصادية فى الحمامات وهودى فى عهد ملوك سوبك حتب . أما من ناحية الصحراء الغربية حيث أخذت قبائل التحنو السمراء تمتزج بقبائل التمحو الشقراء ، فقد سارت الأحداث فى نفس الاتجاه الذى أدى إلى إخضاع الشرق للمصريين . وقام منتوحتب الثانى بضم الواحات الخارجية ، وألحقت الواحات البحرية إدارياً بالوادى فى الأسرة الثانية عشرة ، واستمر الاستثمار الاقتصادى للواحات . وترجع أقدم إشارة إلى نبيذ الواحات الشهير إلى أيام الملك سوبك حتب الأول . أما بالنسبة لليبيين الذين سبق أن هاجمهم منتو حتب فيبدو أنهم لم يعودوا مصدراً للمتاعب بعد الغزو الذى قاده سنوسرت الأول هناك ( ١٩٧٠ ق . م ) .

وكشفت هجرات البدو عن الأهمية الحيوية للحدود الآسيوية . وبعد أن كان ملوك هيراكليوبوليس يتبعون خطة الدفاع ضد هجمات قبائل العامو على مصر ، تخلى قاهروهم عن هذه الخطة ، واتبعوا خطة الهجوم ضد العامو . وأعاد نب حتب رع الصلة بسيناء . وفى عهود خلفائه — من أمنمحات الأول إلى أمنمحات الرابع — تكثر محاضر البعثات الموفدة إلى وادى المغارة وإلى المحاجر الجديدة فى سرابيت الخادم . وفى نفس الفترة أحكمت الرقابة العسكرية على حدود الدلتا مستندة إلى « السور الملكى » الذى بناه أمنمحات الأول فى وادى الطوميلات وإلى « طرق حورس » وقلعة سينو ( بيلوز ) . ثم جاءت الحماية المصرية على فلسطين فخلقت منها خطاً دفاعياً أماميا هائلا لكل هذا النظام الدفاعى .

إن حكام مصر الذين جلبوا الدمار على بلادهم عن طريق اعتمادهم على خدمات البرابرة من كل جنس لم يلبثوا أن ساروا تلقائياً فى اتجاه استعادة رخاء بلادهم على حساب هؤلاء البرابرة أنفسهم . إن ضم بلاد النوبة — وهى عملية رسمت خطوطها العريضة فى أثناء الأسرة الثامنة — والاحتلال الجزئى للمناطق الآسيوية ، كانا سبباً فى

وقف موجات الهجرة الخطيرة وحائلاً دون قيام دول غازية فى هذه المناطق ، كما كانا سبباً فى تعزيز المركز الداخلى للملك الذى حول الروح العدوانية للأشراف نحو مغريات الأسلاب والعبيد وتولى مناصب الحكم فى الولايات المجزية . لقد فاضت خزائن الملك بالجزية التى تجبى بانتظام ، بذهب النوبة ، وفضة آسيا ونحاسها ، وأخشاب لبنان وأفريقيا ، كما اغتنت قطعان الماشية فى مصر بالحيوانات الواردة من النوبة وأرض كنعان . وتم تنفيذ هذا البرنامج بكل تفاصيله فى أثناء الأسرة الثانية عشرة فى الجنوب والشمال على السواء .

تم بالفعل إخضاع الوادى بين الشلال الأول والشلال الثانى . وطبيعى ، لم تكن مهمة المصريين الذين تركزوا حول القلاع السبع الموزعة بين إليفنتين وبوهن تنمية الزراعة فى هذه البلاد الفقيرة ، ولكنهم عملوا على زيادة استغلال المناجم ، وإشاعة الاستقرار بين السكان الأصليين واستيعابهم وتسهيل تسيير القوافل وأعمال جباية الضرائب الملكية . ودون إغفال هذه التحفظات يمكن اعتبار بلاد النوبة السفلى منطقة تعمير ، خاصة إذا قورنت ببطن الحجر ، فهذه منطقة فاصلة يجرى نيلها بين الرمال والصخور ، ولم تكن فى يوم من الأيام أكثر من مجرد منطقة عسكرية .

وفى عام ١٩٥٢ ق . م زحف أحد قواد الملك سنوسرت إلى أعالى الجنوب وفرض الجزية على بلاد كوش والشعوب الجنوبية ، ويرجح أنه وصل إلى الشلال الثالث . ويبدو أن خليفتيه لم يعودا إلى تكرار هذه المغامرة . وعندما تولى سنوسرت الثالث الحكم أراد أن يمنع نهائياً غزوات القبائل نصف الرحل لبلاد واوات ، فأقام سبع قلاع بين الشلال ومنطقة المضايق التى تشرف عليها مراكز أورونارتى وقمنة وسمنة ، وأصدر مرسوماً يحظر على الأهالى جنوبى هذه المنطقة أن يتخطوا سمنة شمالا ، وذلك باستثناء المفوضين والتجار . وحالما تكشف الدوريات عن أية تحركات للقبائل فإنها تقوم بإبلاغها على الفور إلى دواوين طيبة . وفى مواجهة أية حركة عدوانية ،

مهما صغرت ، يأمر سنوسرت بتطبيق الإجراءات الصارمة التي أعلنها في قلاعه وللصاغة بقسوة عسكرية قاطعة . ففي أثناء حكمه قام بأربع حملات تأديبية ( لسحق بلاد كوش الحقيرة ) ، وفي كل منها يستولي على مراكز المياه وينهب منازلهم الكبيرة ويدمر احتياطيهم . وبفضل هذا القمع العنيف تمكن المصريون من الاحتفاظ بحدود سمنة حتى الأسرة الثالثة عشرة ، وضمنوا الاستمرار في الاتصال بمركزهم البعيد في كرمة . ومنذ بداية الأسرة الثانية عشرة أقيم مركز صناعي محصن سمي « سور أمنمحات » في تلك البقعة من دنقلة الشمالية . ويشرف على هذا المركز محافظ مصري ، حيث راجت حركة تجارية مع السكان الأغنياء نسبياً ، ومن ثم فهم أقل عدوانية ، وتشهد بذلك مقابرهم التي تجاور مقابر المصريين . وقد ظلت هذه النشأة الفريدة ذات الطابع المصري النوبي المشترك قائمة حتى أيام الهكسوس .

وقام ملوك الليشت بعد نفوذهم في آسيا على نفس النطاق الذي تم في النوبة . وبفضل الحملات التي شنها أمنمحات الأول وسنوسرت الأول ضد العامو ( انظر قصص حياة نسيموثو وخنوم حتب وسنوهي ) . وفي النصف الأول من القرن العشرين قبل الميلاد تم احتلال مدينة جبيل، أو على الأقل فرضت عليها التبعية المباشرة . ويبدو أن ثلاثة من أهم « رؤساء القبائل » ( حكاخاسوت ) قبلوا نوعاً من الحماية المصرية . ويتجول مبعوثو البلاط المصري في جميع البلاد . ويجيء شيوخ البدو إلى العاصمة . وتحمل حتى عتبات القصر ثروات البلاد الآسيوية ، ومنها كنز أمنمحات الثاني المدفون تحت معبد طود . ومن الآن فصاعدا تكثر الجعلان والسلع المصرية الرخيصة في جميع أنحاء بلاد الشام . وهذه الأشياء السهلة الحمل قد تبرز النفوذ التجاري لوادي النيل ، ولكن هناك اكتشافات أخرى ذات مغزى أهم تشير إلى اتساع الإمبراطورية المصرية في آسيا في أثناء حكم آخر الملوك من سلالة أمنمحات. إن التماثيل المصرية الموجودة في معابد بعض مدن الشام تثبت وجود علاقات دبلوماسية

مع هذه البلاد مثل : تمثال زوجة سنوسرت والوزير سنوسرت عنخ ، أبو الهول برأس الأميرة « إيتا » بنت أمنمحات الثانى فى قطنة . وتدل بعض الأشياء على استعمار مصرى لمدن فلسطين وفينيقيا . وخلع الأميران أبيشمو وإبشموأبى حاكما جبيل على نفسيهما لقب « حاتى عا » كما سجلا قائمة ألقابهما بالرموز الهيروغليفية ووضعا فى مقبرتيهما قطعاً فنية جميلة مدموغة بخراطيش آخر ملوك أمنمحات . كما عثر فى بيروت على تمثال صغير لأبى الهول وقلادة الملك أمنمحات الرابع . وعثر فى حفائر مجدو على ختم أحد مسجلى المواشى وعلى تمثال لقائد الإقليم المدعو تحوت حتب الثانى المعاصر لسنوسرت الثالث . ومن جهة أخرى نجد فى مقبرة نفس هذا القائد فى مصر صور ماشية واردة من فلسطين . وعلى الأوانى والتماثيل الصغيرة المنقوش عليها الدعوات التى تستنزل اللعنة على الأعداء والتى ترجع إلى أواخر الأسرة الثانية عشرة — نقرأ أسماء قبائل آدوم وشرق الأردن والمدن الفينيقية من عسقلان إلى عكا ، ومدن الداخل من أورشليم إلى دمشق . ومن المؤكد أن تلك الوثائق تورد على سبيل الحصر جميع المناطق التى كان حيادها أو إخضاعها يهم الحكومة المصرية فى هذا العصر . وكان يتعين على الدولة المصرية أن تلجأ — مثلما لجأت فى النوبة — إلى حملات القمع الدورية : تولى الملك سنوسرت الثالث صد هجوم لقبائل العامو ( قبائل رتينو الحقيرة ) بالقرب من سكيم . ومع اتساع نفوذ مصر الخارجى أنشأت دولة طيبة علاقات مباشرة وغير مباشرة مع كريت ، ووصلت إلى أرض مصر أوانى كاماريس الجميلة التى عثر عليها فى بعض المقابر .

ولكن الإمبراطورية المصرية الأولى فى آسيا انهارت بسرعة مذهلة بعد الملك أمنمحات الرابع ، إذ إن الأسرة الثالثة عشرة التى شلتها أزماتها الداخلية لم تتمكن من الوقوف فى وجه حركات الشعوب التى بدأت تهز الشرق كله : وضع العامريون يدهم على بابل شرقاً ، فأطلقت بذلك الدفعة التى أزاحت الإفريقيين نحو البحر

ومنعتهم حتى من بسط نفوذهم على سيناء . وحتى عام ١٧٣٠ ق . م نجد أن يانتين ، أمير جبيل ، مازال يعترف بولائه لنفرحتب ، كما ترك سوبك حتب تمثالا بالقرب من بعلبك ، ولكن أرشيف ماري لا يورد اسم مصر مطلقاً على الرغم من ذكره لاسم فينيقيا . ولا تلبث أن تتوالى الغزوات التى دفعت بالحثيين إلى الأناضول ، والكاشيين إلى بابل ، والحوريين إلى شمال مابين النهرين والشام . وقد مدالحوريون سلطتهم إلى فلسطين . ويطلق عليهم المصريون فى الدولة الحديثة اسم خورى .

وقد استمرت سيطرة مصر على النوبة فى أثناء حكم ملوك سوبك حتب الكبار ( حوالى ١٧٥٠ ق . م ) ثم انهارت على غرار ما حدث فى آسيا . وتختلف الشعوب الإفريقية المذكورة فى وثائق الأسرة الثامنة عشرة عن تلك التى وردت فى الدعوات التى تستنزل اللعنات على خصوم مصر فى الدولة الوسطى . ومن جهة أخرى ستستقر قبائل نوبية قوية لأول مرة فى أثناء حكم تحتمس الأول ، وهاتان الواقعتان التاريخيتان هما أوضح دليل على هجرات شعوب وادى النيل إلى شمالى الشلال الثانى . وفى الفترة الانتقالية الثانية وتحت ضغط جماعات بشرية جديدة وافدة من الجنوب يتقدم شعب الميجا الحامى إلى الصعيد حيث توجد مقابره فى أماكن متفرقة فوق سطح الأرض ، ويضع نفسه فى خدمة الأسرة السابعة عشرة عندما يهاجم ملوكها الغزاة الآسيويين الذين كانوا قد استقروا فى الدلتا ، وعندما هاجموا المملكة النوبية الصغيرة التى تكونت فى تلك الفترة .

## الهكسوس وإمارة طيبة

لم يعد الملوك الضعاف فى الاسرة الرابعة عشرة بقادرين حتى على منع تسلل العدد المتزايد من القبائل الوافدة من آسيا إلى شرق الدلتا (النصف الثانى من القرن الثامن عشر ق . م ) . وقد احتفظ الوافدون الجدد بنظامهم وعاداتهم العسكرية ، ولكنهم

لم يملكوا إلا أن يتأثروا بالحضارة الفرعونية . واعتنى قادتهم — بصفة خاصة — بنقش أسمائهم على الجعلان المصرية . واتخذ بعضهم أسماء مصرية بينما احتفظ البعض الآخر — لحسن الحظ — بأسمائهم الأصلية ، ومنها يعقوب حير ويعقوبيم وعانات حير — التي تدل دلالة قاطعة على ولاء أصحابها لآلهة سامية . ولما كانت الأسباب التي جعلت بعض العلماء يذهبون إلى أن هؤلاء الوافدين هم من أصل آسيوى — أوربى عام — لما كانت تلك الأسباب ضعيفة للغاية ، وجب أن نسلم بأنهم كانوا — ببساطة — من الفلسطينيين الذين فروا أمام هجمات الحوريين. وأحيانا ، يطلق الأمراء الآسيويون على أنفسهم فى نقوش الجعلان لقب « ابن رع » ، ولكنهم غالباً مايلقبون « حكاخاسوت » ( أى رئيس القبائل الأجنبية ) ، ومن هذا اللقب اشتق المؤرخ مانيتون اسم هكسوس وأطلقه على الأسرات البربرية التى خلفت الأسرة الرابعة عشرة . وقد شعر الغزاة الآسيويون فى أثناء حكم ديدوميس الثانى بقدرتهم على فتح مصر كلها ، وتم لهم تحقيق ذلك بالفعل دون عناء ( حوالى ١٦٧٥ ق . م) . ويورد مانيتون وصفاً أصيلاً لا ينازع فيه لما ارتكبه هؤلاء الرحل القساة من جرائم بشعة فى أثناء الفتح وما خلفه هذا من آثار لا تمحى فى نفوس المصرين . وإذ أصبح الهكسوس سادة البلاد نصبوا على العرش أحد أمرائهم ، هو ساليتيس مؤسس الأسرة الخامسة عشرة . واتخذ الملوك الأجانب مدينة أواريس على الحدود الشمالية الشرقية عاصمة عسكرية لهم . وعن طريق الاحتفاظ بمركز سيطرتهم فى تلك المنطقة تمكنوا من الوقوف فى وجه أية هجرات جديدة من أرض كنعان ( ويعتقد أن بنى إسرائيل وفدوا إلى مصر فى تلك الأيام ) . وامتدت الفرصة أمام صناعهم لنشر الجعلان الهكسوسية فى كل فلسطين وحتى فى سوريا ، وهى جعلان مزخرفة بالحلزونات والرسوم المتشابكة والرموز الهيروغليفية الزائفة — والمناظر المستوحاة من أرض كنعان . وتمكنت حكومتهم من إقامة علاقات دبلوماسية مع الكاشيين ( تمثال أسد الملك خيان فى بغداد ) ، وإقامة علاقات تجارية مع كريت ( آنية نقش

الملك خيان فى كنوسوس). وأدخلت عبادة الإله ست فى أواريس حوالى ١٧٣٠ ق.م. ولاشك أنها أدخلت على يدى أحد ملوك الأسرة الرابعة عشرة الذين أعلنوا ولاءهم لذلك الإله (نحيسى وست كا رع). وهكذا أصبح الإله ست الإله الرسمى للملوك الهكسوس، ولم يلبث أن تمثل الإله بعل، واتخذ منذ ذلك الحين — وبحسب الأحوال — زيا أجنبيا.

ولم تذكر المصادر المصرية سوى أسماء قليلة من الأسرتين الهكسوسيتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة (من ١٦٧٥ إلى ١٥٨٠ ق.م) وهى: شرك، عا أو سر رع — أبوبى، س أو سر إن رع — خيان، ششى، خمدى، عاسح رع، ملكان باسم أبوبى. وانتحل هؤلاء السادة الأجانب صفات الملوك المصريين وأقاموا بعض الأبنية على الطراز الفرعونى، وزينوا عاصمتهم أواريس بتماثيل ملكية قديمة مأخوذة من مدن مختلفة ووضعوا عليها خراطيشهم الخاصة. وإذ نجد كتلاً من معبد الجبلين(١) تحمل ألقاب الملكين عا أو سر رع، وس أوسر إن رع — يتضح أن الأسرة الخامسة عشرة فرضت سيطرتها على الوادى بأسره، ومع ذلك فقد سمحت بوجود مملكة مصرية صغيرة محصورة فى مصر العليا. ولم يتمتع ممثلو الأسرة السابعة عشرة المصرية الطيبية إلا بنفوذ ضئيل، على الأقل حتى حكم الملك سوبك إمساف الثانى. والأرجح أن هذا الملك هو الذى دفع بالهكسوس إلى شمالى مدينة القوصية(٢) ويستحق لذلك لقب «منقذ طيبة». وفى رعاية آمون تولى تدعيم استقلال الإمارة الجنوبية الملوك الأنانتفة الثلاثة والملكان تاعا. وقد أقام هؤلاء الملوك أهرامات صغيرة من اللبن فى منطقة ذراع (أبو النجا) فى الأقصر. وصدر فى أثناء حكم الملك «نب خبر رع — أنتف» السادس مرسوم شهير باسم مرسوم اللعنة. وتثبت هذه

---

(١) جنوبى مدينة الأقصر. (المترجم).
(٢) المنيا. (المترجم).

الوثيقة — بخلاف الشائع — أن الملكية حينئذ لم تكن بالانتخاب ، كما تثبت أنه لم يكن ثمة أكثر من ملك مصرى فى مملكة الجنوب ، بل إن ملك طيبة كان يفرض سيطرته على كل الأقاليم التابعة له . والحقيقة أن الأسرة السابعة عشرة واصلت الشرائع والتنظيم الاجتماعى للدولة الوسطى — مثل : منصب الوزير ، وتقسيم البلاد إلى إدارتين ( وارت ) ، ونظام محافظى المدن ... إلخ . وإلى جوار منصب حاتى عا(١) وجد منصب عسكرى برتبة « ابن ملكى » وذلك لمواجهة الخطر الأجنبى على المملكة . وأحياناً كان القائد يجمع بين المنصبين . وقد ظل السلام سائداً لمدة طويلة لا تعكره أحـــداث كبيرة ، فقطعان الصعيد ترعى فى الدلتا كما تصل سلع الهكسوس إلى السودان .

وتقول الأسطورة : « ذات يوم صبوح أرسل الملك أبوبى من أواريس رسالة استفزازية إلى الملك سقنن رع تا عا . . » . وللأسف لم يصل إلينا سوى مطلع الأسطورة التى تنتهى على الارجح بصدام مسلح . وتدعو الجراح القاتلة التى لوحظت على جمجمة مومياء الملك تا عا الشجاع ، تدعو إلى الاعتقاد بأنه مات فى المعركة . ولكن أبناءه اقتصوا له قصاصاً حقاً . وإذ يعلن الملك كاموسى أمام مجلس مستشاريه أن الأمة المصرية يجب أن تتحد تحت قيادته ، يتصدى هذا الملك الشجاع لقتال الهكسوس ويهزمهم عند هرموبوليس ، ثم يحرر مدينة منف ( النصب التذكارى فى الكرنك وبردية كرنارفون ) ويتصدى ملك الجنوب للحصار الذى يتم بالتعاون بين أبوبى ملك أواريس وأمير بلاد كوش فى النوبة ، ويهاجم الواحات البحرية وهى همزة الوصل الوحيدة بينهما ، ثم يواصل الهجوم عند أسوار أواريس نفسها ( النصب الجديد فى الكرنك ) . وفى ١٥٨٠ ق . م استولى أخوه الملك أحمس على عاصمة الأعداء ، وخلع الأرستقراطية الأجنبية من البلاد بعد أن سادت على الدلتا قرناً ونصف قرن من الزمان ( مذكرات القائد أحمس بن أبانا ) .

---

(١) أى حاكم الإقليم . ( المترجم ) .

ولم يبق بعد ذلك سوى « سيد بلادكوش » ومقره فى بوهن ، وكانت مملكته تمتد من كرمة إلى إليفنتين وتحتفظ بإدارة صغيرة على النمط المصرى وتستخدم الكتابة الهيروغليفية . وقد بدئ فى تنفيذ أهداف الملك كاموسى فى النوبة حتى قبل سقوط أواريس . وفى تاريخ مبكر ، لم يكن فيه أحمس سوى شريك فى العرش، توغل أحد القواد العسكريين المصريين حتى منطقة توشكا ( على الأقل ) حيث سجل على الصخر اسمى الملكين الطيبيين .

# الفصل الخامس

## الدولة الحديثة

تشمل الدولة الحديثة التى استمرت قرابة خمسة قرون (١٥٨٠ — ١٠٩٠ ق . م ) أسرة التحامسة الثامنة عشرة ، وأسرتى الرعامسة التاسعة عشرة والعشرين. ولايتوافر لدينا بالنسبة لأية فترة من التاريخ الفرعونى من المصادر مثلما يتوافر لدينا عن هذه الفترة . فلدينا عن عهد كل ملك من الملوك الكبار مجموعة كبيرة من النقوش الحجرية ، وبيان عن المؤسسات الملكية وقائمة بكبار رجال الدولة. وثمة شىء من الغموض الذى يحيط ببعض فترات الأزمات السياسية ، مثل الأزمة التى أحاطت بحكم الملوك التحامسة ، وتلك التى قضت على الأسرة التاسعة عشرة . إلا أننا نعرف الكثير عن تتابع فراعنة هذه الفترة وحياتهم أكثر مما نعرف عن أية فترة أخرى . إن حياة القصور وأعمال الإدارة والمشاغل اليومية للشعب العادى — كل هذا صور على جدران المقابر الخاصة الغنية للأسرة الثامنة عشرة ( الكاب ، طيبة ، سقارة ) وإذا كان الفن الجنائزى عامة لم يتصد لمثل تلك الموضوعات فإن أوراق البردى واللخاف الذى وصل إلينا مؤخراً قد مكننا من الإحساس بنبض الحياة خلال التقارير الإدارية أو القضائية والمستندات الحسابية أو الرسائل الخاصة والكتابات الأدبية . ولم يكن ثمة مصدر لمعرفة هذه الأمور فى العصور السابقة إلا النحت البارز والتصوير فى المقابر . وتشهد آثار طيبة بما وصلت إليه الفنون والصناعات من ازدهار ، كما يستدل منها على عقائد أصحابها ، فهناك : المقابر الملكية المحفورة فى الصخر ، ومقابر الأفراد المنتشرة فى أكثر من جبانة ، والمعابد الملكية فى الضفة الغربية و

ومعابد الآلهة فى الكرنك والأقصر. وقل ان يوجد فى الوادى مكان أثرى يخلو من مدافن ترجع إلى الدولة الحديثة، كما قل أن يوجد مكان فى الدلتا خال من منشأة معمارية من عهد الرعامسة. بل إننا نستطيع أن نحصى فى النوبة عشرين معبداً ما تزال قائمة حتى اليوم على درجات متفاوتة من تكامل أجزائها.

وتشهد هذه المعابد* والمقابر بثراء الآلهة والملوك وكبار القوم، كما تبرز السبب الأساسى لهذا الثراء، لقد كون فراعنة طيبة الجدد إمبراطورية أعظم بمراحل من إمبراطورية سنوسرت، وأحسنوا استغلالها: فهناك النصب التذكارية للانتصارات الحربية والمعارك التى خلدت ذكراها فى معابد طيبة والنوبة، وقوائم بأسماء الشعوب التى سجلت كجزء من العملية السحرية التى تهدف إلى إخضاعها، وتصوير الأشراف وهم يشرفون على مراسم تسليم الجزية. وهناك أيضاً الملاحم الأدبية التى تصور الفتوح الحربية. وفى أفريقيا: ترك المصريون آثاراً ملموسة حتى الشلال الرابع، ومن أمثلتها: المدن المحصنة والمعابد والجبانات. وانتشر الجعلان فى الأماكن الأثرية فى آسيا. كما أن الحماية التى بسطتها مصر على فينيقيا وفلسطين، ونفوذها الدبلوماسى فى الشرق الأوسط (جبيل، بيسان، مجيدو، قادش، حوران، أشور، أوجاريت. . إلخ) خلفت لنا أوانى جميلة ونصباً تذكارية وتماثيل كثيرة. ويستعمل قسم (الأرشيف) فى مراسلته مع الأتباع الآسيويين والدول الكبرى اللغة الأكادية وغيرها من اللغات الآسيوية. وقد عثر بمحض الصدفة فى تل العمارنة، على جزء من الرسائل المكتوبة بالخط الأسفينى والتى وصلت إلى آخر ملوك التحامسة. وقد صدرت هذه الرسائل فى وقت كانت فيه المكاتبات الهيروغليفية تعكس إهمال بعض ملوك الأسرة (أمنحتب الثالث والرابع) لممتلكاتهم فى آسيا. وقدمكنتنا رسائل تل العمارنة هذه من متابعة الانحسار الأول للإمبراطورية المصرية فى آسيا. ويمكننا (أرشيف) ملوك الحثيين فى الفترة (١٣٥٠ — ١٢٠٠ ق. م) من التحقق من صحة الوقائع الواردة فى روايات أعدائهم من الفراعنة العسكريين

فى الأسرة التاسعة عشرة . هذه الوثائق المتنوعة تلقى ضوءاً على السياسة الخارجية التى تلعب دوراً حاسماً فى تاريخ إمبراطورية طيبة الثانية . وكانت التقلبات الداخلية الكبرى التى شهدتها تلك الفترة هى النتيجة المباشرة لرد الفعل الاقتصادى والاجتماعى لتلك السياسة الخارجية .

## ملوك التحامسة حتى أمنحتب الثالث

أحمس الأول ( ١٥٨٠ — ١٥٥٨ ق . م ) هو محرر مصر ، وثانى أبناء الفرعون قبل الأخير للأسرة السابعة عشرة ، وأخو الفرعون كاموسى. وأحمس يعتبر آخر ملوك الفترة الانتقالية الثانية لأنه أكمل عمل أخيه كاموسى ، كما يعتبر — بحق — مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، حيث تمكن من إحياء نهضة البلاد بعد توحيدها . وكنا نود لو تتوافر معلومات أوفى عن النظام الإدارى فى عصر مؤسس هذه الأسرة وفى عهد ابنه أمنحتب الأول ( ١٥٥٨ — ١٥٣٠ ق . م ) ، فما لا شك فيه أن إعادة الأمن والنظام وتوفير الرخاء الزراعى كان من أهم منجزاتهما التى تمت فى الخمسين سنة الأولى للأسرة الثامنة عشرة . ثم جاء الملكان تحتمس الأول ( ١٥٣٠ — ١٥٢٠ ق . م ) ، وبعده تحتمس الثانى ( ١٥٢٠ — ١٥٠٤ ق . م ) فاندفعا فى سياسة توسعية عظيمة مستندين إلى دولة فتية جددت قواها ، ولكن انتصاراتهما أوشكت على الانهيار بسبب أزمة حكم خطيرة أثارت مناقشات حادة بين المؤرخين . وقد اتفق الآن على شجرة نسب الملوك وتسلسلهم : ولكن الأسباب التى تكمن وراء جميع فتن القصر ما تزال بحاجة إلى توضيح . فهناك فريق الملكة حتشبسوت وفيه شخصيتان هامتان من كبار رجال الدولة : المهندس المعمارى سنموت ، وهو محبوب الملكة ويحتل فى نفس الوقت منصب « مدير بيت آمون » والوزير حابوسنب وهو فى نفس الوقت « كاهن آمون الأول » . وكان النزاع الذى يفرق بين الملك والملكة ذا طابع محلى طيبى أساساً ، ولكنه من المؤكد أنه كان مرتبطا بالمصالح المادية والروحية لإله الكرنك الواسع الثراء .

وإن كنا لا نستطيع أن نحدد كنه هذا النزاع على وجه الدقة فلنكتف بذكر المبرر القانونى للأزمة وأن نلخص تطورها . نشأت المشكلة من التناقض بين ضرورة وضع شخصية عسكرية على رأس الإمبراطورية وبين مبادئ توارث العرش التى تكفل الملك لأكبر أبناء «الزوجة الكبرى» للفرعون . وكان تحتمس الأول ، وهو ابن لزوجة ثانوية لأبيه أمنحتب الأول ، قد لجأ إلى الزواج من أخته أحموسى ، وهى الوريثة الأصيلة ، لإضفاء شرعية على اعتلائه العرش ، ولم يثمر هذا الزواج سوى ابنة واحدة هى حتشبسوت . وتزوجت حتشبسوت من أخيها غير الشرعى ، تحتمس الثانى ، ثم تزوجت بعد وفاته من ابن أختها الصغير تحتمس الثالث . وهنا تمسكت الملكة ( ١٥٠٤ — ١٤٨٣ ) ق . م ) بحقوقها كاملة ، وكفت عن وضع زوجها الصغير فى الصور الرسمية إلى جوارها ، ذلك الملك الذى كانت هى خالته ، وزوجة أبيه ، وزوجته وشريكته فى الحكم فى نفس الوقت . وخلعت حتشبسوت على نفسها الألقاب الملكية وارتدت الزى الملكى وصورت نفسها فى صورة الرجال ، غير أنها لم تلق بالا للمشروعات العسكرية وإنما كرست جهودها لإقامة للنشآت الدينية الهائلة لآمون . وبعد أن ماتت حتشبسوت انتقم تحتمس منها شر انتقام ، فطارد محبوبيها ، ودمر تماثيلها ، وشوه رسومها ، وأزال نقوشها ، وأحل خراطيش الملكين تحتمس الأول والثانى محل خراطيشها على كل آثارها ، وكأنه يريد أن يمحو من التاريخ السنوات الاثنتين والعشرين التى حكمتها حتشبسوت وأذلته فى أثنائها . واستمر تحتمس الثالث يحكم بعد موت حتشبسوت أكثر من ثلاثين عاماً ( ١٤٨٣ — ١٤٥٠ ق . م ) كانت كلها سنوات مجد وازدهار عظيمين . وخلفه ابنه أمنحتب الثانى ( ١٤٥٠ — ١٤٢٥ ق . م ) دون أية صعوبات . وكما كان هذان الملكان من أعظم بناة المعابد ، كذلك كانا محاربين عظيمين ، إذ تمكنا من فرض سيطرتهما الحازمة الدائمة على الأقطار المجاورة ، حتى إن خليفتيهما : تحتمس الرابع ( ١٤٢٥ — ١٤٠٨ ق . م ) وأمنحتب الثالث ( ١٤٠٨ — ١٣٧٢ ق . م ) تمكنا

ـ بالوسائل الدبلوماسية أساساً ـ من المحافظة على السيطرة فى المنطقة الشاسعة الممتدة من سهول كنعان شمالا حتى الشلال الرابع جنوباً . ولم يكن الخلاف الذى نشب بين تحتمس الرابع وأخيه الوزير أمنم أوبى سوى أزمة عابرة لم تترتب عليها أية نتائج خطيرة . أى أنه لم تحدث أية أزمة سياسية جدية تضعف نظام الحكم بين عامى ١٤٨٣ ، ١٣٨٠ ق . م . ولكن حدث تغير تدريجى فى اتجاهات الديانة الرسمية فى أثناء هذا القرن الذى بلغ فيه النظام الملكى الفرعونى أوجه ، وأخذت العلاقات تتوتر بين الملكية الفرعونية المطلقة ورجال الكهنوت الذين يديرون أملاك آمون . ومن ثنايا هذه الاتجاهات والصراع فجر الفرعون أمنحتب الرابع ( ١٣٧٢ ـ ١٣٥٤ ق . م ) الذى عرف فيما بعد باسم أخناتون ـ فجر « ثورة العمارنة » ، تلك التجربة السياسية الاجتماعية المذهلة التى قلبت مصائر إمبراطورية الأسرة الثامنة عشرة رأساً على عقب .

## أوج الفتوحات المصرية

سبق أن رأينا كيف كان آخر فراعنة الأسرة الثانية عشرة يحكمون قبضتهم على بطن الحجر وفلسطين ، وكيف انقلبت الأحوال بشكل درامى حين رأينا الملك كاموسى يشكو من أن يشاركه الحكم قائد من العامو ( الآسيويين ) وآخر من النوبيين . لقد أثقلت المملكتان الأجنبيتان فى الشمال وفى الجنوب كاهل مملكة طيبة الصغيرة أكثر مما فعله تسلل البدو وهجمات الفرق النوبية الكبرى فى أثناء الفترة الانتقالية الأولى .

وبعد أن استردت الأسرة الجديدة قلعة أواريس من الهكسوس رأت من واجبها أن تمنع عودة الفلسطينيين إلى الهجوم نهائياً ، وأن توقف زحف جحافل النوبيين خاصة وأن أسلافهم قد عانوا ويلات احتلال المتبربرين بدرجة أقسى مما عاناه

أجدادهم الأقدمون فى الفترة الانتقالية الأولى . لذلك اتبعت الأسرة الجديدة خطة الهجوم كما فعل الملوك المناتحة فى الماضى . وعلاوة على غنائم الحرب ، فرضت الدولة الفرعونية جزية منتظمة كما كان متبعاً أيام سنوسرت . وسرعان ما فقدت القوات المسلحة طابعها الدفاعى وأخذت تتوسع بالتدريج وتتحول إلى قوة « استعمارية » . ولم تعد المهمة ، بعد مضى ستين عاما على التحرير ، هى تحصين الحدود الطبيعية الاستراتيجية للبلاد عند غزة أو الشلال الثانى ،وإنما تجاوز الجيش المصرى الحدود التى كان قد وصل إليها فى الأسرة الثانية عشرة وأرسى أسس إمبراطورية عظيمة فى ملتقى قارتى آسيا وأفريقيا ، وكان يخوض المعارك العسكرية على الفرات وعند الشلال الخامس على النيل فى نفس الوقت .

بذل الملك أحمس جهداً كبيراً فى «فتوحاته الدفاعية» ، فقد أمضى ثلاث سنوات فى تشتيت الجماعات الآسيوية المحصنة فى شاروهين عند الطرف الجنوبى لفلسطين . وحين تصدى لإخضاع النوبة السفلى بعد حملته فى فلسطين لم يتمكن من إخضاعها نهائياً . وقام بقمع تمردين ، قاد الأول قائد نوبى ، وقاد الثانى أحد الملوك المحليين المتمصرين ( نقوش القائد أحمس بن إبانا ) . وتمكن فى آخر حكمه من ضم جميع منطقة واوات ( النوبة السفلى ) وأصبح الشلال الثانى هو الحد الجنوبى لمصر ( بوابة تجورى فى بوهن ) . ووسع الفرعون حدوده الجنوبية لتصل إلى بلاد كوش ، وطارد القبائل الرحل فى الصحراء (مذكرات القائد أحمس بن نخبت) ، وأعيد احتلال أورونارتى وسمنة . كان مؤسسو الدولة الحديثة على حق حين وجهوا الجانب الأكبر من جهودهم نحو الجنوب ، وقد استردوا — فى أقل من ثلاثين عاماً — جميع الأقاليم التى فقدت منذ الأسرة الثالثة عشرة .

وتدلنا سيرة القائد أحمس بن إبانا على أن الملك أحمس قاهر الهكسوس توجه إلى الشمال فى آخر أيامه « لجلب الغنائم من فينيقيا » ( بلاد جاهى ) . كذلك توجه

أمنحتب الأول إلى آسيا . وتوجد قطعة من لوحة حجرية من معبده الجنائزى تذكر بلاد كدم ( الأردن ) . والأرجح أنه هو الذى أعاد تنظيم الجيش على أسس جديدة ، فمهد بذلك السبيل لابنه لتحقيق انتصارات لم يسبق لها مثيل .

وقام تحتمس الأول فى السنة الثانية من حكمه بحملة حربية جنوبى سمنة ، وأمضى هناك ما يقرب من العام ( ١٥٢٩ — ١٥٢٨ ق . م ) . وكانت تلك العملية العسكرية ذات أهمية خاصة إذ أدت إلى تكوين ولاية كوش . وقد سجلت الانتصارات الأولى للجيش فى نقوش صخرية فى مواقع على الطريق مثل تانجور وصاى . وكان المعتقد خطأ أن النص الصخرى الكبير فى طمبوس جنوبى الشلال الثالث يشير إلى الحد الأقصى لتوغل الجيش المصرى . ولكن عثر فى كنيسة — كورجوس ، على مسافة ٢٠٠ كم جنوبى نباتا على أقصى القلاع الفرعونية جنوباً .

كما اكتشف مرسوم ملكى منقوش علي الصخر فى ذلك الموقع يحتوى أمراً صادراً من تحتمس الأول يحظر على الزنوج الانتقال إلى شمالى دنقلة . ومن جهة أخرى يقرر النصب التذكارى فى طمبوس ، لأول مرة فى التاريخ ، أن الحدود الشمالية لمصر وصلت إلى « المياه التى تجرى بالعكس ، منحدرة ناحية الجنوب » . وواضح هنا أن الإشارة إلى نهر الفرات الذى أدهش المصريين جريانه من الشمال إلى الجنوب على عكس النيل . كما يتضح من ذلك أن تحتمس كان قد تمكن من بسط حمايته على سوريا الشمالية ( ١٥٣٠ ق . م ) قبل أن يحرز انتصاراته العظيمة فى أفريقيا . وحوالى ١٥٢٥ ق . م عبر تحتمس نهر الفرات وأخذ ملك ميتانى على غرة وأنزل به الهزيمة ( مذكرات أحمس بن نخبت ) . وسيرى تحتمس الثالث النصب التذكارى الذى أقامه جده فيما وراء معبر قرقميش . ولكن من المؤكد أن أمراء الجنوب ورعاة النوبة الكبار وأمراء سوريا وسادة ميتانى ( بدرجة أقل ) — لم يسلموا جميعاً بأن هزيمتهم وخضوعهم للفرعون أمر نهائى . فلما مات تحتمس الأول حاول

بدو النوبة غزو المناطق الخاضعة لمصر ، وتمردت ولاية كوش ، بينما ثار بدو النقب (شاسو) فى آسيا . غير أن تحتمس الثانى كان جندياً لا يقل عن أبيه عظمة ، فتمكن جيشه فى العام الأول من حكمه أن يعيد النظام فى الجنوب ( نقش صخرى فى أسوان ) ، ثم توجه الملك بشخصه لإخضاع قبائل شاسو ( مذكرات أحمس بن نخبت ) ، ولكن ليس من المؤكد أنه توجه شمالا حتى سوريا .

إن السياسة السلمية لحتشبسوت ( ١٥٠٤ — ١٤٨٣ ق . ) التى وجهت اهتمامها لتثبيت دعائم حكمها أكثر من إرسال الحملات العسكرية النائية ، إن هذه السياسة تسببت فى خسارة جزئية لتلك المكاسب . حقيقة أن غزة ظلت فى قبضة المصريين ( الآنية الأثرية فى تل العجول ) ولكن نفوذها ظل طفيفاً فى بقية فلسطين . وفى السودان ظل سلطان الملكة معترفا به على الأقل حتى الشلال الثالث .

وكان تأثير الأزمة التحتمسية ( شأنها فى ذلك شأن الأزمة الأخناتونية وتدهور الرعامسة فيما بعد) كان أقل فى أفريقيا منه فى آسيا . وينبع هذا التناقض من الفوارق العميقة بين الوضع السياسى فى كلتا المنطقتين ، ومن الأساليب المتباينة التى اتبعها المصريون فى إدارة كل منها . لقد تمكن المصريون بعد أن دمروا مملكة بوهن وأخضعوا القادة الذين حاولوا أن يجمعوا شتاتها — تمكنوا من بسط سيطرتهم دون عناء على المجموعات البشرية الصغيرة التى كانت تعيش فى فقر مدقع بين أسوان والشلال الثالث ، وتنتمى إلى أصول حامية أو زنجية أو مولدة . واصطدمت جيوش المصريين بعد دنقلة بقيادة القبائل النيلية . ولم تكن قبائل الرعاة تلك تكون دولا بمعنى الكلمة ، ولكنها كانت ذات طابع ثابت نسبيا ، إذ إنها استمرت محتفظة بسماتها الأساسية طيلة الدولة الحديثة ومنها : آريم ، جورسيس ، أرتوجا ، ميو ، أتارعو ، كاروى . وعلى الرغم من طبيعتهم العسكرية ونزعاتهم الاستقلالية فلم يستطع الزنوج السودانيون أن يقاوموا بشكل جدى العمليات الحربية المستندة إلى القلاع

والجيوش المنظمة . وإذا لم تكن ثمة سلطة سياسية مساوئة للوك أحمس، فإنهم تمكنوا من فرض إدارة مركزية مطلقة النفوذ على جميع منطقة كوش . ومنذ عهد أمنحتب الأول ، أصبح تورى ، وهو الابن الملكى والمحافظ السابق لبوهن يحمل لقب « محافظ بلاد الجنوب » واعتمده الملك تحتمس الأول ، وبذلك أصبح أول « نائب الملك » فى السودان . وعندئذ استحدث الفراعنة منصباً بين كبار موظفى الإدارة المركزية أو الرتب العليا فى الجيش ، وهو منصب « الابن الملكى لبلاد كوش » ، وهو المسئول عن جميع المناطق الواقعة جنوبى هيرا كونبوليس ( الكاب ) . وقسمت تلك المناطق إلى إقليمين : الأول إقليم واوات ، ويمتد من الحدود المصرية إلى بوهن . والثانى إقليم كوش ، ويمتد جنوبى ذلك . ويعهد بكل من الإقليمين إلى وكيل خاص . ويتبع نائب الملك مجموعة من الوظفين المدنيين المكلفين بإدارة المخازن واستغلال المناجم وجمع الجزية . ومن ثم كان الاستقلال الذاتى لرؤساء القبائل المحليين — إن وجد — استقلالا محدوداً للغاية ، وكان يحتفظ بأبنائهم رهائن فى مصر ، ولايعودون للنوبة إلا بعد تمصيرهم . ولولا ألقابهم الملكية وسماتهم الزنجية لكانوا أشبه بموظفى المستعمرات وذلك من واقع أسمائهم وملابسهم وعقائدهم .

واتخذ الفاتحون إجراء وقائياً بترميم القلاع التى سبق أن أقامتها الأسرة الثانية عشرة من أسوان إلى سمنة ، وأضاف تحتمس الأول قلاعاً جديدة جنوبها لصد هجمات البربر وجماعات اليونتيو من السودان الجنوبى ، ثم تحولت هذه القلاع فيما بعد إلى مدن صغيرة مزودة ببيوت للإقامة ومخازن ومكاتب ومعابد . ومن أمثلة تلك المدن عنيبة ( فى واوات ) وعمارة ( فى كوش ) وهما العاصمتان. كذلك مدن صوليب وسيسبى ونباتا وكاوا . . . إلخ . وكانت حاميات « حاملى الأقواس » تحافظ على الأمن وترد غارات الرحل . وعندما أخضع السودان لمثل هذا النظام المحكم فإنه لم يكن يشكل

مشكلة حقيقية بالنسبة للفراعنة . والثابت أن عدداً من الفراعنة الكبار تفاخروا بانتصاراتهم على الزنوج : تحتمس الثانى ( فى السنة الثانية من حكمه ) وتحتمس الثالث ( فى السنة الأولى من حكمه ) وتحتمس الرابع ( فى السنة الثامنة من حكمه) وأمنحتب الثالث (فى السنة الخامسة)، ثم الرعامسة الكبار من بعدهم. إذ كثيراً ما كان يهجم محاربون من الصحراء أومن السودان الجنوبى على المناطق المحتلة ، كما كان يحدث أحياناً أن يتمرد الأهالى على أوامر المحتلين ، وكانت تلك الأحداث تتخذ ذريعة لتجريد الحملات التأديبية الواسعة التى تعود بغنائم ثمينة من العبيد والماشية .

أما فى آسيا فلم يكن الفراعنة يواجهون قبائل من المتوحشين غير المنظمين حيث يغنى الكبت البوليسى عن الأساليب الدبلوماسية والتخطيط الاستراتيجى ، وإنما كانت الشعوب التى تقطن سوريا وفلسطين (الكنعانيون والعاموريون والحوريون..) قد انصهرت وتجمعت تحت قيادة ملوك منها حول الموانى الساحلية والمدن الحصينة فى الداخل . وكانت جماعات العابيرو ( هابيرو فى النصوص الأسفينية ) والشاسو فى النقب ، وأدوم — كانت تلك الجماعات تقطن عند حافة الصحراء وفى الجبال التى تكسوها الغابات ولا تكف عن تهديد المدن المستقرة . وعلى الرغم من ذلك كانت مدن سوريا وفلسطين تزخر بالصناعات المزدهرة ( الأسلحة ، الجلود ، الحلى ) كما كانت المزارع تجود بالمحاصيل الوفيرة وتغذى قطعان الماشية والأغنام ، أما سفوح الجبال فكانت تمد البلاد بالأخشاب الكثيرة اللازمة للبناء . وكان يمكن أن يسيطر المصريون على بلاد رتينو كما سيطروا على بلاد كوش لو أنهم استفادوا من تفتت الوحدات السياسية فى فلسطين ، ولعبوا دور الحكم الذى لاينازع بين الإمارات الصغيرة . ولكن ، كانت هناك دول ذات مطامع استعمارية تحف بحدود سوريا وتعرقل خطط الإمبراطورية المصرية . فأولاً : كانت هناك دولة ميتانى ، شمالى مابين

النهرين ، التى كونتها الأرستوقراطية الحورية . وأخذت تلك الدولة تمد نفوذها غرباً إلى أن أصبحت عند نهاية القرن السادس عشر تضم إمارة ألا لاخ الواقعة عند منحنى نهر العاصى . وفى نهاية القرن الخامس عشر ق . م استعاد الحثيون (خيتى) ما كانوا عليه من قوة أيام ملوكهم القدامى ، وأخذت أطماعهم تحوم حول سوريا من جديد ، واصطدموا فى بادىء الأمر بدولة ميتانى ثم بالمصريين فيما بعد . واستخدم ملوك التحامسة فى آسيا نظام الحكم الذاتى : كانوا يفرضون الجزية على الملوك المهزومين ويجبرونهم على قبول التحالف مع مصر ولو بشكل سلبى ، ويتركون حاميات فى المدن ويأخذون الرهائن . وهذا النظام الذى يأخذ فى الاعتبار التطور السياسى لتلك الأقطار ، يوفر إبقاء جيوش الاحتلال مشتتة مابين غزة والفرات . ولكن كان من الضرورى أن يراقب « مندوبو الملك » ( إيبوتى نيسو ) الأمراء التابعين المحليين ، وأن يقمع ، أولا بأول الأمراء ، المتمردين الذين كانت الدول المنافسة تتولى تحريضهم .

وكان وضع فلسطين الجغرافى يساعد على إبقاء عدد لا يحصى من الإمارات الصغيرة ، ولكن قربها من مصر ساعد الفراعنة على إرسال الجيوش وإحكام قبضتهم عليها بدرجات متفاوتة حتى منتصف القرن الثانى عشر ق . م . وتمكن تحتمس الثالث من جعل فينيقيا فى متناول الجيوش الفرعونية عندما أقام فى بيرونفر — وهى ضاحية من منف — ترسانة بحرية بنى فيها أسطولا عظيما لنقل الجيوش ، استخدم فيه أخشاباً من لبنان والسودان . وفى كل عام يخزن جزءاً من الجزية فى موانى فينيقيا التى كانت تستخدم كرأس رمح فى العمليات العسكرية الموجهة ضد مدن السهول السورية . وكانت المهمة العسيرة أمام فراعنة الدولة الحديثة هي المحافظة على ولايات الشمال وبخاصة وادى العاصى وقادش وتونيب وزنزار ونيا وقطنة ، والأقطار المجاورة لتاخسى ونوخاسا ، فقد كانت كل من دولتى ميتانى وخاتى فى موقع أفضل

يمكنهما من تحدى النفوذ المصرى . وقد ظل الأمراء السوريون يتذكرون الهزائم التى أصيبوا بها على أيدى الفراعنة ، ومن ثم سرعان ما كانت مصالحهم تستجيب لدعايات مندوبى ملوك ميتانى وخاتى مثل خاتوساس ، وأشوجانى — ثم تنتشر موجة التمرد لتغمر فلسطين الجنوبية يتبعها التدخل العسكرى من الدولتين . هكذا يمكن فهم تقطع خيط السياسة الآسيوية لفراعنة الدولة الحديثة ، والحملات الكبرى التى قام بها الملوك فى أعقاب اعتلائهم العرش مباشرة ، وكيف أن سياسة حتشبسوت السلمية ترتب عليها الانهيار شبه الكامل للفتوحات الأولى ، وأخيراً ، كيف انتهت سلبية أمينوفيس الثالث ومن بعده أخناتون إلى ضياع سوريا الشمالية كلها .

وعندما تخلص تحتمس الثالث من وصايا حتشبسوت بموتها ، كان ملك قادش قد نجح فى توسيع مملكته على حساب دولتى ميتانى ومصر ، وبسط نفوذه على نخاسا ، ووصل إلى الجليل ، وضم إليه ٣٣٠ ملكا — من بينهم ملك مدينة مجيدو الحصينة ، وهى مفتاح الطريق إلى سوريا ، والتى أصبحت نقطة تجمع الجيوش المتحالفة . وكاد هذا التآلف ينجح فى اقتلاع ما بقى من النفوذ المصرى فى فلسطين . غير أن تحتمس الثالث تجنب ( تكتيك ) العدو بمناورة عسكرية يائسة ، إذ اتجه بسرعة فائقة نحو الكرمل متجنباً بذلك خوض معركة مهولة . وتراجع معظم الحلفاء وعادوا إلى مدنهم بغير رجعة تاركين ملك قادش محاصراً فى مجيدو . وبعد حصار دام سبعة أشهر استسلمت المدينة ، وقبل ملوك الائتلاف دفع الجزية للمنتصر . وخلدت معركة مجيدو فى نصب أرمنت التذكارى ، وفى نصب نباتا ، وفى حوليات الكرنك التى تعدد حروب تحتمس الثالث فيما بين ١٤٨٣ ، ١٤٦٤ ق . م ، كما تسجل قوائم الجزية التى جبيت فى أثناء تلك الفترة . ولكنها تصبح مليئة بالثغرات بعد تلك الفترة ، وإن كان ما بقى منها يمكننا من متابعة الخطوط العامة لسياسة تحتمس العسكرية . كان الفرعون يذهب إلى فينيقيا وسوريا كل عام فيما بين ١٤٨٠ ، ١٤٦٥ ق . م ،

وكان يتوجه أحياناً إلى النقب ليتعقب البدو ويقمع التمردات التي كانت تتوالى تباعاً .
وهكذا نعرف تفاصيل غارتين على نخاسا وغارتين أخريين على قادش ، كما تعين عليه مرتين متتاليتين انتزاع ميناء أولاذا من قبضة ملك تونيب . كذلك تشير ترجمة حياة كل من آمون محب ومينمس إلى حملات القمع فى تاخسى وبلاد زنزار . وتنم سلسلة العمليات الحربية عن حدث تاريخى هام ، هو العداء المكشوف لملك ميتانى . وفى ١٤٧٣ ق . م استولى تحتمس الثالث على مدينة قطنة ، وخاض معركة أمام حلب وقرقميش ، ثم عبر نهر الفرات بمراكب حربية نقلها على عربات تجرها ثيران ، وقام أخيراً بغزو إقليم سوبيرو. وكان ذلك انتصاراً حربياً براقاً وإن كان لم ينه الحرب . وفى ١٤٧١ ق. م كانت جيوش ميتانى قد تمكنت من الوصول إلى منطقة دجاهى ( موقعة أرينا ) ، ولكن الميتانيين لم يحتملوا المعركة ، وسرعان ما تقهقروا تاركين كل عتادهم الحربى . ولكن تحتمس يعود بعد تلك الموقعة بسبع سنوات ليستولى على مدينة تونيب وبعض ضواحى قادش ، ويسجل أنه أسر « رجال دولة نهارين ( ميتانى ) الحقيرة الذين كانوا يعسكرون هناك » . وفى ذلك اعتراف ضمنى بأن دولة ميتانى كانت قد عادت مرة أخرى إلى الاستيلاء على منطقة نهر العاصى . وتنتهى الحوليات بذكر هذه الحملة السابعة عشرة للفرعون تحتمس الثالث . وتجمع الدلائل على أن معاهدة قد أبرمت بعد تلك المعركة بقليل تسجل بسط حماية مصر على الجزء الأكبر من سوريا ، إذ تمكن الفرعون من استمالة جميع البلاد الناوئة للتوسع الميتانى بفضل إصراره فى المعركة . فمنذ معركة مجـــيدو قام مندوبو دولة أشور بزيارته ( ١٤٨٣ ق . م ) ، كما أرسل ملوك خاتى وبابل الهدايا للفرعون فى معسكر « نيا » بعد عبوره الفرات ( ١٤٧٣ ق . م ) ، ثم قدم مـــلوك عازى وألالاخ فروض الطاعة للفرعون . وهكذا تمكن تحتمس الثالث فى أواخر حكمه أن يعلن بحق أن حدود إمبراطوريته تمتد « من كاروى جنوباً إلى نهارين شمالا » ، وذلك بعد أن أعاد الحدود السودانية إلى كنيسا .

بعدئذ استغلت دولة ميتانى فترة الراحة التى أتيحت لها ( ١٤٦٠ — ١٤٥٠ ق . م ) ، وكل ما يذكر فى هذا الصدد هو أن الملك أمنحتب الثانى أسر مندوباً لملك ميتانى فى أثناء الحملة التى قام بها فى العام السابع من حكمه ، وعثر على لوحة صغيرة معلقة فى عنق الفارس الأسير ، عليها نداء من ملك ميتانى المدعو شوشاتار إلى الأمراء التابعين لمصر ، غير أن هذا النداء لم يكن الأول أو الأخير من نوعه ، ولكن ليس لدينا دليل قاطع على أن أمنحتب هذا — وهو ابن تحتمس الثالث — قد اشتبك فى حرب مباشرة مع دولة ميتانى، وإن كنا نعلم من نصوص إليفنتين وعمدا والكرنك ومنف أنه قد تولى قيادة ثلاث حملات تأديبية فى آسيا . وعلى الرغم من أنه أخذ المتمردين بالشدة فى تاخسى فى ١٤٤٩ ق . م إلا أن سكان لبنان والأنصارية ثاروا بدورهم فى ١٤٤٣ ق . م . ويصل أمنحتب الثانى إلى فينيقيا عن طريق البحر ( ؟ ) ، وبعد أن يصد هجمات المتمردين فى شاما شادومو ، يعبر نهر العاصى أمام الأعداء ويذهب إلى مملكة نيا للتأكد من ولائها ، وينزل العقاب بمملكة عكوت التى كانت قد طردت الحامية المصرية ، ثم يتوغل شمالا ويغزو المناطق الجبلية من زلحى إلى عمق ، ثم يعود إلى العاصى ويستعرض قواته أمام ملك قادش التابع له . وفى ١٤٤٧ ق . م يقوم ملوك الدول الصغيرة فى فلسطين الشمالية بتحريض السكان الحوريين والكنعانيين ويدربون جماعات من قبائل شاسو وعابيرو ومن نخاسا . وعلى أثر هذا يعود أمنحتب الثانى إلى سوريا ويستولى — دون عناء — على مجموعة من المدن ويرسل إلى بلاده أكثر من سبعين ألف أسير ، ويتلقى فى الحال التهانى من دول خاتى وبابل ، ومن دولة ميتانى نفسها . ومن جديد جاء المندوبون من قبل شوشاتار — ملك ميتانى ، ومن تابعين فى سوريا ، لتوطيد العلاقات الطيبة التى يجب أن تسود مع البلاط الفرعونى . وتنبئنا النصوص النادرة التى وصلتنا بالانتصارات الحربية للفرعون تحتمس الرابع ( ١٤٢٥ — ١٤٠٨ ق . م ) ، أنه

اضطر إلى تهدئة فلسطين الوسطى ( الاستيلاء على جازر ) وأنه وقف فى وجه دولة نهارين .

ومنذ نهاية القرن الخامس عشر ق . م وحتى ١٣٨٠ ق . م تقريباً اضطرت شعوب رتينو إلى قبول الحماية الفرعونية بعد أن تلقت الهزيمة تلو الهزيمة على أيدى التحامسة ، ومن ثم لم يجد الفرعون أمنحتب الثالث أنه من الضرورى أن يقوم بجولة عسكرية فى آسيا عقب اعتلائه العرش (١٤٠٨ ق . م ) ، وفى تلك الأثناء أجبر التهديد الحثى ( الاستيلاء على حلب ) ملوك ميتانى ( أرتاتاما الأول وشوتارنا الثانى ) على التقرب من مصر . وفى سبيل جعل العلاقات أكثر ودية قبل كل من تحتمس الرابع وأمنحتب الثالث (١٣٩٨ ق . م) أميرة ميتانية فى الحريم الفرعونى . لقد بلغت الإمبراطورية أوجها إلى درجة أن مدينة أوجاريت التجارية ذات البأس دخلت فى فلك مصر التى أعارتها حامية عسكرية . غير أن الفرعون المتألق أمنحتب الرابع الذى كان يفضل دبلوماسية المصاهرة على استعمال العنف ، تناسى أنه بمكانته الدولية وولاء تابعيه لم يكن إلا ثمرة لانتصارات أسلافه العسكرية . لذلك — ما إن تدهور ، لأول مرة ، السيطرة الحثية حتى يسارع دوشراتا ، مغتصب عرش ميتانى ، إلى استعادة نفوذ بلاده فى سهول سوريا ( ١٣٩٠ — ١٣٨٠ ق . م ) ، ثم تمكن من التدخل العسكرى فى الجانب الآخر من نهر العاصى حيث كان الأمير عبدا شيرتا ينتهز فرصة سلبية المصريين ليكون إمارة مستقلة لحسابه . وقد عرفنا مولد دويلة عامورو هذه من الرسائل الأولى للأمير المخلص للفرعون المسمى ريبعدى ، قائد جبيل ، وهى أقدم اللوحات الصغيرة بعد ١٣٨٠ ق . م التى وجدت فى أرشيف تل العمارنة . وسنشهد فى الرسائل التالية كيف تحللت الإمبراطورية المصرية فى آسيا .

وتظهر دولة خاتى من جديد على مسرح الأحداث فى ١٣٨٠ ق . م إذ يتحالف

شوبيلوليوما ملك خاتى مع أحد منافسى دوشراتا ملك ميتانى ، ويتمكن من زعزعة أركان دولة ميتانى بغزو إقليم سوبارو ، والقيام بحملتين فى منطقة نهر العاصى وتدمير قطنة والاستيلاء على نخاسا ، فاستسلمت كل من نيا وألالاخ تلقائياً . وإذا انقلبت الأوضاع على هذا النحو تعود ميتانى إلى التحالف مع مصر ، ويقبل دوشراتا أن يرسل إلى مصر زوجة ثالثة لفرعون ، ويسارع ملوك أوجاريت وقطنة وتونيب وزنزار ونخاسا إلى طلب الحماية المصرية . غير أن أمنحتب الثالث لا يرغب فى أن ينشغل مباشرة فى عمليات عسكرية .

أما شوبيلوليوما فقد امتنع من جانبه عن الإقدام على أية عملية توقظ أمنحتب الثالث من رقاده ، فلم يقم بأسر ملك قادش إلا للرد على هجوم من جانبه ، وأحجم عن عبور نهر العاصى ، وتوقف عند أبواب دمشق ( أوبى ) . وقد حالت أحداث الأناضول طويلاً دون القضاء النهائى على دولة ميتانى أو التقدم صوب الجنوب . ولكن ملك خاتى استعان بالبدو العابيرو بقيادة الأميرين أيتاجاما وعازيرو للتمهيد لاحتلال المناطق الواقعة شمالى دمشق وجبيل. وكان إيتاجاما بن ملك قادش السابق، قد وقع فى أسر الحثيين ثم أصبح فيما بعد عميلاً لهم ، ووقف فى وجه أخيه نامياوزا الذى تولى ملك قادش بعد أبيه ، والذى كان يستند إلى الفرعون الضعيف للبقاء فى السلطة . وكان عازيرو بن عبد اشيرتا ملكاً على دولة عامورو الصغيرة ، وهو أمير مخادع فى الحرب ، يحاول توسيع رقعة مملكته ، وهو يظهر الولاء البعيد للفرعون بينما يتهيأ لخيانته فى أول فرصة تسنح .

تلك كانت الحال عشية الإصلاح الأخناتونى فى ١٣٧٢ ق . م. لقد تمكنت مصر من استنزاف موارد بلاد رتينو منذ نهاية القرن السادس عشر ق . م ولمدة تزيد على مائة سنة لاحقة ( ١٤٨٣ — ١٣٨٠ ق . م ) ، وذلك بفضل حملات تحتمس الأول والتدخل السلح المتكرر لكل من تحتمس الثالث وأمنحتب الثالث ،

الغزاة الآسيويين مباشرة . ومن المؤسف أن ذلك النص يعتبر من الوثائق النادرة التى تخبرنا عن النشاط الداخلى لمؤسسى الدولة الحديثة . لكن تظهر فى الوثائق العديدة التى وصلتنا من عهد حتشبسوت مبادئ ثابتة تحكم النظام العسكرى وتوزيع الأملاك والإدارة المدنية ، ومن ثم يجب أن نعزو إقرار المراسيم التى سجلت نظم الحكم فى الدولة الطيبية الثانية إلى أحمس ابنة أمنحتب الأول الذى عبد بالاشتراك مع والدته كمعبود حام للمملكة ولمدينة طيبة . وكانت تلك النظم تختلف اختلافاً كبيراً عن مثيلاتها فى الدولة الوسطى .

لقد عرف أسلاف أحمس ، فى إطار مملكتهم الصغيرة ، كيف يحافظون على صلاحيات الملك الدينية والدنيوية عن طريق توثيق العلاقة بين التاج وبين رعاية الإله آمون فى الكرنك . وجاءت الانتصارات العسكرية لتجعل من السلطة المطلقة للنظام الملكى العنصر الاجتماعى الوحيد الذى يجتاز المحنة . وأعلنت الأسرة الثامنة عشرة بكافة الطرق المصدر الإلهى لهذه السلطة المطلقة فى أكمل صورها . وإن كان ثمة فترة فى التاريخ المصرى القديم تتمثل فيها الطبيعة الدينية للسلطة الفرعونية من كافة نواحيها ، فإنها فترة حكم الدولة الحديثة . وتتبين من مناظر التناسل الإلهى كيف تخرج كل من الملكة حتشبسوت والفرعون أمنحتب الثالث من صلب الإله آمون نفسه . والطقوس الدينية التى كانت تقام فى المعابد الجنائزية فى طيبة كانت تجعل من فرعون الصورة البشرية للإله . وتتطور قائمة الألقاب الملكية لتصبح قصائد مديح مطولة تخلد الصفة الإلهية للفرعون ورعايته للمعابد ، وضمان الرخاء والأمن لرعاياه والطريقة التى تمكنه بفضل شجاعته من السيطرة على كل ما « يشمله قرص الشمس فى رحلته اليومية» . ونظرا لأن ملوك الثامنة لم يجدوا أمامهم فى الأقاليم أمراء إقطاعيين كما كانت الحال أيام أسلافهم فى طيبة ، فقد تمكنوا من إقرار مبدأ اعتماد الحكم الملكي على نفسه من البداية ، واستغلوا تسوية العلاقات الاجتماعية لبناء الجهاز الإدارى

البلاد وفق مشيئتهم . وبعد أن تمكنوا من طرد الهكسوس وضعوا جميع الملكية العقارية تحت إدارتهم المباشرة . ووجهوا عناية خاصة لتنظيم الأقاليم بهدف إنعاش الاقتصاد الزراعى فى أقصر وقت ، ولضمان إيرادات كافية من الضرائب . ولا يمكن الاعتماد فى هذا الصدد على ما عثر عليه فى مقبرة رخميرع وزير تحتمس الثالث ، حيث يوجد النص الشهير « تعليمات إلى الوزير » ، ورسوم تصور رفع ضرائب الجنوب — فالمرجح أن أصول هذه النماذج ترجع إلى الأسرة الثالثة عشرة . وإذ نفتقر إلى المصادر — نكتفى بالإشارة إلى استمرار وجود منصب المحافظ فى المدن الهامة وظهور تقسيمين إداريين جديدين هما المنطقة ( سوواو ) والقسم ( قاحت ) . ويبدو أن هذا نوع من التقسيم الضريبى الذى أدخل فى المدن .

وكان إنشاء وظيفتى الوزير من أهم العوامل التى ساعدت على تقوية المركزية ، إذ عين لكل من القطرين وزير ينوب عن الملك فى شئون الإدارة الداخلية والقضاء ، الأول مقره فى طيبة ، والثانى فى منف أو هليوبوليس . وهناك مديرون مسئولون ، تحت إشراف الوزير ، عن الخزانة وقطعان الماشية وصوامع الغلال « وكل أعمال الملك الإنشائية » . وهناك « مناد » ينظم إجراءات القصر ويعمل وسيطاً بين الوزير ومختلف أجهزة الإدارة . ويختار فرعون الوزراء من بين كبار رجال الجهاز البيروقراطى ، ويمنحهم المناصب الإدارية الكبرى التى تدر إيرادات الأراضى التابعة للملك ، ويهبهم الهدايا الفاخرة مثل القلائد الذهبية الكبيرة فى احتفالات رسمية خاصة . وترك هؤلاء الوزراء مدافن مهيبة . وبعض هؤلاء ، مثل سنموت ومن خبر رع وسنب وأمنحتب بن حابو الذى عبد كإله للحكمة — وصلوا — بفضل الرعاية الملكية — إلى مرتبة تضارع من الناحية العملية مرتبة رئيس الوزراء .

وحتى لو احتسبنا موظفى الإله آمون وغيره من الآلهة ، فإن مجموع الموظفين الثانويين يبدو أقل من مثيله فى الدولة الوسطى ، بسبب تبسيط الجهاز الإدارى

واختفاء الطبقة الوسطى ، إذ اختفت كثير من الوظائف التى كانت مصدر رزق لطبقة متوسطة مزدهرة ( مثل « رؤساء العشرات » — الأوعارتو والعخنوتى ) . ولم يحتفظ بمكانته سوى طائفة الكتبة والمحاسبين الذين يدربون فى العاصمة ويختارون من بين أقارب ذى الحظوة فى القصر الملكى . أما الفنانون وأصحاب الحرف الذين كانوا ذوى نشاط هائل فى ذلك العصر ، فكانوا يجمعون فى طوائف تابعة للحكومة أو المعابد تحت إشراف مديرين ( مثل مدير مثالى بيت آمون ) ، وهكذا ظلت الطبقة التى كان يمكن أن تلعب دور الوسيط بين كبار رجال القصر والجماهير الكادحة من الفلاحين والأسرى الأجانب ، ظلت مجرد أداة فى أيدى القصر والكهنة ، ولم تلعب دوراً حاسماً فى تطوير الدولة . غير أن ما تمليه سياسة الفتح فى الخارج ، والطريقة الخطرة التى اتبعوها فى توزيع الملكية العقارية فى الداخل أوجدت سلطتين قادرتين على أن تتحديا الحكم الملكى المطلق — ألا وهما الجيش وكهنة آمون .

كان فراعنة الدولة الحديثة ، على خلاف أسلافهم فى طيبة ، يملكون جيشاً دائماً كبير العدد مكوناً من رجال العربات والمشاة والبحارة . وعلى الرغم من أنه من المشكوك فيه تماما أن الهكسوس كانوا يملكون الخيل والعربات الحربية عندما غزوا مصر ، إلا أنه من المؤكد أن هذا السلاح انتشر فى مصر فى النصف الثانى من فترة حكمهم . منذ ذلك الوقت أصبح هذا السلاح سيد الأسلحة . وكان أصحاب أعلى المراتب فى الجيش هم المشتغلون فى الإصطبلات الملكية ( إيهو ) . وكان البحارة والمشاة من المجندين المصريين والأسرى النوبيين ، ويجرى توزيعهم إلى فرق ( ساو ) تتكون من مائتى جندى يقودهم « حامل النفير » ( تياسريت ) ، وجيوش يقودها ضباط (أدينو) أو جنرالات . أما القيادة العليا فكانت بيدى الملك أو قائد عام . وكانت القوات المسلحة موزعة على حاميات فى مختلف أنحاء البلاد ، ويمنح أفرادها قطعا من الأرض

وعبداً من العبيد وجزءاً من الغنائم يحجز من أجلهم، وتخلع عليهم الأوسمة والنياشين (مثل « الذبابة الذهبية » ) . وبعد أن تخلى بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة عن قيادة الجيوش فى المعارك الحربية أصبحت هـــذه الفئة القوية الموسرة أداة خطيرة للمعارضة فى أيدى القواد العسكريين .

وأقام ملوك التحامسة منشآت كثيرة لصالح آلهـــة منف وهليوبوليس والعواصم الأخرى ، وأوقفوا عليهم العطايا الهائلة ، غير أن معظم المنشآت والعطايا كانت توقف — حتى عهد أمنحتب الثانى على الأقل — على الإله العظيم آمون . وأوقف الملوك المحررون كثيراً من الأراضى التى استردوها من الغـــزاة لمصلحة الإله السيد الحامى لجيوشهم . لقد تلقى آمون من الملوك الفاتحين فى مقابل حمايته لهم الجـــزء الأكبر من الغنائم والجزية والأسرى ، وخصصت من أجله موارد المدن الآسيوية ومناجم السودان . وأصبحت ممتلكات الإله تضـــارع ممتلكات الملك . وتزايدت طقوس عبادته فخامة يوماً بعد يوم . وأصبح رجال معبد آمون ينتظمون فى نظام هرمى من كبار الكهنة و « الآباء المقدسين » و « خدام المعبد » ، يضاف إليهم المديرون والكتبة المخصصون للإشراف على الأراضى الزراعية والمصانع والخزائن وقطعان الماشية التابعة لبيت آمون. وكان الملك من الوجهة الرسمية يحتفظ بالإشراف الأعلى على الأموال التى يتنازل عنها للأغراض الدينية ، إذ إنه يعين « المتنبىء الأول للإله آمون » و « مدير بيت آمون » و « المندوبين الكهنوتيين الرئيسيين » و « إداريى معابد الكرنك » . ولكن بفضل توارث المناصب تكونت طائفة من الكهنة والموظفين يمكن اتخاذها أداة فى أيدى كبارهم لمواجهة سيدهم الكبير .

ومن طرف خفى شجع فراعنة تلك الأسرة رعاية معابد الآلهة الآخرين ، وكأنما يهدفون إلى موازنة سلطة آمون ، الإله الأول للإمبراطورية . لم تتجه أنظار ملوك تلك الأسرة إلى منف ، العاصمة الثانية للبلاد ، منذ تحتمس الأول ، وإنما

اتجهوا إلى هليوبوليس مهد المذاهب الدينية الكبرى لتنفيذ تلك السياسة . ولعل أهم دليل واضح عن الدور الذى لعبته مدينـــة الشمس فى الشريعة السياسية الدينية الجديدة هو النصب التذكارية التى أقامها الملكان أمنحتب الثانى وتحتمس الرابع بالقرب من «أبو الهول» فى الجيزة بصفته ممثلا للإله رع — حاراختى . واعترف كهنة آمون بالنظرية الدينية الموحدة لمدينة الشمس ، كما اعترفوا بأن عبادة آمون جزء منها ، وذلك لاعتقادهم أن هـــذا الاعتراف يقوى من سيطرة إلههم . وأخذت طيبة ( هليوبوليس الجنوب ) من منافسيها التقاليد الدينية المختلفة ( مثل المسلة الواحدة ) ، ومنصب « كبير الراصدين » . غير أن عقائد حكماء مدينة هليوبوليس نفسها كانت قد بدأت تتطور ، إذ أخذت نظريتهم فى خلق العـــالم تتخلص من الأساطير القديمة لتصل إلى صيغة مبسطة ، ألا وهى « الخلق المباشر » لكل الكائنات بوساطة أشعة الشمس ، وانتقلت العبادة من شخص الإله رع — آتوم — خيبرى إلى فكرة الشمس نفسها فى شكل قرصها السماوى ( آتون ) . وأصبح آتون هو المعبود الشخصى للفرعون أمنحتب الثالث ، الذى أطلق على مقره وقاربه الكبير فى طيبة وإحدى فرقه المسلحة اسم « آتون مشرق » ، وأسس مدينة جيم — آتون فى النوبة ( كاوا ) .
وعلى أية حال لا يمكننا أن نعمم نتائج تلك الميول التوحيدية على المعتقدات الجماعية والمجتمع الفرعونى فى المدى البعيد . ويمكن القول بأنها كانت تتعارض تماما مع الجهاز المادى الذى يغذى العبادات القديمة والممثل فى ممتلكات آمون ، غير أنها لم تؤثر حتى عام ١٣٧٠ ق . م إلا فى أقلية مختارة صغيرة العدد . ولكن أمنحتب الرابع جاء ليقيم منها بناء عقائدياً شاملا دون أن يقيم وزناً للمستوى الحقيقى للمعتقدات ، مخاطراً بمصائر الإمبراطورية المصرية فى نفس الوقت .

# ثورة أخناتون

كان أخناتون آخر تاج لسلسلة من الزيجات داخل نفس الأسرة ، وقد تسرب إليها الضعف والتخنث . والحق أن هذا « الطفل الجميل للإله آتون » أغرب شخصية فى التاريخ المصرى القديم . كان ضعيف البنية ، نحيل القوام ، بارز الوجنتين ، متدلى الفك ، يوحى وجهه بالكآبة المحزنة . أما روحه فيتملكها إلهام مقدس ، حساس للطبيعة ، مرهف المشاعر الإنسانية . كان أخناتون شخصية دينية عميقة التكوين ، ولا شك فى أنه من أعظم المتصوفين فى التاريخ ، غير أنه كان ينقصه الإحساس الكامل بالواقع ، مما جعله يخفق فى أن يجمع فى شخصيته بين الملك والقداسة مثل لويس التاسع أو سافونارولا . وعلى الرغم من أنه كان وريث السلطة المطلقة للفراعنة ، إلا أنه لم يتمكن من إعادة بناء الدولة الفرعونية القديمة بناء جديداً بضربة واحدة ، مستخدماً في ذلك شريعة آتون الجديدة ، إذ اكتفى بإقناع عدد من رجاله المقربين المخلصين بدرجات متفاوتة ، وعاش فى عزلة مع أحلامه الجميلة عن العدالة والإنسانية والطيبة والجمال ، تاركا عامة الناس لأقدارهم ، وقد يتصدى لاتخاذ إجراءات ضد الإله آمون ، وعندئذ تصدمه مقاومة الكهنة الجشعين الذين أفزعتهم تلك الثورة الكفيلة بحرمانهم من جميع امتيازاتهم المادية . حرم أخناتون اسم آمون وأغلق المعابد وصادر ممتلكاتها وسرح مستخدميها لمصلحة البيت الملكى ، ثم أطلق على نفسه اسم أخناتون ، أى « الحائز على رضا قرص الشمس» . وهاجر إلى إقليم هرموبوليس حيث أقام مدينة جديدة هى « أخت أتون » أى « أفق قرص الشمس » ، وهى مكان تل العمارنة الحالية ، وذلك فى ١٣٧٢ ق . م .

لقد كانت الديانة الرسمية قبل أخناتون وبعده عبارة عن تصنيف وتجميع

هائل يوحد صفات الآلهة الكبار مثل آمون فى طيبة ، ورع ( هليوبوليس ) وبتاح ( منف ) ، حيث الأفضلية للسلطة دون قوة العقيدة ، وحيث تؤخذ بعض الديانات المحلية فى الاعتبار . أما عقيدة أخناتون الجديدة فقد أنكرت هذا المنهج التوفيقى ولم تسلم إلا بشريعة توحيدية على النمط الهليوبوليسى ، حيث اتخذت معبوداً واحداً هو « رع حاراختى الذى يتألق فى الأفق بمظهره شو ( النور ) ويكمن فى قرص الشمس » . وعلى أية حال تظهر الطقوس الدينية تمسك الثورة الكامل بمعتقدات هليوبوليس : فقد كان « قصر بنبن » فى العمارنة ، والمعابد الآتونية فى الكرنك وميدامود عبارة عن أبهاء واسعة تقدم فيها القرابين النباتية والحيوانية على مذبح فى الهواء الطلق . ويرأس الكهنة كاهن أول هو « كبير الرائين » كما يشكل الثور منيفس نفسه جانباً من ملحقات العبادة . والنشيد الطويل الذى يتغنى بالشمس ذات الألف ذراع والذى نقلت عنه مزامير داود وكذلك الابتهالات المشابهة ، ليست مجرد تركيبات منتقاة لأوصاف قديمة لإله الشمس الصانع ، ولكنها تضيف مفهوماً جديداً لم يكتمل التعبير عنه هو تجدد الخليقة كل يوم . فإن ظلام كل ليلة يشهد موت جميع الكائنات ، ثم يأتى قرص الشمس كل صباح ليعيد الحياة إلى كل شىء فى العالم ، ويهب حياة جديدة للملك الكاهن الأعظم الذى هو تجسيد الإله على الأرض. وإذ أعطت تلك النصوص أهمية خاصة لدور الإله الصانع ، فقد استبعدت الأساطير القديمة وتجريدات كهنة بتاح الجريئة وأحلت محلها تصويراً رومانتيكيا جميلا لدور ذلك الإله . وكانت ديانة العمارنة ذات مذهب طبيعى وبسيط وساذج ميزها عن عقيدة منف القديمة . وابتعدت عن تعاليم الإله القاضى . بينما اتخذت من الإلهة معات ممثلة للعدالة والنظام الإلهى ، ولكنها أحجمت عن أن تتبع منهجاً إيجابياً من هذه المبادىء السلبية فى جوهرها . فلم تكن الحقيقة العليا أو « الحقيقة الملكية » سوى الخضوع للعقيدة التى تعبر تعبيراً متفائلا عن الطيبة الإلهية لقرص الشمس ، كما تشتمل على الخضوع للنظام الجديد الذى يقره الفرعون بعد أن أعلن التغاضى عن الماضى . وفى هذا الخضوع لأفكار أخناتون الشخصية تكمن طبيعة تلك « الحرية »

التى كانت من مميزات ذلك العهد. والحق أن هذا الفرعون «الخارج على الديانة القديمة» كان يصبو إلى تحرير جذرى للفرد ، غير أن تفكك نظام القصر الذى تمثل فى استباحة عرض حياته العائلية على الملأ ، والاتجاه الواقعى المتطرف الذى أوحى به إلى الفنانين — لم يكن كل هذا سوى نزوات سطحية عابرة . ولم يكتب الخلود إلا لما أقدم عليه الفرعون من إدخال اللغة الدارجة ( المصرية الجديدة ) فى الكتابات الأدبية .

وقد صاغ المؤرخون نظرية جذابة حول بعض فقرات النشيد الطويل ، حيث ورد أن « قرص الشمس خلق بلاد خورى وكوش وأرض مصر » . وأنه « فجر فيضاناً من الأعماق من أجل المصريين وفيضاناً فى السماء من أجل الأجانب » . ويقول المؤرخون إن المخطط السياسى لأخناتون كان هو توحيد جميع رعايا الإمبراطورية حول عقيدة مقبولة من الجميع تستند إلى قوة الشمس نفسها .

ولكن يبدو أنه ثبت ، لسوء الحظ ، أن عملية خلق الأجناس المختلفة كانت قد نسبت من قبل إلى رع . وعلى أية حال فحتى لو كانت فكرة دين عالمى واحد قد خطرت بالخيال الخصب للملك « الهائم فى حب الإله » فإنه لم يكن هناك أى رفض حقيقى ، من ناحية المبدأ ، للإمبريالية التقليدية ومراسيمها : فظل احتفال تسلم الجزية عيداً رسمياً فى تل العمارنة ، وظل نائب الملك فى النوبة يباشر مهامه ، كما كان من قبل ، على رأس الحملات البوليسية ، وظلت تقدم صور أخناتون وهو يطأ بقدميه رؤساء البرابرة ، كما كان يفعل أسلافه .

وكانت مهام الملك من الكثرة إلى الحد الذى جعله لايبالى بمصير ممتلكاته فى آسيا ، ولا يتبين الدسائس المغرضة لوزير خارجيته ، دودو ، ومبعوثه إلى مدينة الجليل ، بينحورو ، وغيرهما من كبار الموظفين الذين كان الملوك المخلصون لفرعون يتهمونهم بخدمة قبائل العابيرو . وكانت الغزوات التى يشنها قطاع الطرق هؤلاء ،

وأطماع بعض صغار الأمراء تهز أركان الحماية المصرية على فلسطين ، أما الأتباع المخلصون فقد ظلوا يلحون ، عبثاً ، فى طلب النجدة ، ثم تهاووا واحداً بعد آخر مغتالين أو منفيين .

وفى شمال الجليل كان الوضع أشد خطورة . كان سوبيلوليوما قد عاد إلى سوريا لكى يضم فى حلف تابع له ملوك نوخاسا وألالاخ وحلب وقادش ( التى كانت حينذاك تحت حكم إيتاجاما ) . وعلى الشاطئ ، كانت جبيل وبيروت ما تزالان على ولائهما لمصر ، غير أنهما عجزتا ، بسبب عدم وصول النجدات ، عن منع عازيرو من أن يكسب إلى صفه ملكى آراد وصيدا ، وأن يضم مدينة زالحى ومدن مملكة أوجاريت وينتزع تونيب ونيا . وبعد قليل تمكن هذا الملك العامورى من من أخذ سميريا ، وهى مقر حاكم مصرى على صلة بإيتاجاما ، وذلك من أجل اكتساح عامكى والعاصى ، كما لم يعد يتردد فى استخدام معاونين حثيين . وعندما توقف سلسلة الالتماسات والاستغاثات المحزنة التى ظل يرسلها ريبعدى ، ملك جبيل ، فإن العامورو ( ربما يكون هؤلاء هم من يرد ذكرهم فى النصوص المصرية القديمة باسم كودى ) يكونون قد احتلوا لبنان وجنوبى أنصارية ، ووصلوا إلى مشارف العاصى الأوسط ، وأصبحوا بذلك يقبضون على مداخل سوريا . وحوالى عام ١٣٥٥ ق . م كانت الفوضى والذعر يسودان فلسطين ، وكانت ميتانى قد انتهت إلى دولة صغيرة تسير فى ركاب سوبيلوليوما ، بعد أن مزقتها الدسائس والهجمات المتكررة من دول خاتى وبابل وأشور .

ويبدو أن أخناتون عالج شئون بلاده الداخلية بنفس لامبالاة المتدين التى عالج بها الشئون الخارجية . والحقيقة أنه لا يعرف إلا القليل عن حكومته . لم يتغير الكادر الإدارى فى مجموعه ، غير أن المناصب العليا انتقلت من أيدى أبناء الأرستوقراطية القديمة إلى أيد جديدة ، وفيما عدا ذلك يبدو أنه لا الجماهير الشعبية ولا كبار القوم

أصابهم جديد من عناية آتون الإلهية ، وظلت مصر ترقب بنظرة سلبية نزوات ملكها المتفقه فى اللاهوت . ومن حسن الحظ أن قائد البوليس ماهو ، كان مخلصاً للنظام الجديد ، لأن الجيش لم يكن موالياً للإصلاح الدينى . ولا شك أن الجنرال آى ، قائد الجيش ، كان من أوائل من أدركوا أن نظام العمارنة ميئوس منه ، إن لم يكن قد قام بجهود نشيطة من أجل القضاء عليه . بل يعتقد أن الملك نفسه ، بعد أن تقدمت به السن ، بدأ يتراجع عن تشدده الدينى ، بينما ظلت الملكة نفرتيتى تتعصب للزندقة الجديدة . وعاد وصى العرش سمنخكارع ، وهو أحد أصهار أخناتون ، إلى الإقامة فى طيبة . وعندما اختفى هذا الرجل ذو النسب المجهول فى نفس الوقت الذى توفى فيه حموه أخناتون ( حوالى ١٣٥٤ ق . م ) ، اعتلى العرش توت عنخ آمون ، وهو أحد أمراء البيت المالك وزوج إحدى بنات الملك الراحل وهى « عنخ — إس — إن با آتون » . وأقام الملك الجديد فى العمارنة ثلاث سنوات ( ١٣٥٤ — ١٣٥٢ ق . م ) وإن لم يفته أن يؤدى فى أثنائها بعض مراسم الولاء لآمون ، إله الكرنك . ولم يلبث أن هجر الملكان « أفق قرص الشمس » ( العمارنة ) إلى مدينة طيبة المجيدة ، وغيرا اسميهما إلى توت عنخ آمون وعنخ — إس — إن — با آمون . وصدر مرسوم يعيد إلى الآلهة ممتلكاتها ، كما أعيدت طقوس الخدمة والقرابين ، وبدئ فى إعادة اسم آمون إلى كل مكان أزاله منه « أخناتون التعس » ( وظلت هذه العملية مستمرة حتى عهد رمسيس الثانى ) .

وإذ ترملت عنخ — إس — إن — با آمون فى ١٣٦٤ ق. م ، لم تتردد فى أن تطلب إلى ملك خاتى أن يرسل إليها ملكا ، وكتبت إليه تقول : « . . وإلا هل ترانى آخذ من أحد رعاياى زوجاً ؟ » وهذه الواقعة ، التى تدل إلى أية عزلة عن الأمة أوصلت نكسة العمارنة البيت المالك ، انتهت باغتيال الطالب بالعرش الآتى من بلاد الحثيين ، وبزواج أحد الرعايا المحتقرين ( الذى لم يكن إلا الجنرال آى ) من الملكة الأرملة ، واعتلائه عرش فرعون — استولى المرتد العجوز على المعبد الجنائزى

الذى كان توت عنخ آمون قد بدأه فى مدينة هابو ، والمقبرة التى كان قد أعدها ، وأبعد سافه إلى قبر صغير قدر له أن يكون القبر الوحيد فى وادى الملوك الذى ظل سليما على حاله إلى أيامنا هذه .

ويقول مرسوم حورمحب إن مصر اجتاحتها الفوضى والاضطراب فى أعقاب أزمة العمارنة ، وإن محصلى الضرائب والجنود ورجال القضاء عمدوا إلى استغلال نفوذهم لفرض الإتاوة والفدية على الناس البسطاء لحسابهم الخاص . وبغض النظر عن المبالغات الدعائية يكفى النظر إلى صرامة العقوبات المنصوص عليها قانوناً فى تلك الأيام لرسم صورة للبلاد وبيان اتساع دائرة الشرور والآلام . إن عزلة أخناتون ، ثم المؤامرات العديدة التى حيكت لكى يعتلى العرش ملك ضعيف ، هو توت عنخ آمون — كل هذا أطلق أيدى الفساد والابتزاز واستغلال النفوذ فى البلاد . وتقدم حورمحب لإعادة النظام ، وكان قد لمع اسمه أخيراً فى آسيا . تقدم تؤيده قواته العسكرية وتباركه كهنة آمون ، ولاشك فى أنه كرس سنوات حكمه (١٣٤٣ — ١٣١٤ ق.م) لمهمة صعبة دقيقة ، هى إعادة الأمور إلى حالها كما كانت فى النظام القديم ، فلم يبن إلا قليلا من المنشآت ، كما نفض يديه من مهمة تسوية النزاع المصرى الحيثى . وإذ كان الرجل لا يعرف التسامح مع الزنادقة والمارقين ، فقد شطب اسم سلفيه من السجلات الملكية ونسب إلى نفسه ملكية معظم ما خلفاه من آثار .

## الرعامسة

عاون حورمحب فى مهمته وزيران من العسكريين من مدينة أواريس ، هما رمسيس وابنه سيتى . ورث رمسيس العرش ( ١٣١٤ — ١٣١٢ ق . م ) عن حورمحب . ولما كان الرجل قد بلغ من السن عتيا ، فقد أشرك معه ابنه سيتى فى إدارة شئون البلاد . وكان سيتى الأول ( ١٣١٢ — ١٢٩٨ ق . م ) مشيداً عظيما

للمبانى كما كان محارباً قوى الشكيمة ( الاتفاقية المصرية الحثية الثانية ) . وعمل سيتى على دعم حكم هذه الأسرة ( التاسعة عشرة ) بإسناد بعض اختصاصاته الملكية ، قبل موته بعدة ، إلى ابنه رمسيس .

وفى النصف الأول من سنوات حكمه ( ١٣٠١ — ١٢٣٥ ق . م ) أحيا رمسيس الثانى أيام تحتمس المجيدة فى جو من الأبهة الباهرة ، إلى حد غطى على ذكرى تحتمس العظيم . ويخلط المؤرخون الإغريق أحياناً بين سيزوستريس وبين رمسيس هذا ، لأنه كان يسمى أحياناً سيزو أوزيس ( من الاسم المصرى القديم سيزو وهو مصغر رمسيس ) . وسوى رمسيس الخلاف القديم بين المصريين والحثيين ، وغطت آثاره النوبة والصعيد ، بل وامتدت إلى الدلتا . ودفعته ضرورات الدفاع عن المملكة ضد هجمات الأعداء الكثيرين القادمين من الشمال ، كما دفعه الحذر من طيبة إلى بناء عاصمته الرائعة على مقربة من أواريس — وأطلق عليها « بى رمسيس » التى أصبحت مقر الفراعنة إلى عهد رمسيس الثالث . وإن رمسيس الثانى ، أعظم الرعامسة ، ليشبه إلى حد كبير لويس الرابع عشر : سنوات حكم طويلة جداً ، ذرية كثيرة العدد يموت كثير منهم قبل أن يوافيه الأجل ، فخامة المبانى والمنشآت ، سياسة خارجية باهرة . وأهم وجه للشبه هو التركة المثقلة التى يخلفها العاهل لابنه الثالث عشر : إمبراطورية متحللة ومملكة أنهكها ملك « شديد الولع بالمنشآت والحروب » . وأهمل رمسيس الثانى فى شيخوخته ما ناله من امتيازات فى ليبيا وفلسطين . أما خلفه مرنبتاح الذى حاول إنقاذ الإمبراطورية فقد قنع بإعادة الأساليب التى كانت متبعة فى أواخر حكم أبيه ، وهى الكتابة على الآثار والمنشآت السابقة أو إعادة استخدامها .

وبعد مرنبتاح بدأت أزمة فى الأسرة المالكة استمرت عدة سنوات ( ١٢٢٤ — ١٢٠٠ ق . م ) ، ومن ثم فإن قائمة تتابع ملوك أسرة الرعامسة الأولى على العرش ،

تحتاج إلى المزيد من الدراسة ، إذ وردت فى هذه الفترة أسماء : أمنموسى ومرنبتاح وسبتاح الذى كان واقعاً تحت نفوذ « باى » ، وكان أشبه بأمين القصر الملكى ، والملكة « تا أوسر » ورمسيس سبتاح . ولم يكن لأحد من هذه السلالة شىء من الشهرة سوى سيتى الثانى . واشتراك العسكريين والأجانب فى إحداث القلاقل السائدة ليس محل شك . وأخيراً ، توصل أحد هؤلاء الأجانب ، هو الفلسطينى أيارسو ، من أن يصبح سيد البلاد الحقيقى ، إلى أن أطاح به أحد أمراء طيبة ، هو ست ناخت ( ١٢٠٠ — ١١٩٨ ق . م ) مؤسس الأسرة العشرين .

وكان رمسيس الثالث ( ١١٩٨ — ١١٦٨ ق . م ) هو ثانى وأعظم هذه السلالة الرعمسية الجديدة ، إذ تمكن من إنقاذ مصر من كثير من الهجمات ومن محاكاة النشاط الإنشائى الضخم لرمسيس الكبير . ومع ذلك فقد ظلت سماء حكمه ملبدة بغيوم الدسائس والمؤامرات التى لم تكن إلا التعبير السياسى عن الفوضى السائدة ، حيث كانت الثورات الاجتماعية فى قلب طيبة نفسها ليست إلا التعبير عما انتشر بين الناس من بؤس .

ولدينا معلومات كافية عن تاريخ حكم الرعامسة ابتداء من رمسيس الرابع إلى رمسيس الحادى عشر ( ١١٦٦ — ١٠٨٥ ق . م ) بفضل مقابر وادى الملوك ، وعدد من النقوش ، وكمية وافرة من البرديات الهامة التى يمكن أن نتابع فيها الخط البيانى الهابط للنظام . وحاول رمسيس الرابع أن يقاوم هذا التحلل ، وعلى الرغم من الفضائح ، فإن النظام لم يضطرب إلا فى عهد رمسيس الثامن القصير العمر . غير أن البؤس الذى استمر يتفاقم ، وظهور القادة العسكريين الطامعين فى السلطة أوصلا حالة التحلل إلى القمة أو إن شئت إلى النهاية .

## الدفاع عن الامبراطورية

حدث ، فى أواخر حكم أخناتون ، أوفى أثناء حكم توت عنخ آمون على الأرجح ،

أن وقعت «الاتفاقية المنظمة التي عقدت في عهد سوبيلوليوما» والتي انكمشت بمقتضاها السيادة المصرية في حدود ما كان يسمى بلاد « خورى » ، أي الأقاليم الواقعة جنوبي مملكتي قادش وعامورو . وفي نفس الوقت كان عازيرو معترفاً به رسمياً كتابع للملك خاتي الكبير وحليف له . وبعد أن قام الجنرال حور محب بتهدئة فلسطين انفجرت الأعمال العسكرية العدوانية الصريحة لأول مرة بين الحثيين والمصريين — الذين أثاروا قبائل عامكي واستولوا على قادش .

في هذه الأثناء كان سوبيلوليوما قد أجلس اثنين من أبنائه على عرشي حلب وقرقميش قبل أن يفرغ تماماً من إخضاع دولة ميتاني . ووصله ذلك الطلب الغريب من الملكة الأرملة عنخ — إس — إن — با آمون في أثناء حصاره لمدينة قرقميش . وبعد تبادل الرسائل والرسل بين الجانبين ، وعلى الرغم من تشكك الحثيين ، رحل الأمير زانانزا متجها إلى النيل ، ولكنه قتل قبل أن يصل ، فأنفذ والده على الفور جيشاً عبر فلسطين . ولكن قدر لهذه « الحرب التي لا تغتفر » أن تستمر مدة طويلة . فالفراعنة من جانب ، يعانون من آثار نكسة العمارنة — والملوك العظام ، من جانب آخر ، مشغولون بمشكلات آسيا الصغرى . وكانت مصر أحياناً تنتقل إلى الهجوم ، فنجد مثلاً ذكر منشأة للأسرى الحثيين في أثناء حكم آي ، كما نعرف عن عمليات عسكرية عند قادش ونوخاسا في أثناء حكم حور محب . غير أن أيا من الجانبين لم يتمكن من متابعة المعارك بثبات .

في ظل التحامسة ، وقبل المخاطر التي حاقت بالإمبراطورية والتي لم يعرف أخناتون كيف يتوقاها ، كانت السياسة الخارجية لمصر قائمة على الغزو والفتح ، ولكنها أصبحت في ظل الرعامسة سياسة دفاعية في جوهرها . لقد أصبحت دولة خاتي ، سيدة السهل السوري وحليفة العاموريين ، في وضع يمكنها من إثارة الاضطرابات في بلاد خوري ، بل ويمكنها من اكتساحها . وفي نفس الوقت ظهرت شعوب أخرى تهدد أراضي مصر نفسها . ففي أواخر القرن الخامس عشر

قبل الميلاد ظهرت جماعات جديدة من الرعاة هم أبناء عمومة التمحو ، ومن جنس أبيض مثلهم ، واستقروا فى مناطق متاخمة لغرب الدلتا . ومنذ عهد أمنحتب الثالث بدأ الماشواش مع غيرهم من القبائل ، إثارة المتاعب على الحدود الغربية . وعلى الرغم من أنهم كانوا تحت نفوذ فرعون ، على نحو ما، فإنهم أصبحوا أكثر عدوانية بمرور الزمن وحوالى ١٣٠٠ ق . م تكون تحالفان قويان تحت قيادة ملوك الماشواش والليبو ( الذين سميت ليبيا نسبة إليهم ) متأهبان للتقدم صوب الأراضى الخصبة التى تحف بغربى النيل . ومن ناحية أخرى كانت جماعات من القرصان الشروانيين قد ظهرت فى بحر سوريا منذ ١٤٠٠ ق . م وأخذت تنظر بعين الطمع نحو شواطىء النيل . ومن ثم كان الرعامسة العظام ( سيتى الأول ورمسيس الثانى ومرنبتاح ورمسيس الثالث ) دائمى الاهتمام بالاحتفاظ ببلاد خورى والدفاع عن أقطار الشمال .

وليرد على هجمات القراصنة ، بنى رمسيس الثانى أسطولاً من « السفن المحاربة » ، وهكذا « تمكن سكان الدلتا أخيراً من أن يناموا مطمئنين » . وإذ يتزايد عدد الأسرى من الشردان ، يشرع رمسيس فى ضمهم إلى الحرس الملكى ، ثم يكون منهم وحدات احتياطية أبلت بلاء عظيماً فى حملاته الآسيوية .

وعند اعتلاء سيتى العرش خرج بعض الأمراء الفلسطينيين عن ولائهم لمصر ، بل إن قبائل شاسو لم تعد تذعن «لقانون فرعون» ، فقام سيتى بعملية منظمة لإعادة فتح بلاد خورى . بدأ بإخضاع البدو ، ثم استولى على الساحل ، وشتت الائتلاف الذى كونه ملكا حماة والجليل ضد أحد أتباعه المخلصين ( ١٣١٢ ق . م ) ، وقمع الغزوات التى قامت بها قبائل العابيرو عبر الأردن ، ووصل سيتى بقواته حتى سفح جبل حوران ، ثم اشتبك مع قوات الحثيين ( الاستيلاء على قادش واكتساح العابيرو ) . غير أن الانتصارات التى أحرزها ضد الحثيين لم تدم طويلاً . لقد اتخذ قرار — من هـــذا الجانب أو ذاك — ببدء المفاوضات ، وتم إبرام « الاتفاقية

المنظمة التي كانت في عهد مورواتالي » . وقام رمسيس ، وهو ما يزال مساهماً في إدارة شئون الحكم مع سيتي ، بحملات انتقامية على المدن الثائرة مكنت الملك سيتي من وضع يده على بلاد خوري . هكذا كان الجو الذي يحيط باستهلال عهد رمسيس جواً ينبىء بالتفاؤل والنجاح : كان سفراء خاتي وبابل وقبرص يحيون مقدمه ، ونظمت مقابلة بينه وبين الملك العظيم وتابعه في كوري . ومع ذلك فقد ظل القضاء على خطر العاموريين أملاً يداعب خيال ملك في مثل طموح رمسيس . ومن المعروف أنه في حوالي ١٣٠٠ ق . م ، قام مورواتالي بإقصاء بنتسينا العموري لأنه لم يذعن لسيادة خاتي ، وكان يعمل لحساب المصريين . ومن غير الممكن معرفة انقلاب هذا الأمير على مصر ، أكان نتيجة لهجوم سيتي الأول أم كان سبباً في نشوب النزاع الحثي المصري الثاني ، وإن كان من الثابت أن الحرب أعلنت في العام الخامس من حكم رمسيس . وسار مورواتالي على رأس جيش هائل جمعه من حلفائه في سوريا والأناضول ، وفاجأ ، عند قادش ، طليعة القوات المصرية التي يقودها الفرعون شخصياً . ونجا رمسيس بفضل المقاومة العنيفة التي أبداها الشاردان وضباط الحرس ، ثم نسب كل أمجاد المعركة إلى شخصه في « البلاغ اليومي » وفي « نشيد قادش » .

لم تكن معركة قادش سوى نجاح جزئي ، ولم يلبث الحثيون ، بعد هزيمة قصيرة ، أن اكتسحوا نهر العاصي . واندلعت الثورة في الحال في فلسطين ، فقام رمسيس الثاني في ١٢٩٢ ق . م بإنزال العقاب بجميع المدن التي تمردت على سلطانه، من عسقلان إلى الكرمل .

وحوالي ١٢٨٨ ق . م قام نزاع بين الملك العظيم أوري تشوب وعمه خاتوسيل، فخلا بذلك الجو أمام رمسيس ، فقام بحصار العامورو ونهر العاصي الأوسط ، وسحق القوات العسكرية الحثية والعامورية والميتانية ، تعاونه إمدادات من ملوك

الأناضول المعادين لخاتوسيل . بل إن الملك الحثى إينى تشوب ، ملك قرقميش ، كان من بين حلفائه . وبعد أن انفرد خاتوسيل بالسيادة فى دولة خاتى (١٢٨٠ ق . م) أصبحت الحرب عبئاً على الجانبين ، إذ بدأت أشور تضيق الخناق على الحثيين ، بينما تزايد الخطر على مصر من جانب ليبيا ، فعقدت بين الجانبين معاهدة وصلنا منها ترجمتان ، إحداهما بالأكادية والأخرى بالهيروغليفية ، على الأسس الإقليمية التى أقرت فى الاتفاقيات السابقة ( الحدود بين العاصى والعامكى ) . وتتضمن المعاهدة اتفاقية عدم اعتداء تنص بنودها على أن يقدم كل من الطرفين إلى الآخر معلومات لقمع الأتباع المتمردين أو الجنود الفارين أوضد أى طرف ثالث يبادر بالعدوان على أيهما . وهكذا انتهت حربان طويلتان من ١٣٤٧ إلى حوالى ١٣٠٠ ق . م ، من ١٢٩٤ إلى ١٢٧٨ ق . م ، نهاية لم يكسب فيها أى من الجانبين . ثم توطدت أواصر المحور المصرى الحثى ، الذى مكن رمسيس من استغلال بلاد خورى وهو مطمئن البال — بزيجتين ملكيتين زف فيهما رمسيس إلى اثنتين من بنات الملك خاتوسيل .

كان سيتى الأول قد أجبر على إيقاف عملياته العسكرية فى آسيا لمحاربة الليبيين . كذلك أدرك رمسيس ، الذى كانت له جولاته معهم فى أثناء مساهمته مع سيتى فى إدارة شئون الحكم ، أدرك ضرورة كبح جماح هؤلاء الرحل المحبين للقتال .

لم يكتف رمسيس بإنفاذ الحملات التأديبية والاستيلاء على الأغنام والأسرى الذين رفعوا تعداد جيوشه ، وإنما بنى المدن الحصينة على طول الساحل وعند العلمين ومرسى مطروح ، وفرض على قبائل الليبو والجاشواش دفع الجزية وإرسال السفراء . وقد أثبت هذا النظام كفايته سنوات عديدة . غير أن فترة الراحة الطويلة التى منحها رمسيس لنفسه فى نهاية حكمه أعطت قبائل الليبو فرصة إخضاع الماشواش والحصول على تأييد بعض قراصنة البحر الأبيض المتوسط وتدمير القلاع والحصون والاندفاع بقواتهم صوب الواحات الشمالية .

وفى العام الرابع من حكم مرنبتاح ( ١٢٣٠ ق . م ) أصبح ملك الليبو على أهبة الاستعداد لاكتساح الدلتا لولا أن سحق الجيش المصرى قواته فى معركة رهيبة . وفى أثناء التهديد الليبى لمنف وجدت الشعوب المحكومة فرصتها . وأصبح من الضرورى بعد الانتهاء من الحملة الليبية ، إغراق ثورة شاملة لبلاد الواوات فى بحر من الدماء ، كما أعيد فتح بلاد خورى كلها من جديد .

وبهذه المناسبة نود أن نعرض النظرية التالية ، وهى نظرية لا تزال معروضة للجدال والمناقشة : إن إحدى القبائل السامية الصغيرة ، التى تحيا حياة البدو الرحل بالقرب من وادى طوميلات ، والخاضعة لنفوذ الحكومة المصرية ، انتهزت فرصة الزحف الليبى لكى تهرب إلى صحراء سينا ، وهى بذلك تكون المقصودة فى النص الوارد على لوحة مرنبتاح : لقد دمرت إسرائيل وقضى على هذا الجنس نهائياً !!

وعلى كل حال فقد ظلت فلسطين خاضعة للنفوذ المصرى فى عهد سيتى الثانى ، حيث كان أحد كبار رجال الدولة يحمل لقب « المبعوث الملكى إلى بلاد خورى ، من نهر العاصى إلى سيلا » ، ومن ثم استمر اقتسام الجزء الآسيوى من حوض البحر المتوسط بين مصر وخاتى ، كما ظل مرنبتاح يزود حليفه من أسرة خاتوساس بإمدادات من القمح .

غير أن قوة الحثيين بدأت فى الانهيار السريع تحت ضربات الأشوريين ، بينما مكنت الفوضى السائدة على ضفاف النيل الليبيين من معاودة الهجوم . وفى عهد ست ناخت تدفقت قبائلهم واحتلت التحصينات الغربية لحدود مصر ، ووصلت غاراتهم إلى سيوة . وأعادهم رمسيس الثالث إلى خارج الحدود ( قبيل ١١٩٣ ق . م ) ثم شنت الائتلاف الجديد الذى كان جمعه وحركه ( ١١٩٤ ق . م ) لكى ينصب على الليبيين ملكا من اختياره . وبعد ذلك جاء دور الماشواش الذين وطدوا

لنفوذهم ومدوه على بقية القبائل ليحاولوا اقتحام الدلتا . ولكن هجوماً مضاداً ساحقاً ، مستنداً إلى القلاع والمراكز الحصينة ، شتت قواتهم تشتيتاً تاماً .

وكان على رمسيس الثالث ، فيما بين حملاته الليبية أن يواجه ضربات جماعات من المهاجمين الخطرين من ناحية آسيا .

ففى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد طاردت موجات الدوريين جماعات من شعوب بحرية من جزيرة كريت وجزر بحر إيجه — فلسطينين وجاكار ودانيين شيكليش وأوشيش ، اجتازت بعضها شبه جزيرة الأناضول وانحدرت إلى سوريا مدمرة فى سبيلها ممالك خاتى وقرقيش وعامورو ، كما جاء البعض الآخر عن طريق البحر واحتلت صقلية وقبرص . وحوالى ١١٩٥ ق . م كانت شعوب البحر هذه متأهبة للتدفق عبر بلاد خورى التى كان رمسيس قد فرغ من إعادة فتحها منذ مــــدة وجيزة ، كما كانت أساطيل القرصان الضخمة تستعد لاقتحام الدلتا . ومنذ عام ١١٩٤ ق . م ، وفى العمليات العسكرية الكبرى التى قام بها رمسيس الثالث فى العام الثامن من حكمه (١١٩١ ق . م) واجه الفرعون هذا التهديد المزدوج باستراتيجية عســـكرية مزدوجة . ابتنى رمسيس حوائط عائمة عند مصاب النيل مستخدماً سفن النقل ، ثم قامت الوحدات المقاتلة التى ( شكلت فى أثناء حكم الأسرة التاسعة عشرة ) بحصار القراصنة وإغراقهم — بينما قام الجيش البرى بمهاجمة قوافل المهاجرين فى فلسطين . وإذ كان رمسيس الثالث يتوق إلى جعل أمجاده لا تقل عن أمجاد سميه الشهير ، فقد انتهز فرصة الفوضى التى خلفها مرور شعوب البحر لإخضاع قادش وعامورو . بل إنه ادعى أن جيوشه وصلت إلى أرزاوا .

وكل هذه الانتصارات التى خلدتها النصوص الملحمية والنقوش الرائعة فى معبد مدينة هابو لم تؤخر انهيار الإمبراطورية إلا قليلاً . ظلت خورى تابعة لمصر عدة سنوات ( آثار رمسيس الرابع فى مجدو وسينا ) ولكن الفراعنة لم يتمكنوا من منع

الفلسطينيين ، الذين تسمت البلاد باسمهم منذ ذلك الوقت ، من احتلال المدن الساحلية لأرض كنعان ، وإن ظلت المستعمرات الإفريقية تستغل حتى آخر الرعامسة ( وضع اسم رمسيس التاسع على آثار فى نباتا والواحات الداخلة ، واسم رمسيس الحادى عشر فى النوبة السفلى ) إلا أن العلاقات بالمستعمرات الآسيوية أضحت شديدة الضعف (قطعة من آثار رمسيس التاسع فى جاذر) . وعندما ذهب أونامون ، مبعوث كهنة آمون ليجرى مفاوضات شراء خشب لبنانى فى عهد رمسيس الحادى عشر ، سرقه ملاح فى مركب فينيقى كان قد استعاره ، كما أقض القراصنة الفلسطينيون مضجعه ، ولم يتم مهمته إلا بعد مساومات مهينة مع ملك جبيل .

نجح رمسيس الثالث فى درء خطر المشواش على الحدود الغربية نهائيا . غير أن استجلاب أعداد وفيرة من هؤلاء إلى الأراضى المصرية جدد خطرهم فى صورة أخرى . ذلك أنه عندما انغمست مصر فى منازعاتها الداخلية التى استمرت حتى القرن الثامن قبل الميلاد ، عاود الليبو ، الذين كانوا سادة أراضى شمال أفريقيا فى ذلك الحين ، عاودوا التوسع — سواء فى اتجاه الواحات ، ومنها إلى الهجوم على طيبة وتدميرها فى عهد رمسيس الحادى عشر ، أو فى اتجاه فرع رشيد حيث كان ملوكهم هم أصحاب السيادة فى عصر الأسرة الثالثة والعشرين .

وأخيراً ، فإن بعض حركات شعوب إفريقية ضيعت المستعمرات المصرية فى السودان . وتنبئنا الآثار بظهور حضارة ذات أصل صحارى فى النوبة الوسطى فى أعقاب الأسرة العشرين . وتلك هى الفترة التى يجىء فيها ذكر قبائل البليميس الشهيرة ، تلك القبائل الرحل المحبة للقتال والسلب ، والتى بدأت باحتلال سهل دنقلة ، وتوسعت لتغطى كل أراضى النوبة السفلى فى عصر الإمبراطورية الرومانية .

# التطورات الداخلية فى مصر
# فى أثناء حكم الرعامسة

كانت سياسة الرعامسة الأوائل ترمى إلى الحيلولة دون طغيان نفوذ كهنة طيبة بعد الأزمة التى خرجوا منها منتصرين . ومن ثم لم يكن الإله آمون بين رع حاراختى ، إله هليوبوليس ، وبتاح — إله منف ، لم يكن سوى « الأول بين أقرانه » . وأضافت الأسرة التاسعة عشرة ست ، إلهها الخاص ، إلى ذلك الثالوث الأعظم . ولم يكتف رمسيس الثانى بتجنب الإساءة إلى هليوبوليس ، للشبهات التى أحاطت بها فى فتنة الانشقاق الدينى ، وإنما كان يمجد صراحة عبادات هذه المدينة وطقوسها ، وكانت غالبية المنشآت الكثيرة التى أقامها مكرسة لرع أو لآتوم ( پى — رمسيس ، پى ـ أتوم .. إلخ ) ، وبعضها مكرس لبتاح ، وأقلها لآمون . وبينما انتزع منصب كبير كهنة طيبة من رجال الدين المحليين رفع مكانة العبادتين الأخريين بوضع اثنين من أبنائه على رأسيهما . ولو استمر الرعامسة فى اتباع هذه السياسة ، لتمكنوا من موازنة النفوذ الدنيوى لآمون بنفوذ الإلهين رع وبتاح ، ولكن الفرعون الطيبى رمسيس الثالث نبذ تلك السياسة ، وقدم خيرة قرابينه لإله الكرنك ( بردية هاريس ) .

أما الجيش ، فكان قد ركن إلى الخمول فى أثناء حكم أمنحتب الثالث ، وفقد مكانته كقوة مقاتلة ، وبدأ قادته يتدخلون فى شئون الحكم . ومن أجل تقوية الدفاع عن الإمبراطورية ، وزيادة القوات التى تدين للفرعون بالولاء ، عمد رمسيس الثانى إلى إلحاق أسرى الشردان بالقوات المسلحة ، ثم جند غيرهم من أسرى الحرب . وكان « ينقل أبناء النوبة إلى أقطار الشمال ، والآسيويين إلى النوبة . . . والشاسو إلى أقطار الغرب ، والليبيين إلى الكثبان الرملية » . وإذ جرى توزيع الأجانب

على هذا النحو المناسب ، وتم توطينهم فى القلاع والمراكز الحصينة ، ومنحهم قطعاً صغيرة من الأرض — فإنهم سرعان ما تبنوا العادات والتقاليد المحلية . كما أن العبادات السامية لبعل وحورون وريشيب ، وعنات وعشتروت ، والتى كانت قد عرفت فى أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة ، أصبحت تتمتع بمكانة لم يسبق لها مثيل ، فى البلاط وبين العمال على السواء . وترقى بعض الأجانب إلى أن وصلوا إلى منصب « ساقى الملك » وأصبحوا فى ياورانه . وإذا تربوا فى السراى فقد تمكنوا من معرفة خباياها . وهكذا حين بدأ انحلال الأسرة التاسعة عشرة كان الموظفون ورجال الجيش الأجانب يشكلون قوة جديدة فى الدولة . ونسى رمسيس الثالث عملية إيارسو لاغتصاب العرش ، وترسم خطا رمسيس الثانى ، وأنزل أبناء شعوب البحر على شواطئ بحر يوسف ، كما عبر الماشواش فرعى النيل ليحتلوا شرقى الدلتا ، حيث « نسوا لغة بلادهم الأصلية » .

ولدينا فكرة واضحة عن توزيع الملكية العقارية ، والهيكل الاجتماعى ، ونظام الضريبة الزراعية فى مصر الرعمسية ، بفضل البرديات الكثيرة المتعلقة بالضريبة على الحبوب ، وبخاصة بردية ويلبور ، حيث يوجد سجل مساحى للأراضى الزراعية فى مصر الوسطى ، صادر فى عهد الملك رمسيس السادس ، فيه بيان بالضريبة المفروضة على كل قطعة أرض. كان ثمة نوعان من الأراضى: ضياع واسعة (مينيه، خاتو) تابعة للملك مباشرة أو لإحدى إداراته ( الحريم — الموانى ) ، وقطع أصغر من الأرض ولكنها تشكل فى مجموعها مساحات شاسعة ، وهى تابعة لمعابد طيبة وهليوبوليس ومنف وغيرها . وإذا كانت مساحة العقار تتجاوز الأرورا ( الأرورا حوالى ٢٧٠٠ م ) فإن المتمتع كانت تفرض عليه ضريبة من ٥ إلى ١٠ أكياس من الحبوب ( ٧٢ قدحا ) عن كل أرورا . ولسوء الحظ لايوجد بين يدينا ما يبين ، إذا كانت حصيلة هذه الضريبة توزع بين المعابد والخزانة الملكية بحسب نوع الأراضى ،

تذهب كلها إلى الخزانة الملكية وإن كان يمكن أن نستنتج أن الفرعون كان باستطاعته أن يطلب من الكهنة جزءاً من الضريبة التى يدفعها الحائزون على أراض تابعة للمعابد .

ويروى كتاب الأساطير أن سيزوأوزيس ( رمسيس الثانى ) قد اتخذ إجراءات اقتصادية هامة . وينسب إليه ديودور تقسيم مصر إلى مقاطعات ( نوم ) . والواقع أن كلمة ( توش ) لم تظهر إلا فى الأسرة التاسعة عشرة ، وهى الكلمة التى حلت محل كلمة ( قاحت ) والتى عرفت باسم « نوموى » فى الفترة الإغريقية . ويذهب المؤرخ الإغريقى كذلك إلى أن رمسيس قسم رعاياه إلى طوائف وراثية ومغلقة . وهذا الافتراض — لو صح — يفسر الاضطراب الذى ساد المجتمع الفرعونى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . فكما يثبت تاريخ الدولة الرومانية الشرقية لا تستطيع عمليات ترقيع مصطنعة للبناء الاجتماعى أن تواجه النتائج المترتبة على تدهور عام فى تعداد السكان ( على الرغم من كثرة عدد المستوطنين الأجانب ) وضرائب ضخمة ينوء تحتها الدخل الحقيقى للبلاد . ويبدو أن حق الوراثة الطائفى ، فى أثناء حكم الرعامسة ، كان امتيازاً لرجال الحرب وكهنة آمون ، كما كان كذلك بالنسبة « لخدم دار الحقيقة » . وكان هذا هو الاسم الذى أطلق على العمال الذين يحلفون اليمين المقدسة ، ويقومون بحفر المقابر الملكية فى طيبة وزخرفتها . وقد خلف هؤلاء آثاراً كثيرة ومتنوعة فى دير المدينة ، حيث كانت قريتهم ، إذ عثر على كثير من المنازل والمقابر والأثاث وتماثيل النذور ، والبردى واللخاف (الأوستراكا) وقد مكنتنا هذه الآثار من النفاذ إلى تفاصيل نشاطهم وحياتهم اليومية فى عهد الرعامسة . كانوا منظمين فى فريقين للعمل يشتغلان بالتناوب فى وادى الملوك ، ويتقاضون أجورهم العينية من المواد الغذائية ، ويحوزون بعض الممتلكات . وإذ كانت الطبقات الشعبية فى ذلك العصر تتمثل فى العمال المتخصصين للعمل فى الحقول والمحاجر ، وتحيا حياة متواضعة — فقد صنعت لنفسها مقابر ذات ألوان جميلة ، وابتنت

مقصورات رشيقة هرمية الشكل . وكان كتبتهم يقرأون ويقتبسون من أعمال المؤلفين القدامى ومن الكتابات الحديثة . ولأن عمال طيبة كانوا أكثر تطوراً ، فقد قاوموا البؤس بعزيمة وأسلوب وتميز ، إذ لجأوا إلى سلاح الإضراب .

وانتهت مظاهر العظمة التي سادت في عهد رمسيس الثاني إلى أن تركت خزينة البلاد خاوية وثروات الأفراد مستنزفة . وبعد وفاته بفترة وجيزة جداً بدأت أزمة مزمنة في الأسرة في المالكة ، بينت كم كانت أعماله لا تستند إلى أساس راسخ . ثم أخذت الموارد المالية في التناقص تحت حكم آخر الرعامسة دون توقف ، إذ كان جزء كبير من الأراضي المزروعة تمتلكها الآلهة ، كما أصبحت جباية الجزية من الخارج عملية تزداد صعوبة . ولم تكن الدولة قادرة على إثراء موظفيها كما كانت الحال أيام التحامسة ، وإن وقعت تحت وهم أنها تستطيع أن تحيا في مستوى الرفاهية السالف ، ومن ثم وجد هؤلاء الموظفون ما يغريهم على العمل لحسابهم الشخصي ، كان أكثرهم طموحاً يعرف كيف ينتزع ، بوضع اليد ، بعض ممتلكات آمون — التي كانت قد اتسعت في عهد رمسيس الثالث . كما أن فرق الجند المرتزقة ، وهي القلعة المحبة للقتال ، كانت دائماً على استعداد لأن تشن الغارات وتكون أداة للشغب والتمرد . هذا ، بينما فعلت المؤامرات السياسية فعلها في تخريب الخدمات العامة ، فتدهورت المحاصيل الزراعية ، وكثرت المجاعات ، وانساق صغار القوم وراء كبارهم في أعمال السلب والنهب .

وقد وصل الفساد الإداري في عهد سيتي الثاني إلى درجة أن أحد رؤساء فرق العمل دير المدينة ، وهو أفاق متبجح اسمه بانيب ، كان يقوم بأعمال السرقة والاغتصاب والقتل وإرهاب القرية تحت أنف السلطات دون رادع أو عقاب . ولم يكن رمسيس الثالث يشبه رمسيس الثاني إلا في الظاهر . فقد تمرد أحد وزرائه في أتريب ، ثم دبرت فيما بعد ، مؤامرة خطيرة تشعبت فروعها من الحريم الملكي إلى بلاد النوبة ، وكلفت الفرعون حياته . وتشهد الأحداث التالية بما وصل إليه كبار

المسئولين من فساد وانحلال ، حيث تمكن عـــدد من المتهمين من جر ثلاثة من قضاتهم ( من بينهم قاض ليبي كان ساقيا للملك ) إلى بؤرة من الفضائح والجريمة ، وفي هذه الأيام تقريباً « عجز نفس الملك ، رمسيس الثالث ، الذى كان يجبر رعاياه على تقديم عشرة آلاف كيس من القمح سنوياً إلى معابد طيبة وحدها ، عجز عن إمداد عمال مدينة القبور بخمسين كيساً ، هي جرايتهم فى شهر ، والحد الأدنى الذى يدرأ عنهم غائلة الموت وهم يتضورون جوعاً » ، فتوقف عمال دير المدينة عن العمل ، وعسكروا أمام ديوان الخزانة . وانفجرت الفضائح أيام رمسيس الخامس فى إليفنتين ، حيث برر الحراس سرقة القمح من المعبد بحالة الفقر التى وصلوا إليها . ثم ، كيف يدينهم الـكهنة وهم يسرقون مثلهم ، « ويتستر » بعضهم على بعض مقابل « إناء من النبيذ » ، دون أن تقلق ضميرهم قذارة أفعالهم ؟ . ومع شناعة الجرم ، فقد وصل المتهمان الأولان فى هذه السرقات إلى أرقى المناصب فى عهد رمسيس السادس .

وصلت أسعار الحبوب إلى مستوى باهظ . وأفلتت البلاد الآسيوية من قبضة الفرعون ، وظهر الليبيون فى طيبة ، وأخذ المعاونون الأجانب ينشرون الرعب فى البلاد . وفقد الناس إيمانهم بمعبوداتهم .وبدأت بعض العصابات فى طيبة تفتح مقابر الملوك القدامى سراً للحصول على الذهب . بدأ الوزير تحقيقاً فى البلاغات المقدمة من بازير ، حاكم مدينة الأحياء (على الضفة الشرقية)..والعدو الألد لبورو ، حاكم مدينة الموتى ( على الضفة الغربية ) . ثم تبين أن اعترافات بعض المتهمين ، التى انتزعت بوسائل التعذيب ، كانت اعترافات خاطئة . فقام الشاطئ الغربى بمظاهرات صاخبة ، بتحريض من النبلاء . وأعلن بازير على الملأ ، بعد أن وقع فى الخديعة ، عن نزاهة زملائه . ورغبة فى عدم مساس التحقيق بالقصر ، عمد بورو إلى اتهامه لدى الوزير الذى أنهى التحقيق بتبرئة عامة للجميع .

وحوالى ١١٠٠ ق . م أصبحت وحدة البلاد ومصير الأسرة المالـكة — كلاهما

فى خطر . ففى الدلتـــا وقعت أحداث غامضة ، ولـكن من المؤكد أنها كانت مؤسفة ، نقصد بذلك ثورة العبيد ( الحرب ضد الأنجاس ) ، وأعمال التخريب التى قام بها الماشواش وانتهت إلى أن تحولت پى رمسيس إلى مدينة مهجورة . وفى طيبة : خرج رمسيس الحادى عشر من ركوده ليعزل أمنحتب ، كبير الـكهنة ، الذى تجاوز حدود سلطاته . كذلك ، فإن بانحس ، أمير كوش ، الذى أصبح يحتل مركزاً شبيها بمنصب أمين القصر الملـكى ، قام بصد هجوم قوات معادية فى مصر الوسطى ، ودمر مدينة سينوپوليس .

غير أن العام التاسع عشر من حكم رمسيس الحادى عشر يشهد فاتحة ميلاد جديد بوصول القائد العسكرى حريحور إلى منصب كبير كهنة آمون ، وربما بوصوله فى نفس الوقت إلى منصب ولى العهد . ولا شك فى أن استيلاء هذا الرجل على السلطة الدنيوية للإله الأكبر قد لاقى بعض المعارضة . فبينما كان ما يزال متنبئاً أول أزال عدو مجهول اسمه من فوق آثار مدينة أبيدوس . ويبدو أن حريحور نجح فى تجميع قوات الماشواش ، الذين كانوا يكونون حامية طيبة ، من حوله ، ونجح فى تخطى جميع العقبات التى صادفته . والملاحظ أن كثيراً من أبنائه يحملون أسماء ليبية ( ماسا حارتى ، ماساكا حارتى ، . . ) . وتضع رسوم القرابين فى معبد خوفو الـكاهن حريحور فى نفس مرتبة الملك ، ثم لاتذكر النقوش التى سجلت فيما بعد اسم الملك رمسيس الحادى عشر إلا بشـكل مقتضب ، وبعد ذلك لا يأتى ذكر أحد غير الـكاهن الأكبر . وأخيراً يأتى احتفال التتويج حيث يحيط حريحور اسمه بالخرطوش الملـكى : وهكذا تنتهى آلام الأسرة العشرين ، وإن ظلت آلام مصر باقية .

ويبدو أن المراسلات بين طيبة والحيبة تثبت أن حريحور وولده پيعنخى ، أمير كوش ، قد تمـكنا تقريباً من إعادة الهدوء والسكينة إلى الجنوب ( وإن كانت إحدى الرسائل تشير إلى اغتيال اثنين من رجال الدرك اغتيالا سياسياً لأنهما استوليا خلسة على بعض أسرار الدولة ) ، ولـكن المملـكة كانت قد تمزقت أوصالها . فعلى

شاطئ بحيرة المنزلة ، وفى تانيس ( صان الحجر ) ، وهى المدينة التابعة لطيبة بطريقة مبهمة ، ظهرت شخصية مشابهة لحريحور ، هو سمنديس ، الذى صعد فى الدلتا إلى مركز شبيه بحريحور ، وبأسلوب مماثل ، وظل الاثنان على علاقات ودية . وحوالى ١٠٨٥ ق . م وضع كل من الشريكين التاج على رأسه .

# الفنون والآداب

## فى الدولة الحديثة

إن الوفرة غير العادية للوثائق التى تبقت لنا من إمبراطورية طيبة الثانية تجعل من هذه الحقبة مجالا خصباً لدراسات مؤرخى الفن ، وتمكننا من متابعة تطور الأسلوب والطراز الفنى لمصر الفرعونية فى أزهى عصورها ، وهو تطور يسير فى توافق مع فترات الازدهار أو الكساد الاقتصادى للمملكة فى الداخل والخارج .

ومعبد الكرنك الهائل هو أعظم آثار الدولة الحديثة أثراً فى تذكير الإنسان بقدرة ملوك طيبة وجبروتهم وسيادة الإله آمون وهيمنته . بدأ ملوك التحامسة ببناء سلسلة من أبهاء الأعمدة والبوابات المتقاربة حول نواة صغيرة من المبانى التى ترجع إلى الدولة الوسطى . ثم قام هؤلاء ومن تبعهم من ملوك بإجراء تعديلات فى هذه النواة باستمرار ، فكانوا يعيدون بناء بعض عناصرها أو يرممونها حيث هى ، بحيث تتلاءم وأهمية التقديس الذى كان يود كل ملك أن يقدمه إلى الإله آمون ، محافظين فى ذات الوقت على بعض أجزاء من المبانى السابقة لأسباب لا تبدو واضحة دائماً . بينما ابتنى ملوك مختلفون فى الأسرة الثامنة عشرة على الطريق الموصل إلى معبد موت ومعبد الأقصر — أفنية متتابعة ، كبيرة ومكشوفة ، تفصلها عن بعضها البعض صروح عالية . وأخيراً ، تشكل سلسلة من المنشآت التى بنيت كيفما اتفق على جناحى المعبد الحقيقى والممر الجنوبى . وبعض تلك المبانى ضخم هائل مثل صالة الاحتفالات الشرقية للفرعون تحتمس الثالث ، أو بهو الأعمدة الجبار الذى بنى فى أثناء حكم الأسرة التاسعة عشرة ، وبعضها الآخر أكثر تواضعاً مثل معبد

أمنحتب الثانى وللسلة الوحيدة ومعبدى رمسيس الثالث وسيتى الثانى . وليست المجموعة الفريدة من المنشآت المتشابكة فى الكرنك هى « النموذج العام للمعبد » الذى أورثته الدولة الحديثة لمهندسى المراحل التالية ، وإنما كان المعبد فى أسلوبه العام يتشكل من : فناء مكشوف على جانبيه صفان من الأعمدة ، ويتقدمه مدخل بين صرحين ، وبهو أعمدة ، وهيكل للعبادة أو أكثر . وكل من هذه العناصر يقل مع الزمن حجمه ويتناقص ضوءه .

هذا هو التصميم العام الذى يوجد منه نماذج مختلفة فى الأقصر ( معابد أمنحتب الثالث ورمسيس الثانى ) ، ومعابد طيبة الجنائزية على الشاطئ الغربى ، ومعبد « قصر المليون سنة» الذى شيده كل من سيتى الأولى ورمسيس الثانى فى أبيدوس ، وفى المعابد المنقورة فى الصخر التى أقامها رمسيس الثانى بلاد النوبة ، أما الجناح الجنوبى للكرنك فكان من طراز معابد هليوبوليس الذى تجرى فيه جميع العبادات تقريباً فى الهواء الطلق ، ومن هذا الطراز أيضاً كانت معابد العمارنة ومعابد الرعامسة فى الدلتا ( منف وتانيس ) .

وفى جميع هذه المنشآت استخدم المهندسون تشكيلة واسعة من الدعامات : تيجان أعمدة ذات زخارف مزدوجة ، أو على هيئة البردى ، أو من طراز منفرد ، أو ذى أضلاع متعددة ، أو عمود مربع عادى ، وأحيانا ينتهى فى أعلاه بزخرف أو بشكل أوزيرى . وجدران المعابد والحوائط التى تفصل بينها مغطاة تماما بالنقوش ورسوم العبادات وكتابات المديح والتأبين ، والملاحم والحملات التى يقوم بها الفرعون فى الخارج ، وأمام البوابات ومدخل الهياكل ، فى الأفنية والممرات ، تقوم المسلات والتماثيل الكثيرة ، وبعضها ذو أحجام ضخمة .

وكان أمنحتب الثالث ورمسيس الثانى ولوعين بمظاهر العظمة ، فكثرت فى

آثارهما الأبنية والتماثيل الهائلة الحجم التى كان الشعب يقف أمامها مدهوشاً ويعبدها كما يعبد الآلهـة .

ومما لاشك فيه أن فخامة القصور الملـكية (مدينة هابو ، العمارنة) كانت دون الفخامة التى تفيض بها بيوت الآلهة الخالدين . كذلك فإن اتساع هذه الأبنية ، التى لم يبق منها إلا القليل من أطلالها ، كانت تتناسب وعظمة الإله الأرضى ، هو وبلاطه. فعلى الأرض الرخامية ، كان الفنانون المبدعون يرسمون صوراً رائعة للنباتات النضرة وآلاف من الحيوان والطير الذى كان يعيش فى البرك والبحيرات . وكانت الطنف المزخرفة تزين بعض منازل دير المدينة (وفيلات) علية القوم فى العمارنة ، وهى مساكن لطيفة حسنة التهوية تحيطها حدائق صغيرة . غير أن زيادة اهتمام المصريين بالمسكن الأبدى عن المسكن الدنيوى لهو أمر يضرب به المثل ، فلا عجب أن كانت مقابر طيبة تضاهى المعابد المعاصرة جمالاً وفخامة . وفى وادى الملوك حفرت مقابر الفراعنة تحت الأرض فى ممرات طويلة ، وصحون وأبهاء وآبار ، ونقشت عناظر غريبة، هى رسوم لمجموعات جنائزية تخص الملوك ؛ فثمة فصول عديدة « كتاب الأبواب ، والمغارات ، والأعماق والليل والنهار » تصور وتشرح الأساليب المختلفة للرحلات التى سيقوم بها الملك على مركب الشمس عبر العالم الآخر الذى يعج بالـكائنات الغريبة: حيات تنفث اللهب ، وجيوش مسلحة بالسيوف القاطعة . وجزء كبير من هـــذه الصور مستمد من الفـكرة الأوزيرية عن الحياة بعد الموت . كمـا تنتصر هذه الفكرة بوضوح فى مقابر الملـكات ورجال البلاط ، وفى المقابر الهرمية فى دير المدينـــة ، وفى المقابر الصغيرة المبنية فى الدلتا . وفى فصل « الخروج إلى النور » (كتاب الموتى) توجد مجموعة غير متناسقة من التراتيل والتعاويذ والأناشيد تفيد فى إغراء المعبودات التى تنشر العدالة والشخصيات المفزعة التى تميل إلى الشر، وفى خداعها والتغلب عليها . وهذه التراتيل والتعاويذ يعاد نسخها على أوراق البردى لتكون فى خدمة للموتى الأغنياء .

وشريعة أوزوريس هى السائدة فى هذه المجموعة التى يعتبر أهم فصل فيها هو الفصل الخاص بمثول الموتى أمام محكمة أوزوريس . وفى نفس هذا الاتجاه الفكرى تنمو العقيدة التى بموجبها يرى كبار القوم وهم يزرعون « حقول إيارو » ويقومون فى العالم الآخر ببعض أعمال الخدمة العامة . ومن ثم أخذوا فى صنع عدد كبير من خدم الموتى (شوابتى) فى تماثيل على شكل مومياء من الخشب أو البرونز أو الطين المحروق . وهكذا تحاط الحياة الآخرة ، أكثر من أى وقت ، بشكل أشكال الضمانات المادية اللازمة . وأولئك الذين يدفنون فى الحفر ، يوجد بصحبتهم بعض الأوانى الفخارية والأثاث والجعلان والحلى الرخيصة . أما المصريون الأكثر ثراء فكانوا يحملون معهم مايكافىء ثرواتهم الأرضية . وكانت مومياء الفراعين والمقربين منهم تحفظ كل منها فى توابيت متعددة متداخلة على هيئة آدمية . ومزودة بالتمائم والحلى الثمينة . ومحاطة بكنوز خرافية . هذا ، بينما تمتزج الأفكار الأوزيرية مع الاعتقاد بوحدة الروح مع شمس النهار . وتدخل أناشيد رع حاراختى ضمن كتاب الموتى . وتنقش أناشيد وتعاويذ أخرى على التماثيل المنحوتة على شكل نصب خارج المقبرة .

هكذا كانت رسوم جدران المقابر تزخر بالنقوش الصغيرة والنصوص الدينية (زخارف معبودات شريعتى أوزوريس وهليوبوليس ، والتحنيط والمواكب الجنائزية ومقتبسات من « كتاب الموتى » ونسخ من مراسم . «فتح الفم » . . . إلخ ) وهى عناصر كانت مهملة فى العهود السابقة . وإن ظلت كلها تستلهم ذكريات شتى من حياة الأحياء : إذ كان موتى النبلاء يواصلون النهوض بمهماتهم الإدارية فى الإشراف على الفلاحين والعمال الذين يشتغلون لحساب الملك أو الإله آمون ، كما يواصلون الصيد والقنص ، ويولمون الولائم ، ويستمعون إلى أغانى عازفى القيثار ، ويرقبون حركات راقصاتهم . وفى عهد أخناتون ، كانت حياة القصر اليومية . والعادية فى نفس الوقت ، تعرض بالتفصيل على جدران مقابر العمارنة . غير أن تغير العقيدة أصاب

معتقدات المصير بعد الموت . فلا يظهر أثر للدين إلا فى الصلوات التى تؤدى لقرص الشمس ذى الأشعة ، الذى يوزع أنفاس الحياة على المخلوقات . وكما لو كان عن رغبة لدى الرعامسة ومعاصريهم فى الانتقام — نراهم يغلبون الجوانب الدينية ويقللون من الموضوعات الدنيوية .

لقد تمكن الفنانون الذين زينوا المعابد والمقابر من الوصول بالرسم المصرى إلى قمته الثالثة فى النصف الثانى من الأسرة الثامنة عشرة وفى أوائل عهد الرعامسة . وسواء فى النحت البارز الخفيف ، أو فى التصوير على الجص — نجد أن الصور التى تملأ قبورطيبة الهائلة توافق الذوق الحديث أكثر من لوحات منف ، التى اهتدوا فيها — باتباع أسلوب أكثر تحرراً — إلى عناصر الخيال والحيوية . وتبنى رسامو الأسرة التاسعة عشرة خصائص التصوير الأحمسى فى تخطيطاتهم السريعة على اللخاف . وفى أزهى أيام الدولة الحديثة لم تنزل النقوش البارزة أبداً عن مستوى الجودة إلى مستوى التوسط . غير أن أسلوبها التقليدى — على الرغم من شدة تأنقه — كان على شىء من الجمود . فالنقوش البارزة الرقيقة على جدران المقبرة الرمزية فى أبيدوس تكسوها مهابة صارمة . ولكن ماإن ينزع الفنانون أنفسهم من زمت الرعايا المتدينين حتى يعمد مثالو الرعامسة إلى إلقاء البرابرة الهاربين أو المحتضرين ، والثيران والسباع التى نفذت فيها السهام ، كيفما اتفق ، تحت سنابك خيل الفرعون المحارب . أى أن الفنانين ، ماإن يواجهوا كتائب الحثيين والمصريين حتى يكشفوا عن إحساس فنى كامل بقوة التكوين التاريخى ، بمزج ضجيج القتال بجلال الموقف . وبعض مناظر انتصارات رمسيس الثالث تضاهى سابقاتها فى عهدى سيتى ورمسيس الثانى . غير أن النحت الرعمسى ، عموماً بعد هذا الأخير ، أصبح مجرد تكرار يزداد تسطيحاً وركاكة للأعمال الدينية والعسكرية غير المتقنة فى عهد الأسرة التاسعة عشرة .

لاشك فى آن النقش كان أقل الفنون أصالة فى آثار الأسرة الثامنة عشرة المتدينة ، وبخاصة إذا قارناه بنظيره فى الدولة الطيبية الأولى . كانت نقوش حتشبسوت وتحتمس الثالث وأمنحتب الثانى . . . إلخ تستلهم التقاليد الحسنة الموروثة عن مدرسة منف للأسرة الثانية عشرة . إلا أن مثالى التحامسة أكسبوا تماثيلهم قدراً أكبر من الرشاقة حيث عمدوا إلى تطوير القالب دون تغيير فى الهيئة العامة . أما عن الوجوه ، فلم يسعوا عن طريق المبالغة فى الشكل العام إلى إبراز عظمة شخصياتهم بقدر ما سعوا إلي تصوير المشاعر الداخلية بعلاج فنى رقيق للملامح : تبدو الشفاه وكأنها تهم بالابتسام، بينما نظرة العينين تحتفظ بجديتها . أما التعبير الحزين فكان هادئاً هدوءاً عرف سادة العمارنة كيف يوفونه حقه . كانت صور الملك أخناتون وملكته نفرتيتى والأميرات ذات جاذبية ورقة ، ومع ذلك لم يدع فنانو العمارنة التحرر الجمالى عن طريق المبالغة فى إعمال « الروحانية فى رسم الملامح » وإنما عن طريق واقعية فريدة تتلاءم والذوق الثورى لأخناتون : فالجسم الإنسانى المثالى الذى اختارته ( الأتيليهات ) الملكية هو جسم الفرعون ذو البطن المتنفخ والصدر الفارع والرأس النحيلة والجمجمة المستطيلة.
وحين يقع البصر على تماثيل الكرنك الضخمة ذات الملامح والوجوه التى تشبه وجوه الحيوان ، فإن الإنسان — أمام هذه التماثيل — يعانى من دوار الرهبة التى جرت الشريعة الأتونية الروح المصرية إليها . وفى عهد كل من توت عنخ آمون وسيتى الأول ، أخذ المثالون خيرة ما فى الأساليب الأكاديمية من عصر التحامسة من تراث.
وفى عهد رمسيس الثانى الذى كان يهوى الضخامة أظهر فن النحت مزيداً من الأصالة ، واكتسب — بيسر — طابعاً عظيماً مهيباً . ويمكن أن نحكم على التماثيل الضخمة للفراعنة حاملى الرموز المقدسة وذوى القامات العملاقة ، والمجموعات الآلهة المحفورة بالنحت البارز بأنها كانت كثيبة ثقيلة . ولكن لايمكن إنكار أن أجرامها الهائلة كانت تحدث الأثر الذى يسعى إليه رمسيس الكبير ، وهو الإحساس بالقدرة التى تعلو على مستوى البشر .

وزاد ثراء الإمبراطورية من حب الترف لدى الطبقات الحاكمة ، ومن ثم ازدهرت صناعة الأثاث المطعم ازدهاراً عظيماً في أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة والرعامسة الأوائل ، كما ازدهرت صناعات الحلى والزجاج والصناعات المعدنية الدقيقة (البرونز) وصناعة أدوات التزين ( أحقاق مساحيق التجميل ) . وتمتاز صناعة الحلى فى الدولة الحديثة بإتقان فنى كبير وغنى فاحش فى المواد الثمينة ، ولكن غنى الزخارف غالباً ما كان يطغى على جمال الخط والتكوين .

بقى أن نقول كلمة عن الأدب فى الإمبراطورية الطيبية الثانية . يبدو فى الظاهر أن الأسرة الثامنة عشرة لم تضف إلا قليلا لذخيرة الأدب المصرى الرفيع (مثل قصيدة تحتمس الثالث فى المعركة ) ، ولكن الكتابات التذكارية فى تلك الفترة التى حررها كتاب تمرسوا فى الكتابة الجيدة ، كانت تكتب بلغة الدولة الوسطى ذات الأسلوب الرائع . أما التجديد الحقيقى للأدب فكان مرتبطاً بجعل لغة الحديث هى لغة الكتابة الرسمية فى عهد أخناتون. واللغة المصرية فى عهدها الجديد، وإن كانت أقل تأنقاً ، إلا أنها كانت أكثر حيوية وإسهاباً من اللغة القديمة ، وذات قواعد لغوية أكثر تنوعاً وسلاسة ، ومن ثم كانت أكثر قدرة على التعبير عن ضرورات الحياة الدنيوية وتنوعها . وقد تمشى الإسهاب فى طريقة التعبير مع تعديل فى المشق ( طريقة رسم حروف الكتابة ) القديم الذى اتجه إلى زيادة التفاصيل والملامح ، ووصلت الكتابة الهيراطيقية إلى قمة تأنقها ( إنيني ) — بينما اتجهت الكتابة الإدارية إلى الاختصار والاختزال . أما عن التسجيلات المطولة والمنقوشة على الحجر فلم يلحظ إلا أثر محدود لقواعد اللغة ولحروف الكتابة للغة المصرية فى عهدها الجديد ( مثل قصيدة قادش والمدائح الملكية التى كانت أكثر ماتكون فى عهد رمسيس الثانى — والتى كانت تعتمد غالباً على الأسلوب الشائع فى لغة عصر الدولة الوسطي ) . ولكن خصائص مشق اللغة الجديدة وقواعدها ونقائصها تتكشف بوضوح فى الوثائق الإدارية

والنصوص الأدبية التى ألفها أو أعاد كتابتها الكتاب الدنيون والعسكريون فى مدن طيبة ومنف وپى — رمسيس . وفى عهد الرعامسة أعيد نسخ كثير من الأعمال المختارة من أجل تكوين المثقفين أو تسلية المتأدبين . ومن هذه المختارات نصوص تاريخية ( قادش ) ، ومدائح فرعونية ، ونصوص دينية ( أناشيد التوحيد للإله الشمسى آمون ، وأنشودة النيل ) ، وكتاب هجاء الحرف والحرفيين ( بردية لا نسينج ) ، ونماذج من فصيح الرسائل الشخصية أو الرسمية . ومن بين هذه توجد رسالة تستحق اهتماماً خاصاً : إنها كتيب موجه من الموظف حورى إلى زميله أمينوبى ، وفيها يوجه الكاتب إلى صديقه أسئلة فى الجغرافيا وطرق البناء والعادات والتقاليد ، مازجاً أسئلته المعجزة بأسلوب الناقد وبسخريات لاذعة . إن هذه المساجلة الأدبية ، بحجمها غير المألوف وأسلوبها الفنى المصنوع ، جديرة بأن تعد من خيرة الأعمال الأدبية فى فى عهد الرعامسة . وإلى هذه المساجلة نضيف الدروس التعليمية ( آنى وأمينوپى وثلاثة آخرين ) ، ومجموعة من أغانى الحب ، وهى مقطوعات مؤثرة نصادف أشياء منها فى عدد من الحكايات والنوادر . وهذه الحكايات مزيج من الواقع والشاعرية ، يحس قارئها بنبض الحياة فى بنادر مصر القديمة وكفورها . ومصادر إلهامها متعددة : نصف تاريخية ، كما فى قصة « فتح يافا » ؛ ودينية كما فى قصتى « حورس وست » ، « الأخوان » ؛ وفلسفية ، كما فى « الكذب والحقيقة » ، « الأمير الموعود » .

# الفصل السادس

## الفترة الانتقالية الثالثة

أسس سمنديس وحريحور بيتين ما لكين اقتسما حكم مصر قرابة مائة وثلاثين عاماً ( ١٠٨٥ — ٩٨٠ ق . م ) واستعادت أسرة تانيس الحادية والعشرون كل الأمجاد الملكية طيلة تلك الفترة .وتنازل كهنة آمون الكبار عن كل أمجادهم بسرعة لملوك تلك الأسرة ، ولكنه تنازل نظرى فحسب . وظلت الحكومتان تحاولان التغلب على نفس الصعاب التى واجهت الأسرة العشرين ، ولكن الصعاب غلبتها كما غلبت سابقتها ، وانتهى الأمر بأن قام الماشواش بالقضاء عليهما . وبعد فترة من المجد الزائف ترك الفراعنة من سلالة هذه الأرستوقراطية العسكرية ( الأسرتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون) — تركوا المملكة وقد أنهكها نزاعها الداخلى — فريسة عاجزة أمام أطماع المملكة الأثيوبية الفتية ( ٩٥٠ — ٧٣٠ ق . م ) .

إن تلك الفترة الانتقالية التى فصلت بين آخر الرعامسة والنهضة الأثيوبية سادها تنازع السلطة بين قادة الجيش وكبار الكهنة . وقد عجل هــذا التنازع بتفتيت البلاد ، ونال من هيبتها ونفوذها الخارجى فى وقت كانت فيه أشور تصعد لتصير دولة كبرى . ومازال تاريخ الأسرات المالكة فى تلك الفترة غامضاً ، على الرغم من وفرة الوثائق التى فى متناول يدنا ( مخابئ دير المدينة ، الجبانة الملكية فى تانيس ) .هذا ، بينما يمكن رسم الخطوط العريضة للسياسة العامة ، كما تسمح وفرة المادة التاريخية

الخاصة بتكوين فكرة محددة عن الحضارة وحالة المجتمع فى ظل ملوك تانيس والملوك الليبيين .

## ملوك تانيس وكهنة طيبة

كان الملك حريحور فى طيبة الذى لم يترك لناسوى بعض النقوش فى الكرنك (معبد خونسو) ، يحكم جنباً إلى جنب وعلى قدم المساواة ، مع الملك سمنديس فى تانيس . ولكن يبدو أن ملك تانيس مد نفوذه على طيبة بعد موت حريحور ، حيث أعاد تشغيل محاجر جيلين . واعترف بيعنخى ، الذى خلف أباه حريحور فى منصب « الكاهن الأول » بهذا النفوذ ، وتنازل عن إحاطة اسمه بالخرطوش الملكى . ومع ذلك فقد وجد باى نجم من الحرية ما يسمح له باستعادة الألقاب الملكية ، ولكن هذا لم يضر بالعلاقات الطيبة بينه وبين وريث سمنديس فى تانيس ، الملك بسوسنس (١٠٥٤—١٠٠٩ ق . م) . وسعياً لتأكيد السيادة التى يدعيها على مصر كلها — ابتكر هذا الأخير مبدأ لم يسبق له مثيل فى الشريعة الدينية السياسة يفيد فى الحد من نفوذ كهنة طيبة ، إذ أجلس ابنته ماكارع على عرش « العابدة الإلهية وزوجة آمون » التى تكرس بكارتها للإله ، وجعل منها فى نفس الوقت السيدة الروحية للإمارة . وبعد الحكم المشترك للملك بسوسنس فى تانيس وباى نجم فى طيبة ، تتابعت سلالتا الملوك وكبار الكهنة جنباً إلى جنب قرابة خمسين عاماً . ملوك تانيس فى الشمال على النحو التالى : أمينوفتيس ، سيامون ، ثم ملكان لم يأت ذكرهما إلا فى كتابات مانيتون وهما أوزوخور وبسيناخيس ، وأخيراً بسوسنس الثانى . واحتفظت سلالة باى نجم (ماساحارتى . منخبر رع . باى نجم الثانى . بسوسنس) بمنصب الكاهن الأعظم ، ومن ثم بالسلطة الحقيقية فى مصر العليا ، وإن كان عليهم أن يتخلوا عن الجهاز الخارجى للمملكة . وهكذا كانت طيبة طيلة حكم الأسرة الحادية

والعشرين ، من الناحية العملية ، عاصمة لدولة مستقلة تمتد من الشلال الأول حتى قلعة توجوى (الحيبة) وتتبعها الواحات الجنوبية ومناطق التعدين فى صحراء قفط . ولا توجد وثائق تكشف عن وقوع اصطدامات مكشوفة بين الملوك الكهنة فى تانيس والكهنة الملوك فى طيبة ، وإن كان من الممكن تصور أن اصطدام الاستقلال الذاتى الحقيقى لكهنة طيبة بالادعاءات الوحدوية لملوك تانيس أدى إلى انفراط عقد النظام وشل أداة الحكم وإكمال خراب البلاد .

وتمكن فراعنة الشمال ، على الرغم من مواردهم البسيطة من التدخل فى آسيا . ومن الشواهد على السياسة التجارية النشيطة لملوك تانيس وفرة النقود والفضة وأحجار اللازورد والكنوز المدفونة فى تانيس . وقد جاء فى سفر الملوك ذكر أحد ملوكهم، هو الملك سيامون على الأرجح ، أنه تدخل فى شئون مملكة آدوم، وحارب الفلسطينيين ( الاستيلاء على جازر ) وأقام علاقات فى دولة إسرائيل كان لها أثرها على التنظيم الإدارى للدولة العبرية الناشئة وعلى ثقافة الحكمة فيها . وفى الجنوب وجد كهنة آمون صعوبة فى إثبات أحقيتهم بمنصب « نائب الملك لبلاد كوش » . المخصص تقليدياً لأحد أمراء بيت حريحور . كما أنهم عجزوا عن القضاء على أعمال النهب والسلب والمعارك الداخلية التى صاحبت تدهور البلاد فى عصر الرعامسة .

وأدى فقر الشعب وتزعزع عقيدته الدينية إلى انتشار أعمال سلب القبور ، ومن ثم اضطرت السلطات إلى إحاطة مومياء الملوك التى دنست وجردت من كنوزها برعاية دينية خاصة ، ونقلها من مخبأ إلى آخر حتى انتهى باى نجم الثانى إلى وضعها فى مخبئها المأمون فى الدير البحرى ، وهو المخبأ الذى لم يكتشف إلا فى عام ١٨٨١ ميلادية . كذلك قامت سلطات طيبة بتجميع جثث كهنة آمون فى سرداب واحد . ووصلت الحكومة إلى حال من الضعف إلى درجة أنه بعد وفاة ماساحارتى تمرد جزء من إمارة طيبة ، غير أن منخبررع أصدر عفواً عن المتمردين الذين كانوا قد حكم

عليهم بالنفى . كذلك فإن كلمات الكتاب المقدس وبريق الجواهر الثمينة فى قبور تانيس التى لم تمس — لاينبغى أن تخدعنا عن حقيقة ما وصل إليه ملوك الشمال من ضعف ، فقد تبين أنهم غير قادرين على تلافى الخطر الممثل فى قوة الماشواش النامية .

وفى أوائل الأسرة الحادية والعشرين ، فى مدينة بوبسطة بمنطقة الحدود حيث أسكن الرعامسةغالبية المستوطنين الليبيين ، كانت سلالة بويوواو الماشواشى قد وصلت إلى القيادة العليا لفرق الجند المرتزقه من الماشواش ، ولقب القائد بلقب « ما المشواش » أى « ملك ما المعظم » . ونجحت هذه الأسرة فى بسط نفوذها على الوادى كله . والأرجح أن بسوسنس الثانى كان قد مات أو انكمش نفوذه داخل عاصمته فى الوقت الذى كانت حوليات كهنة آمون مؤرخة فى « السنة الثانية لحكم ملك الماشواش الأعظم » ، وإن كنا نجهل الظروف التى قضى فيها شيشنق القوى على أسرة تانيس . وتمكن هذا القائد العسكرى من الاستيلاء على العرش ، وزوج ابنه أوسركون إلى ابنة بسوسنس لكى يضفى شرعية اغتصابه للملك .

## أسرة شيشنق فى أوجها

لم يشعر أهل ذلك الزمان بأن تتويج ذلك العسكرى ذى الأصل الليبي يمثل حكماً وسيطرة أجنبية . فقد كان البرابرة الذين صاهروا الأسرة المالكة القديمة قد تبنوا منذ مدة طويلة التقاليد والعادات الجنائزية والعبادات المصرية برمتها ، ولا يكشف عن أصلهم سوى ألقابهم : « ملوك الماشواش » ومختصرها « ملوك ما » ، « ملوك الليبو » ، « ملوك محساؤول » . وكذلك استخدامهم اللفظ البربرى « ما » للتدليل على القادة العسكريين ، والدراسة المقارنة للأسماء والسلالات ( وإن كنا نلحظ تداخل الأسماء الليبية والمصرية فى نفس السلالة منذ الأسرة الواحدة

والمشرين ) . وفى التحليل الأخير فإن العهد الجديد قد زاد من الطابع العسكرى الذى كانت الرئاسات المدنية والدينية تتجه إليه من قبل . وقام شيشنق الأول بجعل الحدود الشمالية لإمارة طيبة عند أسيوط ، ونصب أحد أبنائه على إمارة مصر الوسطى بلقب « قائد هيرا كليوبوليس » ، كما حاول أن يجعل من كهانة آمون نظاماً تابعاً للملك . وخلع منصب كبير الكهنة على ابنه أيوبوت ، ثم انتقل هذا المنصب إلى ابنيه أوسوركون الأول وأيولوت ثم إلى شيشنق . وطالما كان توارث منصب كاهن آمون الأعظم بلا مشكلات ، وطالما ظلت الفرق العسكرية مخلصة للأسرة التى توجتها — فقد أمكن المحافظة على وحدة البلاد تحت سلطة قوية ، واستطاع شيشنق الأول وأوسوركون الأول وأوسوركون الثانى أن يحتلوا مركزاً مرموقاً فى ميادين الحرب والعمران . وتبين بعض الوثائق الإدارية أن شيشنق الأول اتخذ إجراءات إصلاحية فى كثير من المجالات ( النصب التذكارى فى الداخلة ، مرسوم هيرا كليوبوليس ) . وتوقفت أعمال السلب والنهب فى طيبة ، واستؤنف العمل فى محاجر السلسلة . وأدى استتباب النظام فى الداخل إلى تشجيع الملك الليبى على النشاط خارج الحدود ، فتوجه على رأس حملة إلى أورشليم ( حوالى ٩٥٠ ق . م ) « واستولى على كنوز بيت الرب وكنوز الملك » ثم واصل السير حتى الجليل تاركاً نصباً تذكارياً فى مجدو . ودخلت ميناء جبيل فى دائرة نفوذ مصر ( تماثيل شيشنق الأول وأوسركون الأول وأوسركون الثانى) وأقام ملوك ماعلاقات مع أروادة ( بقايا آثار بينامون ) وصيدا ( آنية تاكلوت ) وسامرا ( آنية أوسوركون الثانى ) . كذلك استعادوا — جزئياً — النفوذ المفقود فى النوبة ، كما يظهر فى الإشارة إلى سيادة شيشنق الأول على إقليم كوش ، وفى لقب « الابن الملكى وحاكم بلاد الجنوب » الذى حمله أمير يدعي أوسوركون عنخ . وفى الغرب ، اعترف ملوك الليبو المستقرون على فرع رشيد ، اعترفوا منذ ذلك الحين بتبعيتهم لسيادة الفرعون .

والواقع أن الأسرة الثانية والعشرين لم تعدل شيئاً فى الهيكل السياسى والاجتماعى للبلاد . فهذه الأسرة التى انحدرت من الجيش ، والتى باركها الكهنة ، لم تحاول أن تقلل من نفوذ الأرستوقراطية العسكرية أو تدخل تعديلاً ذا شأن على النظام الكهنوتى لطيبة . كانت الظروف تستوجب أن يقنع كبير كهنة طيبة بالولاء للملك وأن يحترم نظام التعبية وإلا عادت الأحوال إلى ما كانت عليه أيام باى نجم . ولكن حدث أن أحاط كبير الكهنة شيشنق ( ابن أوسوركون ) اسمه بالخرطوش ، ولم ينقل منصبه إلى أبناء الملك الحاكم وإنما نقله إلى ورثة كبار الكهنة : أوسوكيس بن أيولوت ثم إلى ابنيه أوسوركون وحار سا إيزيس . وقد اعترف أوسوركون الثانى لهذا الأخير بحقه فى حمل لقب فرعون بالاشتراك معه . كما حاول عبثاً استعادة شرعية تقلده للحكم : فنصب أبناءه كبار كهنة فى طيبة وتانيس ومنف ، وقادة للفرق العسكرية فى المدن الكبرى . ولكن بعد أن تولى ابنه الملك أخذ الفرعان الحاكمان المتوازيان يتنازعان المراكز بينما أخذ الحكام المحليون يحولون المملكة إلى نوع من الدولة الإقطاعية ( حوالى ٨٤٧ ق . م ) اعتماداً على فرق الجند المرتزقة من الليبيين .

## الفوضى الليبية

تولى تاكلوت الثانى الحكم رسمياً فى كل من طيبة والدلتا . ولكن ابنه أوسوركون ( بعد أن حمل لقب الكاهن الأول لآمون ) اضطر إلى خوض الحرب لإقرار حقوقه . وحاول عبثاً التغلب على معارضيه : إذ قامت ثورة بعد أربعة أعوام طردته إلى أقصى الجنوب . وانتصر أوسوركون عليها ، إلا أنه اضطر إلى إصدار عفو عام . وأزيح أوسوركون عن منصبه مرة بعد الأخرى على أيدى عدد من كبار الكهنة ( حارسا إيزيس ، تاكلوت . . . ) ولكنه كان يعود كل مرة إلى الهجوم .

وفى تلك الأثناء كان أحد أبناء تاكلوت الثانى ينازع واحداً من بيت أوسوركون على إمارة هيرا كليوبوليس ( إهناسيا ) .

تطورت تلك المنازعات فى ظل أزمة فى البيت المالك ، إذ ظهر للملك شيشنق الثالث منافس فى شخص بيتوباستيس . هكذا بدأت تتحلل الوحدة الملكية ، وإن لم تكن مصر قد انقسمت بعد إلى مملكتين . وعندما مات شيشنق دفن فى تانيس حيث كان قد بنى بوابة آمون العظيمة ، ووجد اسمه على بقايا المنشآت والمبانى ونصب النذور فى كافة أنحاء الدلتا ، كما كان الكاهن أوسوركون يعترف به ملكا . هذا، بينما عثر على خراطيش الملك بيتوباستيس ( مؤسس أسرة تانيس الثالثة والعشرين وفق تقسيم مانيتون ) فى أنحاء من شرق الدلتا ومنف وهيرا كليوبوليس وطيبة . وقد أدى تواجد الملكين معاً إلى انقسام الطبقة الحاكمة فى كل إقليم إلى فرق متنازعة . ويبدو أن بيتوباستيس هو « الفرعون ملك تانيس » الذى ورد ذكره فى الأسطورة التى تتناقلها الكتابات الديموطيقية التقليدية . تروى أسطورة « التغلب على الدرع » قصة الحرب التى نشبت بين « قائد آمون » ومعه محاربون من تانيس ومنديس وسبنيتوس وناتو وبين الأقاليم الأخرى المؤتلفة تحت قيادة أمراء هليوبوليس وبى سوبدو . وتحكى لنا أسطورة التغلب على العرش القتال الذى نشب بين الأشراف المتجمعين حول بيتوباستيس وبين كاهن من بوتو قاد جماعة الثائرين لسرقة عرش آمون من مدينة طيبة . وتصور هاتان الملحمتان بأسلوب مثير تقاليد الأرستوقراطية الليبية المحبة للحروب ، وترسم لوحة غنية لتلك الفترة التى عجز فيها الفرعون عن إقرار السلام المزعزع بفعل أطماع كبار أتباعه وضراوتهم . والحقيقة أن ملوك « ما » الكبار أصبحوا بعد أوسوركون الثانى ، سادة الأرض والكهانة فى جميع مدن الدلتا . وكان ولاؤهم لهذا الملك أو ذاك ولاءً نظرياً غير مستقر ، وكانوا مضطرين هم أنفسهم إلى الدفاع عن نفوذهم بقوة السلاح .

ولما لم تعد ثمة سلطة تضمن استمرار كبير كهنة آمون فى منصبه ، أصبح نظام الكهانة الطيبي تحت رحمة الأقوى . وكانت أولى نتائج الفوضى الليبية انقسام مصر إلى مملكتين بعد مضى خمسة وعشرين عاماً من العام الثامن والعشرين لعهد شيشنق الثالث . وبعد الحكم الباهت للملك شيشنق الرابع جلس الكاهن أوسوركون العجوز على عرش طيبة ، ثم خلفه تاكلوت الثانى وآمونرود . وفى موازاة « أبناء إيزيس » هؤلاء سيطر اثنان من « أبناء أوبستيس » على مصر السفلى حتى منطقة أطفيح هما پاماى ثم شيشنق الخامس . وظلت هيراكليوبوليس ، بين الدولتين ، موضع نزاع . فى تلك الأثناء استعاد منصب « عابدة آمون » هيبته نتيجة لعوامل سياسية أو صوفية ، وكانت تلك المكانة قد اهتزت واضمحلت منذ القرن العاشر، بسبب خيانة العابدة ماكارع على الأرجح . وتمتعت بالصلاحيات الملكية العابدات الإلهيات : كاروآما ( فى عهد حار سا إيزيس ) ، كاروماما ( فى عهد تاكلوت الثانى ) ، شابينوبت الأولى بنت أوسوركون الثالث ( فى عهد ملوك طيبة الصغار ) . ومن ناحية أخرى فإن تشكيل مملكتين لم يمنع استمرار تفتيت الأراضى . وفى آخر عهد أوسوركون الثالث أعلن الفرعون نوعمات انفصاله فى هرموبوليس . وحوالى ٧٤٠ ق . م كان لهيراكليوبوليس أسرتها المالكة الخاصة . كما تنازعت أسرتان مالكتان أخريان عرش مصر السفلى . والحقيقة أن المركز الأدبى لهؤلاء الملوك الصغار كان أقل بكثير من مركز «زوجة آمون » ، كذلك لم يتمتع هؤلاء الملوك بنفوذ يفوق ملوك « ما » الذين كانوا يتصرفون فى كل مدن الشمال باعتبارهم ملوكا مستقلين .

# المجتمع والحضارة

## فى عصر الفترة الانتقالية الثالثة

تشكل الأسرات الحادية والعشرون والثانية والعشرون والثالثة والعشرون ، فى مجالى الثقافة والتنظيم الاجتماعى ، فترة بائسة أدت خلالها سيادة الضعف إلى انعدام

الأمن وإفقار الاقتصاد والفن . وكما قال أحد المؤرخين أخيراً : « لم يكن حكم الملوك الكهنة سوى دكتاتورية مجردة من المثل تلبس قناعا دينيا » . وهذا التشخيص الدقيق ، على قسوته ، ينطبق — بالأحرى — على حكم الماشواش .

والثابت أن تقسيم المجتمع إلى طوائف ، وهو التركيب الاجتماعى الذى صدم الإغريق فيما بعد ، كان قد استقر تماماً فى بداية الأسره الثانية والعشرين . يقرر أفلاطون ، الذى قدم صورة شاملة للمجتمع الفرعونى فى مرحلته الحديثة ، أنه كان يتشكل من طبقات وراثية مغلقة لكل من الكهنة والصناع والرعاة والصيادين والمزارعين والمحاربين . ( ومن الممكن أن تؤول امتيازات الكهنة ، بل ويمكن أن تؤول التزاماتهم ، إلى العسكريين ) . والأرجح أن هذا التنظيم الاجتماعى الذى كان وليد التطور فى ظل الرعامسة ، تجسد فى الأسرة الحادية والعشرين .

وتشير الوثائق القليلة التى وصلتنا عن نظام الأراضى ، إلى أن الجزء الأكبر منها كانت تملكه المعابد وكبار القوم ، ويقوم باستغلالها المزارعون أو العبيد . أما فيما يتعلق بالماشية ، فهناك مرسوم صادر من الملك شيشنق الأول يمدنا بتفاصيل مفيدة حيث يقدم مثلا واضحاً لنوع من الضريبة التصاعدية . فالقرابين السنوية للإله أرسافيس تقدم على النحو التالى : ستون ثوراً يقدمها الأمير الحاكم ، عشرة ثيران يقدمها رجال السلك العسكرى والدينى ، ثور واحد تقدمه كل من الطوائف الصناعية والعمال الزراعيين . وكانت حسابات الخزانة الملكية مرتبكة بسبب ضعف الإدارة ، ولا نعرف عنها إلا القليل . هذا بينما تؤكد نصب كثيرة أقيمت فى أثناء حكم الأسرات الليبية تعاظم الهبات الدينية التى تزيد من ثروة الكهنة على حساب الدولة . وظهرت آثار اللامركزية وانعدام الأمن فى تدهور الإنتاج الزراعى . ولو أن رجال الحرب والدين أعملوا — من أجل حمل الفلاحين على تسديد التزاماتهم — نفس الأساليب التى أعملوها من أجل السلطة لكانت فترة الانتقال الثالثة من أظلم العهود التى شهدها فلاحو هذا البلد .

كان المحاربون يتمتعون بنفوذ قوى فى عهد الأسرة الحادية والعشرين ، وبعد أن ساندوا حريحور فى اغتصاب العرش ازدادوا نفوذاً وثراءً مع مجىء الأسرة الثانية والعشرين . وكان هؤلاء المحاربون الذين يملك كل منهم قطعة من الأرض مساحتها ١٢ أرورا معفاة من الضريبة ، ينحدر غالبيتهم من المستوطنين الأجانب فى الدولة الحديثة . ففى عهد ملوك شيشنق نجد فى مصر الوسطى سلالة نفس قبائل التوهير الآسيويين والشريدان الذين نعرفهم منذ عهد رمسيس . وكان الماشواش والليبو يسودون فى الدلتا . وفى كل من طيبة ومنف وهيرا كليوبوليس حاميات قوية . والكاهن الأول لآمون يحمل رتبة جنرال عسكرى فى نفس الوقت ، كذلك سرعان ما أصبح كاهن بتاح الأول يحمل لقب «ملك ما» ، كما أصبح حاكم هيرا كليوبوليس يحمل لقب قائد عسكرى .

ويمكننا الأثاث الجنائزى من رسم صورة تفصيلية لمجتمع دولة الإله آمون ، حيث نعثر على أسماء شخصيات الصف الثانى ونسبهم وألقابهم : « آباء آمون الإلهيون »، « كهنة » ، «منشدات وموسيقيات العبادات الطيبية المختلفة» ، بيروقراطيو الإله آمون — أكبر مالك فى الإمارة إن لم يكن هو مالكها الوحيد . وتشكل جماعة « إخوان آمون » هذه نوعاً من الطبقة الوسطى تعيش فى ظلال المعبد . وكانت السلطة وامتيازاتها المادية مقسمة فيما بين بعض الأسرات خع إمحور ، بسنموت مانيبتروا نيسار آمون . . إلخ . ونجد تماثيل هؤلاء بالجملة فى معبد الكرنك كما نعثر على توابيتهم مرصوصة فى مقابر الدير البحرى الواسعة ( مخبأ كهنة آمون ، مجموعة كهنة مونتو ) . وكان هؤلاء الآباء الروحيون يتصاهرون ويناسبون الأسرات المالكة أحياناً ، ومن بينهم يختار : الكاهن الثانى والثالث والرابع لآمون ، وكهنة الطقوس وكبار الإداريين فى المعابد وممثلو الملك وبخاصة الوزير الذى لم تكن له سلطات واضحة . وفى تلك الدائرة المغلقة تتشكل مجموعات مناصرة للكاهن الأكبر

أو مناهضة له فى فترات الأزمات . وهذا الكاهن الأكبر هو قائد عسكرى فى نفس الوقت ، ومن ألقابه « كاهن مصر العليا الكبير » ، « رئيس جيوش كل إمارة طيبة » . وزوجته تلقب « رئيسة حريم آمون » . وشهدت بعض الفترات حكم عابدة إلهية . بيد أن السلطة العسكرية التى كانت بيد الكاهن الأكبر هى التى تكفل له التصرف فى الشئون السياسية .

وإذ وضع العسكريون الطموحون أيديهم على معبد طيبة تزايد الدور الدنيوى لوحى الإله آمون . وفى جو عدم الأمان والاستقرار الذى كان مواتيا لاستشراء الخرافة ، تحول الوحى الإلهى إلى وسيلة للحكم يلجأ إليه فى جميع الأحوال . ومن أمثلة ذلك : فى السياسة — لإصدار عفو عن مناهضى ماساحارتى وأوسوركون فى القضاء — لتبرئة موظف تحتمس المتهم بالرشوة فى الأحوال الشخصية — لإقرار الإجراءات التى اتخذها كل من ماكارع وإيسمنخب وأيولوت ؛ وتثبيت القائد شيشنق فى وظيفة أبيه يتم بقرار إلهى ؛ وكذلك السماح لهذا القائد بإدخال عبادة والده فى أبيدوس . والحق أن آمون يرعى شئون الموتى كما يرعى شئون الأحياء . ففى المقابر تودع مراسيم إلهية تقر بمشروعية شراء « الشوابتى » ، وهى العملية المناظرة لشراء العبيد فى عالم الموتى . ويقوم الإله أيضا بالتشريع للشئون العليا فى عالم الموتى . فالمراسيم المكتوبة على النصب وأوراق البردى تؤله الميت وتضمن له التمتع بمباهج العالم الآخر ، وتهبه قدرات خارقة فوق قدرات البشر . وهناك — مثلا — شهادة بحسن السير والسلوك تدعم المرسوم الصادر لصالح نسخونس حيث تؤكد بصفة خاصة أنها لم تلجأ إلى السحر للتخلص من زوجها باى نجم الثانى . ومظاهر قدرة الإله آمون الشاملة يؤكدها بالضرورة تبرير لاهوتى . فأكثر من أى وقت مضى تبرز صفات إله الكرنك باعتباره : « الروح السامية التى كانت فى البدء » ، إنه « أول الأوائل الذى أنجب الأوائل » ، وهو « الواحد الأحد الذى صنع

الوجود » . واتخذ ورثة ممنديس فى الشمال الإله آمون حامياً لأسرتهم ، وكان أهم ألقابهم هو « الكاهن الأول لآمون — رع — ملك الآلهة » ، كما كانوا يعبدون فى تانيس الثلاثى الإلهى للكرنك . وطغى آمون على الإله أوباستيش كإله حامٍ لأسرة شيشنق « محبوبة آمون » ، كما اتجهت تلك الأسرة إلى تفضيل تانيس على مدينتهم الأم بوبسطة .

ولكننا لانعرف إن كانت مملكة الشمال أيضاً اعتبرت ملك الآلهة ناطقاً بلسانها ، فإن معلوماتنا عن مجتمع الدلتا أقل دقة بكثير من معلوماتنا عن طيبة . وحتى منتصف الأسرة الثانية والعشرين ليس فى مقدورنا إلا أن نسرد بعض أسماء كبار رجال الدولة : أونديبا أونديد — جنرال الملك بسوسنس ، بسانيزس وحور — من كبار أتباع أوسوركون الثانى . أما فيما بعد فإن كثرة الآثار التى تحمل أسماء « كبار الما » دليل على ميلاد عصر الفوضى . وثمة ظاهرة جديرة بالملاحظة ، هى التطور السياسى لعدد من المدن التى كانت مغمورة : ليونتوبوليس ، فاربايتوس ، مافكى . ولم تبرز أسماء تلك المدن وأسماء آلهتها إلا فى الأسرة الثانية والعشرين . وفى منف كما فى طيبة تقاسم عدد من الأسرات الامتيازات الكهنوتية . وبعض تلك الأسرات تنحدر من أصلاب أمراء الماشواس والبعض الآخر من أسرة كاهن بتاح الكبير فى عهد ملوك تانيس .

بيد أن الأولوية التى لا تنازع للاله آمون حامى الأسرات المالكة ، لا يجب أن تنسينا أن الانقسام السياسى أبرز شخصية آلهة هيراكليوبوليس وبوبسطة ومدن الدلتا الكبرى . ومن جانب آخر تكشف دراسة الأسماء عن عملية توفيق غريبة بين تدين أصحابها وعواطفهم الجارفة ، حيث توجد أسماء « تجلب الشؤم » تهدف إلى استعداء الإله الحامى على الخصوم والأعداء . وفى العبادات الجنائزية تظل شريعة الشمس وشريعة أوزوريس تسيران جنباً إلى جنب ، وقد عادت شريعة الشمس إلى الانتعاش كما عبرت عن ذلك النصبُ الكثيرة ( حارماخيس ) .

فى تلك الفترة العجيبة ، حيث يحتمى الكبار بالتبرك الإلهى ، بينما ينتهك الصغار حرمة المعابد . ندرت أعمال البناء الكبرى وانحط شأن الفنون نتيجة لتدهور القيم الروحية وانتشار البؤس وعجز الإدارة ومايترتب على ذلك من تفاقم المنازعات المسلحة . ولم يتجاوز النشاط المعمارى لكبار الكهنة إجراء بعض الترميمات والتجديدات ، بينما يبدو نشاط سادة تانيس محصوراً فى منف حيث أقيمت بعض المعابد الصغيرة ، وفي تانيس التى حاولوا أن يجعلوها جديرة بأن تكون عاصمة الملك . بدأ بسوسنس فى بناء معبد آمون فى تانيس ، وأحاطه بسور من اللبن ، وبنى مقبرته فى داخله . واستأنف البناء ، كل من سيامون وأمينوفيتس . ثم استأنفه ، بسخاء، عدد من الملوك الليبيين . بنى أوسوركون الثانى وشيشنق الرابع مقبرتيهما إلى جانب مقبرة بسوسنس ، بينما اكتفى شيشنق الثانى بالمدخل المؤدى إلى حجرة ملك تانيس ، أما تاكلوت الثالث فأقام عند أبيه . واستفادت مدينة بوبسطة من وصول أبنائها إلى الحكم : قام أوسوركون الأول بتقديم هبات كبيرة إلى معبد أوبستيس ، وأقام أوسوركون الثانى نصب اليوبيل للإله . ولما كان جلب الأحجار من محاجر الوادى عملية باهظة التكاليف ، فقد أقام سادة تانيس وبوبسطه مبانى الدلتا من الأطلال الحجرية لمدينة بى رمسيس . بل إن التماثيل والتوابيت الملكية ذاتها كانت قطعاً مسروقة . وساعدت جهود شيشنق الأول ، وبخاصة الأسرى والغنائم والجزية التى جلبها من حملاته العسكرية — ساعدت على استئناف مؤقت للأعمال الإنشائية الكبرى فى مصر العليا : وتمثلت هذه الأعمال أساساً فى معابد آمون فى الكرنك ( بوابة ملوك بوبسطة ، ملحقات المعابد للملوك أوسوركون ) .

ظل صانعو التماثيل والنقش البارز فى الفترة الانتقالية الثالثة قريبين جداً من الأنماط الرعمسية . فقد افتقر النقش البارز إلى الإلهام ودقة التنفيذ . وليس ثمة أنماط تخرج على الأساليب الأكاديمية الباهتة سوى بعض التماثيل الملكية : ششنق

فى صورة إله الفيضان ، أوسوركون الثانى رباناً للمركب الإلهى ، وعدد من الكتل تصور نبلاء من طيبة . وتخص المتاحف بأثاث جنائزى مصنوع من الخشب وملون بألوان زاخرة ، جىء به من المقابر الجماعية والسراديب المسلوبة .وقد جرى العرف على أن تنسب إلى الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين جميع تماثيل الإله سوكاريس ، وكل تلك التوابيت والنصب الخشبية ، وإن كانت النماذج التى ابتدعت فى عهد الملوك الكهنة قد عاشت — فى الواقع — حتى الفتح الفارسى . وفى تلك القطع ذات الألوان الصارخة يميل المرء إلى تبين بصمات ذوق فاسد هو من سمات عصر ابتذال معنوى وخلقى . والحق أن طابعها البربرى نفسه يعد من عناصر جاذبيتها . ويتميز فن الخزف فى طيبة فى الأسرة الحادية والعشرين ، بذلك اللون الأزرق العميق الذى يجذبنا فى تماثيل « الشوابتى » فى آثار الدير البحرى . غير أن أكبر الإنجازات الفنية فى الفترة الانتقالية الثالثة تركزت فى شغل المعادن. ويمكن أن نقيم أعمال صناع الحلى من : حلى كاروآما ( ليونتوبوليس ) ، حلى الأمير شيشنق ( منف ) ، كنوز بسوسنس وأونديبا أو نديد وحور تحت وحيكا خيبرع . وقد خلف لنا صياغ تلك الفترة أقدم وأجمل التماثيل البرونزية لمصر الفرعونية . ولنذكر على سبيل المثال : تمثال ممنديس فى ماريعوند ، تمثال أوسوركون (ليهمان)، تمثال بتوباستيس ( جوبلـكيان) ، تمثال السيدة تاكوش والعابدة كاروما ما ،وأخيراً التمثال ذا الطابع القديم لأحد القادة الليبيين المعروف خطأً باسم « موسو » .

# الفصل السابع

## الدولة النوبية

وبينما الأرستوقراطية الليبية تجهز على دولة شيشنق ظهرت فى السودان دولة جديدة سيتم على يديها وحدة وادى النيل ابتداءً من سنار حتى البحر الأبيض المتوسط. تمكنت الأسرة المالكة فى مدينة نباتا ( الأسرة الخامسة والعشرون ) من إنهاض الملكية الفرعونية القديمة سياسياً وثقافياً. ولكن، لسوء الحظ، ظل بقاء إمارات الماشواش فى الدلتا مصدراً دائماً لإنهاكها، وانتهى الأمر أخيراً إلى تحطيم مملكة كوش الكبيرة.

## بداية مملكة كوش

ثمة نظرية تقول إن كهنة آمون الذين طردهم شيشنق الأول هم مؤسسو أسرة نباتا، وتستند هذه النظرية إلى تطابق اسم الملك بيعنخى مع اسمى اثنين من سلالة حريحور، كما تستند إلى سيادة آمون على بلاد كوش. إلا أن تلك فكرة مشكوك فيها إلى حد كبير. أما افتراض أصول ليبية لتلك الأسرة فهو افتراض يثير شكوكا أكثر، بل إن هناك من السمات المميزة مايدعونا إلى افتراض أصول محلية خالصة لتلك الأسرة: الملامح الزنجية للأمراء النوبيين، والدور البارز للملكة الأم؛ وقانون انتقال السلطة ( من الأخ إلى الأخ، ثم العودة إلى أبناء الأخ الأكبر ). ونجد فى كورو أن مقابر أسلاف فراعنة كوش الأوائل لا تعدى أكواماً مخروطية من الطين أو الحجر بها أشياء بدائية. ويمكن أن نتابع تعاظم قوة أسرة نباتا ونفوذها

خطوة خطوة من التحول التدريجى لتك الأكوام إلى أهرامات حقيقية والتحسن المطرد للأثاث الجنائزى والتدفق المتزايد للمصنوعات المصرية أو ذات الطابع المصرى التى تشهد بتوثيق العلاقات بين مصر ودنقلة . وقد وصل نفوذهم إلى الشلال الثالث شمالا فى عصر ألارا [ حوالى ٨٠٠ ق . م ] وهو أول من نعرف من الفراعنة السودانيين ، أما فى الجنوب فقد ظهرت فى مدينة مروى مقابر مشابهة لمقابر كورو ، وذلك حوالى ٧٨٠ ق . م ( حكم الملك كاشتا على وجه التقريب ) .

وابتداء من عهد الملك كاشتا أخذ النوبيون يزحفون على مصر العليا ( النصب التذكارى فى إليفنتين ) ، وتمكنوا من فرض الأميرة أمينيرديس شريكة ووريثة لعابدة طيبة شابينوتب الأولى . وحوالى ٧٣٠ ق . م كان بيعنخى بن كاشتا يسيطر سيطرة تامة على القبائل النيلية ابتداء من سنار ، كما كان يحكم إمارة طيبة عن طريق أخته ، ويفرض حمايته على الأسرات الحاكمة فى هرموبوليس وهيرا كليوبوليس . ولكن الزحف الكوشى نحو البحر اصطدم بخطط أحد ملوك ما ( تفناخت ) من سايس . وكان هذا الملك يمتلك جميع الأراضى الواقعة بين فرعى الدلتا ، واستند إلى تأييد الشعوب الليبية لكى يستولى على منف ويدعو فراعنة ليونتوبوليس وبوبسطة وأمراء الماشواس الآخرين إلى نبذ خلافاتهم والاتحاد فى وجه الدخلاء الجدد . ولكن بفتا أوبست ، أمير هيرا كليوبوليس ، الذى ظل على ولاء لبيعنخى ، أوقف قوات هذا الائتلاف ، بينما انضم إلى تفناخت الأمير نمارت من هرموبوليس . وتمكنت الحاميات النوبية التابعة لطيبة من تحطيم أسطول نهرى أرسله الشماليون إلى الجنوب ، كما تمكنت من رفع الحصار عن هيرا كليوبوليس والاستيلاء على جميع مراكز مصر الوسطى ، غير أنها لم تتمكن من هزيمة هرموبوليس . ثم أرسل بيعنخى تجاهه المدد وهزم نمارت بالمجاعة ، وبعد ذلك هاجم منف واستولى عليها . ويشهد نجاح النوبيين السريع ، المسجلة تفاصيله على نصب النصر فى نباتا ، على عدم تماسك

الائتلاف : فعندما وصل بيعنخي إلى هليوبوليس وبدأ مسيرته صوب الشرق استسلمت إمارات شرق الدلتا ووسطها ، وعندما وصلت قواته إلى مسطاي ، على بعد ٦٠ كم جنوبي شرق سايس طلب تفناخت نفسه السلم . إلا أن الملك النوبي ، بعد أن أرهقته مقاومة عارت البطولية وصمود ملك سايس ، اكتفى بالسيطرة على قبائل مصر السفلى ، وتركها فيما كانت عليه من فوضى .

حكم بيعنخي أربعين عاماً على وجه التقريب ، وكان أميراً متديناً ومحارباً بارعاً ، واتخذ خلفاؤه من اسمه لقباً . وفي حوالي ٧٢٠ ق . م كان قد أصبح يحكم نوعاً من إمبراطورية فيدرالية . وهو يعلن على نصبه الثاني : « جعلني آمون إله نباتا ملكاً على جميع القبائل . كل من أقول له : أنت ملك — يكون ملكاً . وكل من أقول له : لست ملكاً — لا يكون ملكاً . وجعلني آمون إله طيبة ملكاً على مصر . وكل من أقول له : اتخذ مظهر الملك — يتخذ مظهر الملك . وكل من أقول له لا تتخذ مظهر الملك — فهو لا يتخذ مظهر الملك . وكل من أمنحه رضاي لن تمس مدينته إلا يدي . الآلهة المحليون يصنعون الملوك . والشعب يصنع الملوك . أما أنا فإن آمون هو صانعي » .

## أسرة سايس الرابعة والعشرون

استمرت آثار الحماية الكوشية على الدلتا باقية لسنوات . بيد أن تلك الحماية كانت قد زالت تماماً قبل أن ينتهي حكم بيعنخي بكثير ، وذلك بوصول أسرة مالكة جديدة إلى الحكم أسسها تفناخت . وربما لم يتمكن الملك النوبي من الحيلولة دون عودة خصمه إلي الهجوم ، أو أنه فضل — تقديراً لتوازن القوى — أن يقول لتابعه في سايس : « اتخذ مظهر الملك » . ومن النقشين الأثريين اللذين تركهما تفناخت يشير أهم ما فيهما إلى هبة قدمت لمعبد سايس . وثمة أسطورة متداولة تصور « تنيفاختوس » يحارب ضد العرب ( كما جاء في ديودور ) . وتحملنا هذه

الأسطورة على الاعتقاد بأن مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين كان يسيطر على الحدود الآسيوية للدلتا . ولا نستطيع أن نجزم إن كان ملك سايس الأول قد حكم جنباً إلى جنب مع فراعنة شيشنق ، أو جعلهم أتباعاً له ، أو قضى عليهم . أما ما نيتون الذى يجعل من ابن تفناخت الملك الوحيد للأسرة الرابعة والعشرين والوريث المباشر للأسرة الثالثة والعشرين ، فإنه يرجح أن يكون بوكوريس هو الذى أزل ورثة شيشنق الأول عن العرش .

ولا تشير الوثائق الهيروغليفية النادرة التى ورد بهـا اسم بوكوريس ( باك إن رنف ) إلى أكثر من أن هذا الملك كان يحكم منف . وكم كان مفيداً لو أن تلك الوثائق أكدت ماتتناقله السير الإغريقية العديدة التى تصور هذا الملك على أنه منظم شبه ثورى وحام لجماهير الفلاحين . والأرجح أن بوكوريس نظم أساليب ممارسة السلطة الملكية والإجراءات القضائية والمعاملات الشخصية . ( قسم التحرر من الالتزام ، تحديد نسبة الفائدة ، إلغاء الإكراه البدنى ) . ولكننا لانعرف أى شىء عن التحولات الاقتصادية التى استوجبت تلك الإصلاحات أو الإطار الاجتماعى والإدارى لها . وبعد أن شرعت الأسرة الرابعة والعشرون فى انتهاج سياستها الجديدة أصبحت منفصلة تماماً عن الدولة النوبية ( أسرى من الزنوج على إناء من آثار بوكوريس ) وإن ظل كل من أمينيرديس ويعنخى يملكان الصعيد .

## أسرة كوش الخامسة والعشرون

تقول الأسطورة إن الكبش ، وهو آمون إله كوش ، استعار الصوت البشرى ليعلن لبوكوريس أن عهده قد أشرف على النهاية : وبالفعل تمكن شاباكا ( ٧١٥ — ٧٠١ ق . م ) أخو يعنخى من القضاء على مملكة سايس وضم مصر إلى السودان . وبعد أن استولى شاباكا على الدلتا وحكم على بوكوريس بالموت حرقاً

( ٧١٤ ق . م ) فإنه لم يعمد إلى إنزال ملوك « ما » من فوق عروشهم ولكنه نصب نفسه الفرعون الأوحد من مروى إلى البحر الأبيض المتوسط .

كان فراعنة مصر منذ الدولة الوسطى يضعون حية على جبهتهم . وقد أصبح من حق شاباكا ومن حق أبناء إخوته ( شاباتاكا ٦٨٩ ق . م ، طهارقا ٦٨٩ — ٦٦٤ ق . م ) أن يضعوا الحية المزدوجة . وبصفتهم ملوك السودان ومصر بسطوا سيطرتهم على الواحات حتى سيوة ، كما أخضعوا الليبيين فى شمال أفريقيا . وكانت آسيا وحدها هى مصدر المتاعب . ولكن هؤلاء الإفريقيين لم يتنكروا لأصولهم حتى بعد أن أصبحوا سادة تانيس ومنف وطيبة ، إذ ظلت نباتاهى مقرهم الأساسى ، كما أقيمت أهراماتهم بالقرب من الجبل المقدس ( كورى ثم نورى ) . ألم يكن السودان مصدر ما هم فيه من ازدهار ؟ ألم تكن الشعوب التى تتكلم لغة مروى هى التى غزت الإمبراطورية وفتحتها ؟ . غير أن سهل مروى الخصيب ومناجمها الغنية لم يكن استغلالهما قد اكتمل بعد . ولكن دنقلة كانت تربى الماشية الجيدة ، حيث بساتين الأشجار ومزارع الكروم . وفى الصحارى المحيطة كانت كميات من الذهب . وقسمت الأراضى النوبية إلى مقاطعات ( سيبات ) بأسماء المدن الكبرى . ووضع نظام إدارى مركزى منقول عن مصر على الأوضاع القبلية . واستفادت المعابد من تدين البيت المالك وبخاصة معابد آمون الإله الحامى للأسرة المالكة ، إذ انتقلت إلى تلك المعابد ملكية الأراضى ومن عليها من البشر ومنحت الهدايا والعطايا الثمينة ( معابد نباتا وصنم وكاوا وبنوبس ) . ولعب نظام الكهانة دوراً بارزا فى شئون الدولة . ولكن أسرة كوش الأولى ( وكانت أميراتها « موسيقيات الإله آمون » ) سيطرت على الكهانة أكثر مما خضعت لها .

وبينما عجز الاستعمار المصرى فى الدولة الحديثة عن إدخال الثقافة الفرعونية فى السودان ، تمكن الغزاة السودانيون لمصر من إدخالها حتى الشلال السادس .

فمنذ عهد بيعنخى ظهرت نصب تاريخية بلغة مصرية وسيطة غير سليمة تماماً . ولكن لغة النصوص الرسمية تحسنت فى عهد طهارقا . وكان معبد بيعنخى فى نباتا متأثراً بالكرنك ، كما كان معبد طهارقا المنقور فى الصخر متأثراً بمعابد رمسيس الثانى فى النوبة . وقام عمال من منف بأعمال البناء والزخرفة فى معبد كاوا . وكان بيعنخى قد نقل من صوليب إلى نباتا بعض أعمال النحت من آثار أمنحتب الثالث . ولكن صنعت تماثيل ملكية جميلة من أحجار طومبوس فى أواخر حكم تلك الأسرة . وبينما نجد المقابر الخاصة (صنم) بدائية والأدوات ذات الطابع المصرى من مستوى ردىء ، فإننا نجد خير تعبير عن ازدهار فنون مصر وأساليبها الجنائزية فى بلاد كوش ممثلة فى أهرامات كورو ونورى المغطاة بالحجر الرقيق ذات الغرف الزاهية الألوان المليئة بالقطع الفنية الثمينة . ومن المؤكد أن دولة كوش استعانت بالفنيين المصريين ، ولكن حمى الإنتاج الفنى التى بدأت فى عهد طهارقا والمميزة لبعض المنشآت التذكارية فى دنقلة تشهد بتكوين مدرسة فنية محلية بقيت حتى القرن السادس الميلادى .

وأظهرت معالم النهضة النوبية فى المنطقة الجافة بين الشلال الأول والشلال الثالث حيث كانت المدنية الفرعونية قد اضمحلت بعد عصر الرعامسة .

وترك طهارقا آثاراً تذكارية فى سمنة وإبريم ، كما شق طريقاً للماشية بين كلابشة ودهميت .

## إمارة طيبة فى عصر العابدات الكوشيات

فرض ملوك نباتا أنفسهم ، دون صدام ، خلفاء « لأبناء إيزيس » فى طيبة ، وذلك بتحويل شريعة الزواج الإلهى لصالحهم .

نصب بيعنخى ابنته شابينوبت فى مركز الوريث الشرعى لإمنرديس بنت كاشتا ،

ثم ثبتت شابينوبت الثانية تلك إحدى بنات طهارقا أمنيرديس . وقد صعدت بالمكانة المادية والأدبية للزوجة الإلهية إلى درجات رفيعة . وتقدم وثائق الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين أكمل وضع لتلك الأميرات اللاتى وصلت سيرتهن إلى هيرودوت ، فهن «يقمن فى معبد فى طيبة ، ويحرم عليهن الاتصال بأى رجل». إن «زوجة الإله» أو «يد الإله» على حسب الوصف التقليدى تبهج عريسها بعفاتها وبموسيقاها ، وبهداياها ، ومن حولها « مغنيات آمون » اللاتى يشكلن حريماً إلهياً يتجدد بطريق التبنى ؛ ولما كانت زوجة الإله مساوية للفرعون من الناحية النظرية فإنها تتخذ مجموعة من الألقاب ، وتحيط اسمها بالخرطوش ، وتخلع على نفسها صفات ملكية ، وتحتفل بأعياد «اليوبيل» ، وتقيم نصباً وآثاراً باسمها . ويشكل كل من بيت الإله آمون وبيت زوجته وحدتين متمايزتين . ويحتوى بيت منزل الزوجة على الياوران « سدجيم آخ » والأتباع .. الخ المخصصين للملكة . ويخضع البيت لكبير الياوران الذى يدير « عقارات مهر الزوجة » .

واحتفظ « بيت آمون » بنفس سماته كما كان أيام ملوك تانيس . يتضاءل دور الكاهن الأول أمام العابدة الإلهية ، غير أن كتبة العبد يتقاضون ضريبة العشور على المحاصيل ، وتبت محكمة المعبد فى قضايا الأحوال الشخصية . ويحتفظ المعبد بنفس ثرواته المادية ونفس طاقم مستخدميه . كذلك فإن المواد الجنائزية المصنوعة من الخشب الملون والنصوص القانونية العديدة المكتوبة بالهيراطيقية « غير العادية » ( وهى شكل متطور لخط الرقعة الطيبى ) — كل هذه نابعة من نفس « إخوان آمون » . وظل كهنة آمون وأتباع العابدة الإلهية وممثلو الإله آمون يختارون من بين أبناء العائلات القديمة العريقة وبعض العائلات السودانية النبيلة ( كارابيسكن ، أريجاديجان ) . غير أن الفرعون هو الذى كان يسود الإمارة سياسياً . فهو الوحيد الذى يأمر بعمليات البناء الكبرى ، ويتلقى القسم

القضائى ، وتؤرخ المراسيم بسنوات حكمه ، وأمين الخزانة ، « وعمدة الإقليم مدير مصر العليا » ، وقادة الجيش لا يخضعون إلا له شخصياً . هكذا كانت أسس السيادة الكوشية على طيبة : الاحتفاظ بنفس المؤسسات والرجال مع تفتيت السلطات وتداخلها ، فثمة ثلاث قوى مستقلة ( العابدة الإلهية والحاكم ورجال الكهنوت ) توازن بعضها البعض ، ويلغى أحدها أحياناً نفوذ الآخرين .

وإذ تمكنت الأسرة الخامسة والعشرون من إحلال نظام قوى مكان الحكم المهتز للملوك شيشنق ، أصبحت قادرة على أن تظهر عواطفها — دون وجل — تجاه العابدة الأم للبيت المالك . فأقامت تلك الأسرة فى مدينة هابو سور المعبد الصغير و « البوابة النوبية » . وأقامت فى الكرنك عدداً من ملحقات المنشآت . وكلها مبان ذات أحجام متواضعة تبين الرغبة فى عدم عرقلة الإنعاش الاقتصادى بالمبالغة فى ضخامة الإنشاءات .

وكان ازدهار الفنون من سمات النهضة النوبية التى ظهرت فى العودة إلى إقامة المبانى الدينية . وتغطى الخطوط المتناسقة للمبانى العامة والقوة التعبيرية للنحت البارز ذى الطابع القديم على رداءة أنواع الحجر الرملى المستخدم فيها . ويمارس النحاتون ، ببراعة أعظم ، الأسلوب الأكاديمى الموروث من عصر الملوك الكهنة . بل إنهم يبدأون فى استلهام الأنماط الموروثة من الدولتين القديمة والحديثة .

وتتمثل تلك المحاولات لإعادة شباب فن النحت بصفة خاصة فى الوجوه : وجوه حزينة ذات طابع مثالى . وأساساً فى الوجوه الواقعية التى جمدت التعبير المتعالى لوجوه ( كبار الياوران أو الوجه المنفر للنبيل أرجادجان ) . وبينما جثث الفقراء تكدس فى مقابر جماعية مع أمتعتهم الخشبية المتعددة الألوان — نجد الفن الجنائزى مزدهراً فى المبنى الأثرى لمدينة هابو وقصور العساسيف نصف المدفونة التى خصصت للعابدة الإلهية أو لكبار القوم .

ولما كانت فترات النهضة الفنية تعكس فى مصر دائماً حالة من استقرار الأمن وسلامة الاقتصاد ، فإننا يمكن أن نفهم لماذا ظلت فترة حكم الكوشيين بعيدة الأثر فى الصعيد . وقد ظلت الحماية الكوشية على الصعيد لا تواجه أية تحديات ، إلا إذا كان الملك الطيبى الغامض (منخبرع ـ فرامونى) معاصراً للأسرة الخامسة والعشرين .

## بقاء الفوضى فى الدلتا

كانت « عملة خزينة أرسافيس » كثيراً ما تستخدم كعملة متداولة فى عقود طيبة، مما لا يدع مجالا للشك فى الازدهار المالى لهيرا كليوبوليس فى أثناء حكم الأسرة الخامسة والعشرين . بيد أننا لا نعرف إن كانت أسرة بفتا أوبست ظلت باقية أم لا . أما منف فكانت بالتا كيد مقراً لملوك نباتا ، حيث يشهد معبد بتاح والسرابيوم على تدينهم . ومما يذكر للملك شاباكا أنه أمر بإعادة حفر « رسالة عن عقيدة منف » القديمة على الحجر . وظل كهنة بتاح مخلصين لنباتا فى أثناء الغزو الأشورى ، كما ظلوا محتفظين للملك شاباكا بمكانة عالية بينهم حتى عصر هيرودوت . ويذهب هؤلاء الكهنة إلى أن شاباكا شمل بأفضاله جميع المدن حتى بوبسطة . ولكن الحقيقة هى أن سيادة كوش التى استقرت فى منف وطيبة كانت أقل بكثير فى الدلتا ، حيث لم تتمكن من القضاء على خلفاء الماشواش . والأرجح أنه قد انخفضت دخول الفئة العسكرية التابعة رسميا للفرعون ( كما تشهد على ذلك أسطورة سيثون ) ، ولكن الليبيين ظلوا دائماً مصدراً للقلاقل .

بل إن وحدة التاج التى كانت قد تحققت بعد مقتل بوكوريس عادت فانفصمت فى حوالى ٧٠٠ ق.م بعد وصول الأسرة السادسة والعشرين إلى الحكم فى سايس . ومن الممكن أن يكون على رأس تلك الأسرة أحد الأمراء النوبيين الذين استوطنوا سايس ، فأسماء ممثليها مستمدة من الأسماء السودانية ، كذلك يذهب مانيتون إلى

أن مؤسسها أميريس ( نسبة إلى آمون ) كان أثيوبياً . وذكر مانيتون اسمى الملكين ستفيناتيس ونشسو . وكان المجوس اليونانيون يعتبرون هذا الأخير من كبار علماء الفلك . ولكن ليست لدينا أية معلومات تبين موقف هؤلاء من ملوك نباتا ، وإن يكن من المؤكد وجود معارضة فى الشمال اضطرت شاباتاكا إلى قيادة جيش نيلى فى فى مصر السفلى ، ودعت خلفاءه إلى نقل نساء الملوك الصغار ورعاياهم إلى دنقلة . وكان تفتيت الدلتا موطن الضعف الأساسى فى حرب دولة كوش ضد الأشوريين .

# الدولة الكوشية والأشوريون

وإذ سادت الفوضى الليبية أخذت مصر تشهد ، وكأن الأمر لا يعنيها ، تعاظم قوة الدولة الأشورية ( معركة كاركار الأولى ٨٥٣ق.م ) وإن ظل لها من الهيبة ما دفع ملوك فلسطين إلى طلب مساندتها فى أواخر القرن الثامن . وحوالى ٧٢٥ ق.م عقد تحالف بين أوزى ملك سامرا وحانون ملك غزة وبين أحد الملوك الأقوياء فى الدلتا الشرقية هو الملك سيو . ولكن تلك المناورات لم تحل دون تحطيم إسرائيل ولا دون وقوع كارثة كاركار الثانية ( ٧٢٠ق.م ) ، بل لا تأتى سنة ٧١٥ ق.م إلا ونجد أن «بيراو مصر» (وهو بوكوريس على الأرجح) يرسل هدايا إلى سارجون . كانت طاقة سايس تقصر عن مواجهة أشور . ولكن اتحاد كوش ومصر تحت تاج واحد أثر فى تعديل ميزان القوى إلى حد كبير . وتعلقت آمال جانب من دولة يهوذا بالمحاربين الزنوج المشهود لهم ، وذلك على الرغم من تحذيرات إشعيا النبى الذى كان يكشف عن عدم توفر الولاء الكافى لدى أتباع فرعون، كما كان ينبه إلى الاضطراب الذى يمكن أن يصيب المالية المصرية نتيجة لفيضان منخفض ، ويسخر من ملوك تانيس وأمراء منف الذين يدفعون قائدهم للتدخل . ولقد كان النبى على حق فعلا .

أحجم شاباكا عن الاشتباك المباشر مع سارجون ، بل إنه قدم تنازلات مثل تخليه عن الأمير المتمرد فى أشدود ، وتركه فريسة لانتقام ملك أشور . ولكن قرب نهاية عهد شاباكا « ذهب الملوك المصريون والعربات الحربية وحملة الأقواس والأسهم إلى نجدة أورشليم وعكرون » ، فسحقهم سنحريب أسفل ألتاكو ، ولم تفلت مصر من الغزو الأشورى إلا بمعجزة . وتلك المعجزة التى عزاها اليهود إلى ملاك الرب ، ونسبها المصريون إلى إله منف ، لم تكن سوى وباء الطاعون الذى اجتاح القوات الأشورية ( ٧٠١ أو ٦٨٩ ق . م ) وفى العقد الثانى من القرن السابع قبل الميلاد بلغت نباتا عصرها الذهبى . فمن تانيس إلى السودان يغطى الملك طهارقا « الكبير » بلاده بالمبانى التذكارية ويصدر البيانات الرنانة التى تشيد بفخامة عصره . ويثبت وجوده فى آسيا ويقوم بغارات فى فلسطين ويقدم مساعداته للفينيقيين . لقد أصبحت أفريقيا بالنسبة لنينوى التهمة خصماً مقلقاً وفريسة مغرية فى ذات الوقت . وبعد الإخفاق الأول للملك أسار حدون ( ٦٧٥ — ٦٧٤ ق . م ) عقد بعل ملك تير تحالفاً صريحاً مع الفرعون . وأخيراً ( ٦٧١ ق . م ) وصل أسارحدون ، الذى كان البدو يؤيدونه ، إلى حدود الدلتا واقتحمها فى معركة أشخوبرى ثم استولى على منف بعد نصر حاسم فى معركة حامية .

عندما أصبح الأعداء على الأبواب ( ٧٠١ ق . م ) انسحب المحاربون الليبيون الذين اشتركوا فى معركة ألتاكو ، بل إن بعض الملوك ارتبط بالأشوريين ( شيشنق صهر سنحريب ) . وبدا للجميع أن انتصار أسارحدون هى فرصتهم لاسترداد حريتهم على حساب طهارقا . ورحب ملك الأشوريين بأن يجد حلفاء كهؤلاء على هذا البعد من عاصمته نينوى ، ونصب نخاو الأول ( الملك الرابع من الأسرة السادسة والعشرين ) ملكاً على سايس ومنف ، وأمن الملوك الصغار فى مصر الوسطى ومصر السفلى على مدنهم ؛ وبعد أن انسحب الجيش السودانى

إلى النوبة آثر منتو إمحات ، حاكم طيبة ، الاعتراف بسيادة الأشوريين . وهكذا عادت البلاد إلى الحال التي سبق أن وجدها شاباكا عليها . ولكن طهارقا عاد فاسترد منف في ٦٦٩ ق . م ولكن لم يلبث أن لقي الهزيمة في كربانيت على يدى قائد عسكرى من قواد أشور بانيبال الذى ذهب بعد ذلك ليعسكر عند أسوار طيبة . وكانت مقاومة السودانيين العنيفة للغزو الآسيوى ( ٦٧١ ، ٦٦٧ ق . م ) مدعاة لكيلا يقلل الملوك الذين استسلموا للأشوريين من قوة السودانيين العسكرية . لذلك حاول الأمراء ( لفترة ) أن يضاربوا على الجواد الإثيوبى . وفوجىء الملكان نخاو الأول وبكرور ( ملك الشرق الكبير ) وهما يتفاوضان ، فقبض عليهما وأخذا إلى نينوى ، بينما قام القادة العسكريون الأشوريون بتدمير مدن الدلتا ونهبها . ولكن أشوربانيبال كان بحاجة إلى أمراء يساندونه ، فأطلق سراح الملكين المتمردين موفورى الكرامة ، وأقر الإجراءات التي سبق أن اتخذها والده وأكدها .

وفي العام التالى قام تالتمانى (تانوتامون) ابن أخى طهارقا وخليفته ( ٦٦٣ — ٦٥٦ ق . م ) بطرد الأجانب . وأخضع بكرور وزملاءه بمحاصرة قلاعهم . وقتل نخاو الأول في أثناء الحرب ، ثم اضطر ابنه بسماتيك الأول إلى الالتجاء إلى سوريا . ثم قام الأشوريون بهجوم مضاد أعاد تالتمانى إلى إثيوبيا ، وانتهى بنهب الأشوريين لمدينة طيبة . ولكن هؤلاء لم يحافظوا طويلا على ذلك النصر .

وبعد مساومات اتفق ملوك الشمال ، بإقرار أشور بانيبال ، على الإسهام في السيادة على منف والفيوم ، كما يظهر من القصة الشهيرة « الرجل والكأس » ( هيرودوت ) . ولظروف ما نقض بسماتيك الاتفاق الفيدرالى ، وبعد هزيمة قصيرة خلع الباقين عن عروشهم بمساعدة « رجال البرونز » ، وهم مقاتلون مرتزقة من الأيونيين والكاريين . ثم قام بعد ذلك بطرد الحاميات الأشورية بمساعدة جيجيس

ملك ليديا . وفى الجنوب كان تالتمانى قد استرد إمارة طيبة وظل يحكمها خمس سنوات (٦٦٢ — ٦٥٧ ق . م) . وربما قام تالتمانى بمحاولة لطرد بسماتيك من منف ، ولكن هذا الأخير عاد بسرعة إلى الهجوم وطرد الإثيوبيين من الصعيد . وتشير بعض المبانى التذكارية لسنوات بسماتيك الأولى إلى ملوك كبار كأتباع لذلك الفرعون. ولكن بعد أن أصبحت هزيمة الأشوريين والإثيوبيين نهائية أخذت الأوستوقراطية العسكرية المجردة من كل سند ، هى وأتباعها ، تهجر البلاد وتسلم نفسها إلى ملك كوش ، وتضع نفسها فى خدمته .

# الفصل الثامن

# نهضة سايس

يمكن القول إن بسماتيك الأكبر أسس الأسرة السادسة والعشرين بعد أن قضى على دولة كوش الكبرى، وصفى الفوضى الليبية. واستطاعت أسرة سايس الثانية أن تعيد إلى الملكية شيئاً من هيبتها القديمة، وإلى مصر أمنها، وإلى المدنية الفرعونية رونقاً جديداً. وفى سبيل ذلك كان على الأسرة الجديدة أن تتصدى للقوى الأجنبية خارج الحدود وداخلها. وظلت بلاد ما بين النهرين، حيث حلت ملكية بابل الجديدة محل ملوك أشور، مركزاً لإمبراطورية توسعية محاربة. ولم تتخل أسرة نباتا، التى استقرت بين الشلال الثالث وأعالى النيل، عن أملها فى توحيد بلاد كوش ومصر. ومنذ ٦٣١ ق.م. كان الدوريون فى سيرينا (برقة) يوسعون نفوذهم فى الغرب. وأخيراً كان المرتزقة الأجانب قد فتحوا الطريق أمام التجار. وكانت مصر مهددة بأن تقع تحت رحمة الإغريق سياسياً واقتصادياً. وأقضت تلك المخاطر مضاجع فراعنة سايس الواحد بعد الآخر: بسماتيك الأول ٦٦٣ — ٦٠٩، نخاو ٦٠٩ — ٥٩٤. بسماتيك الثانى ٥٩٤ — ٥٨٨. أبريس. ٥٨٨ — ٥٦٨. ولم تمنع الأزمة التى أتت بالمغتصب أمازيس على العرش (٥٦٨ — ٥٢٦ ق.م) — لم تمنعه من مواصلة أعمال الإنعاش والتجديد التى بدأها أسلافه.

## سياسة سايس الخارجية

بتوحيد بسماتيك لمصر انتهت تبعية البلاد للملك أشوربانيبال. وبمجرد أن انتهى من تحرير البلاد فكر فى تأمين موقع له فى الشرق، فضرب حصاراً حول أشدود التى

لم يستول عليها إلا بعد تسعة وعشرين عاماً . وعند نهاية حكمه تعرضت فلسطين لغزو السكيثيين ، ولكن بسماتيك حال دون وصولهم إلى مصر بأن قبل دفع الجزية لهم . وفى تلك الأثناء شعر الملك العجوز بالقلق من صعود دولة بابل ، فساند الأشوريين ضد نابوبولاصر ( معركة حران ٦١٦ ق . م ) . ولكن هذا الحلف الجديد لم يحل دون سقوط أشورونينوى . وبمجرد اعتلاء نخاو الثانى العرش ( ٦٠٩ ق . م ) قاد جيشه صوب الفرات وهزم يوشياس ملك يهوذا وقتله فى مجدو ، وقد كان الأخير متحالفاً مع البابليين . ووصل الفرعون إلى الأشوريين وحاصر حران ، ثم استقر فى ربلا على نهر العاصى حيث سجن ابن يوشياس ونصب مكانه يواقيم الذى كان من أتباعه . ولكن الجيش المصرى هزم بعد ذلك فى قرقميش ( أواخر ٦٠٩ أو ٦٠٥ ق . م ) وبسط نبوخذ روصر نفوذه من الفرات إلى « نهر مصر » . ولكن نخاو تمكن من استعادة فلسطا ، ولم يتمكن الكلدانيون من البقاء فى فلسطين إلا بصعوبة . وكان فرعون سايس على الرغم من هزائمه الجزئية هو الوحيد الذى أشعر الجميع بأن مصر هى القوة الوحيدة القادرة على الوقوف فى وجه بابل . لذلك لجأ الأمراء الفلسطينيون إلى طلب المعونة من فرعون ( بردية منف الآرامية ، أوستراكا لاكيش ) الذى ساند بصفة خاصة حليفه اليهوذى يواقيم ضد النبى أورى وغيره من الانهزاميين فى أورشليم . ولم يكن الاقتصار على مناوشات الفرات والمناورات الدبلوماسية تعبيراً عن سياسة مغامرة لا معنى لها ، بل كان يمليها موقف دفاعى خالص ، وهو الموقف الوحيد الذى يمكن أن تتخذه الأسرة السادسة والعشرون . فقد كانت مصر الموحدة تواجه من الباب الخلفى لأول مرة فى تاريخها تحدياً من دولة سودانية هائلة القوة .

بعد ضم الصعيد ، أقام بسماتيك الأول حامية فى إليفنتين ، وأرسل جيشاً إلى النوبة السفلى ( كتابة على اللوحة الحجرية فى إدفو ) . ولكن فى عهد أسبالتا

( المعاصر لبسماتيك الثانى ) كانت الأسرة الكوشية الثانية تستعد لإعادة غزو مصر حيث مازال لها أعوان . ولكن بسماتيك الثانى تلافى الخطر ( ٥٩٤ ق . م ) إذ أرسل جيشا وصل إلى شمالى دنقلة على أقل تقدير ، وسحق الجيوش النوبية على أرضها . ومارس بسماتيك الثانى عمليات لعن الموتى ، فأدان خلفاء بيعنخى وأزال الأسماء الملكية للأسرة الخامسة والعشرين من فوق الآثار ، واستحوذ على الرأى العام بسيل من أعمال الدعاية . وقامت بعض الاشتباكات بين خلفاء بسماتيك والكوشيين ، ولكن لا يبدو أن المصريين نقلوا الحرب إلى الجنوب . وإذ تحول بسماتيك الثانى إلى أفريقيا للقضاء على الخطر النوبى بضربة واحدة — فإن مصر لم تدخل ، هى وفلسطا ، التحالف الذى انعقد فى ٥٩٤ ق . م بين الفينيقيين واليهود وما وراء الأردن ، واكتفى قاهر كوش بجولة للتبصر فى الأراضى التابعة له فى آسيا . إلا أن خليفته « أمريس » كان أكثر تعسفا ، ولا يمكن القول بأن عملياته ضد صور وصيدا كان الهدف منها إرغامهما على التحول ضد بابل ، أو مجرد محاولة خلق ظروف مواتية للتجارة اليونانية ، وعلى أية حال ، فقد فرض نبوخذ روصر حصاراً حول صور وأورشليم ( ٥٨٧ ق . م ) ، وفشلت محاولة صرف أنظار الأعداء عن طريق تحرير سدسياس ، إلا أن مدينة صور صمدت فى وجه الحصار ثلاثة عشر عاماً ، إذ يرجح أن أسطول أبريس كان يمونها من البحر .

فى تلك الأثناء كان الدوريون فى سيرينا (برقة) يهددون استقلال القبائل الليبية ، ويضرون بالمصالح المصرية ، بل وربما بتجارة اليونانيين فى أفريقيا عموماً . وتحالف أبريس مع الملك الليبى أوكران ضدهم . ولكن ، رغبة منه فى عدم مواجهة يونانيين بإخوان لهم ، لم يرسل سوى فرق محلية هزمت فى إرازا ، واضطرت إلى الانسحاب المزرى . وبعد عودته قام الجيش القومى ، الساخط على الملك وفرقته الأجنبية ، قام بانقلاب أطاح فيه بالملك أبريس وتوج مكانه الجنرال أمازيس . واستغل نابوخذ روصر تلك

الثورة الدامية لصالحه ، إذ توحي إحدى التسجيلات البابلية بأنه اجتاح الدلتا محققاً بذلك نبوءة إرميا ضد المصريين . ولـكن أمازيس خرج من تلك المحن مظفراً ، كما حسم مشكلات ليبيا بتقاربه من سيرينا( برقة ) (زواج من لاديكا) . وفي حوالي ٥٦٥ ق . م توجه أسطوله للاستيلاء على قبرص . وبعد أن انتهت الحرب في جميع الجبهات شهدت مصر العصر الذهبي للوك سايس ، ولـكنها سرعان ما اضطرت إلى مواجهة أخطار جديدة . فدخل أمازيس مع كريزوس ملك ليديا وپوليكرات دكتاتور ساموس ضد الدولة الفارسية التي كانت قوتها في تعاظم مطرد منذ ٥٥٠ ق . م . ولـكن قورش هزم پوليكرات وساموس . ووجد بسماتيك الثالث ، بن أمازيس ، نفسه معزولا أمام قمبيز ملك الفرس . وبعد حـكم لم يدم سوى ستة أشهر انتزع منه قمبيز ملـكه وحياته .

# العسكريون والتجار الأجانب في مصر

بينما كانت الفوضى تستنزف قوى الدولة المصرية كانت المدن اليونانية تنمي اقتصادها البحري ، كما ظل الفينيقيون على درجة من الازدهار على الرغم من هجمات الأشوريين . وبينما للماشواش يستنزفون قواهم في معارك عقيمة كانت أخلاط من المشردين تجوب الشرق بحثاً عن المغامرة : يونانيون لفظهم الانفجار السكاني من بحر إيجه ، وفلسطينيون هاربون من فظاعة حـكم نينوى . لذلك استطاع ملوك سايس بسهولة زيادة عدد الفرقة الأجنبية التي تـكونت في عهد بسماتيك الأول . وتـكونت نواة الجيش والأسطول من الأيونيين والـكاريين القاطنين في الدلتا الشرقية ، والفينيقيين القاطنين في منف ، واليهود القاطنين في دفنى . وانتشر التجار في أنحاء البلاد . وفي حوالي ٦٦٤ ق . م كان اليونانيون القادمون من ميليت قد استقروا على مقربة من مصب فرع رشيد وأسسوا مركزاً تجارياً باسم نوكراتيس . وامتدت

تجارة الإغريق حتى وصلت إلى مصر العليا ( قنا والخارجة ) . كانوا يجلبون الأنبذة والزيوت والأوانى الفخارية والأسلحة من بلاد البحر الأبيض المتوسط ، ويصدرون إليها الحبوب والبردى والمنتجات الواردة من أفريقيا الداخلية .

هكذا تشكلت أقلية نشيطة من المرتزقة والتجار ، وهى أقلية كثيراً ما استخدمتها حكومة سايس فى حروب سوريا والنوبة ، أو فى بناء السفن الحربية ، أو فى ارتياد الشاطئ الإفريقى لحساب نخاو . ولكن سادة سايس حاولوا الحد من النتائج المترتبة على التغلغل الأجنبى ، وذلك بوضع القوات الأجنبية تحت قيادات مصرية ، والرقابة على الواردات ، وفرض رسوم جمركية عليها ، يتولاها « مديرو أبواب البحر والبلاد الأجنبية » .

وقام بسماتيك الأول بإنشاء مدارس للتراجمة ليسهلوا التعامل بين رعاياه والأجانب . وبسهولة تبنى تقاليد مصر وعاداتها الفينيقيون المتمصرون والبرابرة الكاريون ( أسماء مصرية — فينيقية مختلطة ، نصب قرابين وتماثيل برونزية عليها نقوش كارية ) . غير أن استيطان اليهود واليونانيين كان أكثر صعوبة : ظل اليهود المنفيون ( منذ ٥٨٧ ق . م ) على صلة مع يهوذا ، بينما احتفظ اليونانيون بتميزهم — وذلك على الرغم من امتزاج جزئى تدل عليه : الأسماء المختلطة والمطابقة بين آلهة الجانبين ، ونوع من التلاقى الغريب بين تقاليدهما . كان الأجانب الذين استجلبهم ملوك سايس على درجة من الحضارة لاتقل عن حضارة المصريين ، وذلك على خلاف أولئك الذى استخدمهم ملوك الدولة الحديثة كصناع ومحاربين . وكانت الظروف الاقتصادية الجديدة تهدد بتصدع نظام الحكم الفرعونى القديم . أى أن المغامرين والتجار الأجانب كانوا يمهدون — دون وعى — لسيادة الإغريق على مصر . وقد أحست البلاد — غريزياً — بالخطر ، وإذ كانت حضارة النيل تمتع بنفوذ لاشك فى قوته لدى المثقفين اليونانيين ، فإن من جاء منهم لم يتجاوب

تجاوباً كاملاً مع سكان البلاد . وظل رجال الكهنوت المتمسكون بعلومهم القديمة يظهرون احتقارهم للأيونيين ، بينما غالى اليونانيون فى اعتبار البرابرة جنساً نجساً لا يجب مشاركته حتى فى الشراب . وكان العسكريون غير راضين عن امتيازات المرتزقة ووقاحتهم على الرغم من الرعاية الملكية لهم . وفى عهد أبريس مثلا ، حاول بعض الأجانب الساخطين على رؤسائهم أن يهربوا من الجيش ويذهبوا إلى السودان ، علماً بأن وضع الأجانب فى ظل حكم أبريس كان أفضل من وضعهم فى أى عهد آخر . وكان الملك أمازيس الذى اغتصب العرش أصدق صديق لليونانيين ، على الرغم من دوره الوطنى فى البداية . وجميع الأساطير المتداولة عن هذا الملك ، والتى تصفه بأنه سكير سيء الهندام ، تعبر عن عدم رضا رعاياه عليه . واتخذ أمازيس حرسه الخاص من الفرقة الأجنبية ، وكان ذلك إجراء بارعاً لتلافى الاحتكاك بين الأجانب والأهالى . وكان تركيز التجارة فى نوكراتيس يهدف إلى نفس الغرض ، كما كان يسهل الرقابة الجمركية لحماية الاقتصاد الملكى . وعلى أية حال فقد أدى هذا إلى ازدهار نوكراتيس — التى أسهمت إحدى عشرة مدينة آسيوية فى تشكيلها كمدينة . وعلى الرغم من المضار التى ترتبت على اشتراك الأجانب فى الحياة المصرية وأدى إلى الكشف عن شيخوخة المجتمع المصرى القديم ، فقد كانت له مميزاته الأكيدة ، إذ سهل على ملوك سايس مهمة الدفاع الخارجى ، كما ساعد على الإنعاش الاقتصادى للبلاد .

## إنعاش مصر

بعد أن أصبح بسماتيك ملكا على القطرين ، كانت أمامه مهمات كثيرة لكى يعيد إلى البلاد رخاءها . وكانت الدلتا قد ظلت إلى الآونة الأخيرة مسرحاً للحروب الداخلية ، كما تحملت ضربات الأشوريين الانتقامية . وكان الصعيد قد استفاد من نهضة

سايس إلى حد ما . ولكن حكم الكوشيين لم يؤد إلا إلى زيادة انقسام مصر إلى قطرين .

وانتقلت عاصمة البلاد سريعاً من سايس إلى منف ، وهى العاصمة الطبيعية للبلاد ، وإن ظلت نايت إلهة سايس ـــ هى الإلهة الحامية للأسرة السادسة والعشرين . ومنذ ذلك الحين انتقل مركز الثقل فى المملكة نهائياً إلى الشمال، ودخلت مصر العليا فى فترة ركود غير واضحة المعالم ، بينما أخذت الدلتا فى الازدهار المتزايد . ويبدو أن ملوك سايس كانوا يختارون من الدلتا أغلب الموظفين الكبار الذين تعرف أسماؤهم وألقابهم من آثار منف ومدن مصر السفلى . وأحيا ملوك بسماتيك من جديد شريعة الملك الإله ( عبادة التماثيل الملكية ) وأعادوا تشكيل البلاط والوزارة على الأسس التقليدية ، ولكن بدرجة تقل فخامة عن مثيلتها فى الدولة الحديثة . وتشكل نظام هرمى من أمراء البيت المالك يشغلون المراكز الأساسية فى إدارة الدولة ( وزير ، مديرو الأختام ، كتبة الوثائق ، مديرو المراكب .. إلخ ) وكذلك فى القصر الملكى ( مديرو الحريم والاستقبال والموائد الملكية ، كبير كتبة المعابد .. ويحمل هؤلاء الأمراء ألقاباً تدل على الوظيفة أو على المركز العائلى ، وهى مستعارة من ألقاب الدولة الحديثة ولهم أسماء تكريم مستمدة من الخرطوش الملكى ، كما تصرف لهم مخصصات كهنوتية .وفى هذه الأسرةالتى اتخذتطابعاً عسكرياً بالضرورة ، نلاحظ الزيادة العددية والمكانة الرفيعة للقادة العسكريين ، وإقرار امتيازاتهم بعد القضاء على الإقطاعيين الليبيين . ومن المسلم به أن ملوك سايس عملوا نوعاً من الوقف الإجبارى لكى يحولوا دون تشكيل أرستقراطية عسكرية جديدة من سلالات ملوك « ما » أو من كبار موظفى الدلتا . فالأملاكالعقارية التى يتلقاها الموظف من الدولة يجب إهداؤها إلى أحد المعابد ، ومن ثم كان الانتفاع بها وحق توريثها جزئياً ومشروطاً . وأدى هذا التقليد إلى زيادة ثراء الكهنة ، وبخاصة أن صغار الملاك المتدينين كانوا يقدمون هدايا مشابهة ( نصب الهبات ) ،

كذلك كان الملوك يهدون المعابد أراضى كثيرة ( مرسوم أبريس ) . ولكن السلطة الدنيوية لكهنة مصر السفلى الموزعة على المعابد الكبيرة لم تكن تشكل تهديداً جدياً لسلطة الملك .

وأكد الملوك تقسيم البلاد إلى مقاطعات ، وهو تقليد موروث عن الرعامسة ، كما أوفدوا ممثلين ملكيين (حاتى عا ) إلى المراكز الكبرى . ولكن بسماتيك الأول الذى اجتث الفوضى الليبية من جذورها كان يستخدم أساليب أكثر دهاء فى حكم الجنوب . فلم تكن مملكة طيبة تبدو ثمرة لعملية اغتصاب للسلطة ، وإنما كانت تبدو دولة حقيقية تستند إلى الأمر الواقع والحق المشروع . والحقيقة أن سايس لم تستطع أن تضم مصر الوسطى إلا بمساعدة القائد العسكرى سماتوتفناخت « قائد هيراكليوبوليس » ، واستخدم بسماتيك ذلك القائد بذكاء لكى يبسط نفوذه على طيبة ، فقد خلع عليه لقب « مدير الجنوب » ومنحه بذلك نوعاً من سلطات « نائب الملك » على الوادى . ومع ذلك فإن بسماتيك احتفظ بالتفتت السابق للسلطات فى إمارة آمون . فإن أمراء أسرة منتو إمحات وأمراء إدفو الذين تعاقبوا على حكم المدينة حملوا ، هم أيضاً ، لقب « مدير الجنوب » . وإلى جانب العابدة الإلهية ( نيتوكريس حتى ٥٩٤ ق . م ، ثم « عنخ نس نفر إيب رع » ابنة بسماتيك الثانى ) كان هناك « كبير ياوران » وله نفوذ كبير . وأخيراً « فإن مدير باب بلاد الجنوب » التابع لسايس عين مسئولا فى إليفنتين . ويلاحظ أنه فى عصر الأسرة السادسة والعشرين لم تتغير ملامح دولة طيبة كثيراً ، وتظل الصورة العامة للمجتمع كما رسمت فى أثناء الفترة الانتقالية الثالثة — تظل كما هى مع فارق معين ، هو أن العائلات الكبيرة أخذت تفقد أهميتها تدريجيا . وعلى الرغم من ولاء تلك العائلات الرسمى لملوك سايس ، فإنها غالباً ما كانت تضم بعض أنصار الدولة النوبية . ومن ثم لم يخضع الجنوب لنظم الشمال ورجاله إلا ببطء حتى لا تجرح مشاعره الاستقلالية . ولم يقص ورثة سماتوتفناخت ومنتو إمحات عن المراكز القيادية قبل نهاية القرن السابع قبل الميلاد

واحتفظت معابد طيبة بعادة الكتابة بالحروف الهيراطيقية ، أما الكتابة الديموطيقية المستوحاة من الرقعة الرعمسية ، والتى تتبناها حكومة سايس لأنها من أصول شمالية ، فإنها لم تفرض على الجنوب قبل حكم أمازيس .

وقبل أن تندمج إمارة طيبة مع بقية البلاد كانت الأسرة السادسة والعشرون قد طبقت فى كل الإقليم الإجراءات التى تؤدى إلى تنشيط الزراعة وإصلاح أحوال الخزانة الملكية . ويمكن مقارنة فترة الانتعاش هذه بما حدث فى الأسرة الثانية عشرة من حيث صعوبة المهام ، والأساليب المستخدمة ، والنتائج التى أنجزت فى فترة زمنية وجيزة . وتقدم لنا قصة «التماس بتى إيزة» التى كتبت فى عهد دارا الأول صورة رمزية للنهضة التى حققها بسماتيك الأول ، حيث نرى مدير الجنوب يعلن أمام الملك كل عام أن حصيلة الضرائب قد تضاعفت . وأغلب الظن أن مصلحة الضرائب الملكية قد لاقت بعض الصعوبات فى عهود الملوك اللاحقين ، إذ اتخذ أمازيس إجراء يجبر جميع رعاياه على إعلان قيمة دخولهم . واستوجبت حركة الأعمال التى نشطها التجار الأجانب أن يقوم نخاو ( صاحب الدعوة إلى الجولة البحرية حول أفريقيا ) بإعادة تشغيل القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر والتى ربما كانت مستخدمة فى عهد رمسيس . غير أنه ( نخاو ) لم يستمر فى ذلك المشروع المهلك الباهظ التكاليف . إلا أن حصيلة الضرائب على التجارة الإغريقية ظلت مصدر تعويض له قيمته بالنسبة للخزانة الملكية طيلة فترة تشغيل القناة .

من الصعب تقييم المقابل الاجتماعى لنهضة سايس . ويذهب البعض إلى أن تلك النهضة استلهمت نظمها من تشريع الحكيم بوكوريس المواتى لصغار الملاك ، ولكن هذا مجرد افتراض يصعب التوفيق بينه وبين العقود الديموطيقية التى يقبل الفلاح بموجبها «العبودية الاختيارية» سداداً لديونه . ومع كل ، فإذا أخذنا بما قاله المصريون للمؤرخ هيرودوت فى أثناء السيطرة الفارسية ، كان عهد أمازيس هو أزهى عهود مصر .

وظهرت ثروة سايس ، كما هى القاعدة ، فى كثير من المنشآت الدينية . ومن المعابد الكبيرة ومقابر سايس الملكية والتوسعات التى أجريت فى منشآت منف وتانيس وجميع مراكز الدلتا لايتبقى اليوم إلا أطلال وبقايا متناثرة ، وبخاصة « الناووس » الحجرى الكبير الذى نجده فى كل مكان .ومع ذلك تكفى تلك البقايا لتقدير قيمة الأعمال الإنشائية العظيمة للأسرة السادسة والعشرين . فالتوابيت والنحت البارز والقبور والتماثيل تبين كيف أن نهضة سايس أكملت النهضة النوبية فى الميدان الفنى . وإن كلمة النهضة التى تطلق على هذا المظهر من مظاهر الإنعاش البادىء منذ بعنخى — لهى كلمة مناسبة حقاً ، حيث تصور تقدم الإنتاج الفنى كما وكيفاً ، وتبرز فى نفس الوقت الاتجاه الرئيسى للعصر وهو العودة إلى إحياء القديم . ولايعنى هذا أن معاصرى طهارقا وملوك بسماتيك قد تجردوا من كل نظرة « عصرية » للأمور . فبعد أن اتسعت الآفاق الجغرافية للمصريين بفضل امتداد حدود الإمبراطورية إلى جبال الحبشة ، بدأوا يربطون بين سقوط الأمطار الموسمية وارتفاع منسوب النيل ، وأمر بسماتيك الأول بفحص الشلال الأول لاختبار النظريات القديمة التى تذهب إلى أن إليفنتين هى مصدر مياه الفيضان . وقام أسطول نخاو بجولة حول القارة الافريقية . ومن جانب آخر ، حاول بعض الكهنة التوفيق بين الأساطير اليونانية والتاريخ عن طريق التمثل والمطابقة . ولكن نفس الفضول الذهنى اتجه بقدر أعظم نحو آثار القدماء ، وكأنهم يريدون أن يحموا الثقافة النيلية القديمة من مخاطر التغلغل الأجنبى ، وأن يغمروا مصر ، وقد أعيد توحيدها أخيراً ، فى أمجاد عصر الأهرامات . وحاول الفنانون تقليد فنون الدولتين القديمة والوسطى تقليداً حرفياً . وكانوا ينسخون نقوش منف فى الدولة القديمة والفترة الانتقالية الأولى — فى المعابد الإلهية ومقابر العساسيف . وقاموا بنقش مقتطفات من «نصوص الأهرام» ورسوم التوابيت الموجودة فى منف وهليوبوليس ،وكانت التماثيل الملكية وتماثيل الأفراد المنحوتة من الشيست والديوريت المصقولة صقلا مبالغاً فى إتقانه —

كانت تقليداً متطرفاً ، ومن ثم مصطنعاً ، لأعمال العصور القديمة. وإن صور سادة سايس وكهنة طيبة — تلك الأجسام الرياضية والوجوه المبتسمة أو القبيحة عما ترتديه من ملابس وشعر مستعار — إنها جميعاً جميلة حقاً ، بل باهرة ، إذ تعبر بأسلوبها الكلاسيكى عن إرادة حضارة غير قادرة على التجديد ولكنها متشبثة بالحياة.

وانعكست عملية رجوع مصر إلى ذاتها فى الديانات المحلية. فلاشك أن تجميع وتركيب الأساطير والصلوات المحلية ونقشها على جدران المعابد وفى أوراق البردى البطلمى ليس إلا الثمرة النهائية للعمل الضخم الذى بدأ فى « بيوت الحياة » منذ الأسرة الخامسة والعشرين . وكان الكتاب الذين يقومون بهذا العمل ينسبون مصادرهم عموماً إلى أسرات منف القديمة ، ولكنهم لايترددون فى ذكر أية مصادر أخرى بدقة يشكرون عليها: سواء كانت من عصر الدولة الحديثة أو تتضمن العبادات التوحيدية فى العصور الإقطاعية ، بل ومعتقدات الفترة القريبة . وفى أواخر الفوضى الليبية كانت الطبقات الوسطى والجماهير عموماً مغرقة فى التدين . وبلغ العطف على الآلهـــة حداً أدى إلى صنع عدد لايحصى من التماثيل البرونزية الصغيرة ، اتجهت بصفة خاصة نحو الحيوانات المقدسة ، مما كان مثار سخرية لامزيد عليها من جانب البرابرة . وأخيراً ، فإن أسطورة أوزوريس كانت قد غزت القلوب بعمق أدى إلى إقصاء الإله ست من مجمع الآلهة ، ومطاردة اسمه وشعاراته أينما وجدت .

# الفصل التاسع

# مصر ودولة الفرس

بين سقوط الأسرة السادسة والعشرين وسيطرة المقدونيين والإغريق على العالم الشرقى كان تاريخ الفراعنة وتاريخ الإمبراطورية الفارسية شيئاً واحداً . تحولت مصر إلى مستعمرة بعد فتح قمبيزلها لأكثر من قرن ( ٥٢٥ — ٤٠٤ ق. م ) . ولكنها بدأت منذ ٤٩٠ ق. م تعبر عن تطلعها إلى الحرية بانتفاضات متتالية . وبعد الانتفاضة الثالثة أكدت مصر من جديد حيوية نظمها ومؤسساتها وحضارتها تحت حكم الأسرتين التاسعة والعشرين والثلاثين .

## الحكم الفارسى الأول

يروى أن نبوءة دعت نخاو الثانى إلى وقف الأعمال فى شق « قناة البحرين » لكى لاتكون فى خدمة البرابرة . وهذا التحذير كان حرياً بأن يقدم إلى كل من خلفه من الملوك . فقد كان من المحتم أن تؤدى غزوات الفرس المتعاظمة إلى فتح شهيتهم لأرض مصر الغنية التى أعاد إليها ملوك سايس النظام والرخاء .

بعد أن ضمن قمبيز تأييد العرب ، وصل إلى الفرما ( يلوز ) دون صعوبة . وتشتتت قوات بسماتيك الثالث بعد دفاع عنيف ، ووقع الوادى بأسره فى قبضة الفرس الذى قدم الليبيون والبرقيون فروض الولاء لهم فى الحال . وأراد « الملك الكبير » أن يضم واحة آمون ومملكة السودان الفرعونية ، فجازف بإرسال جيوش هائلة عبر كثبان الصحراء الليبية، ومنطقة بطن الحجر دون أن يعمل حساباً لحسن

التصرف ، أو التدرج ، فى استخدام موارد المياه والزرع ، فتكفلت المجاعة والعواصف الرملية بالقضاء عليها فى الطريق . وحركت تلك المحن عند قمبيز مرضاً أصابه منذ الطفولة ، وتتالت عليه نوبات صرع دفعته إلى إثارة حنق رعاياه الجدد بمذابح هوجاء وغارات انتقامية على طيبة وهليوبوليس ، وانتهاك حرمة مقدسات المصريين . وعندما هلك قمبيز فجأة وهو فى طريق العودة إلى بلاده نشبت أزمة خطيرة حول العرش داخل الإمبراطورية الفارسية وأعلن على أثرها حاكم مصر ، أرياندیس ، استقلاله .

اعتبر قمبيز فى البداية بسماتيك الثالث ملكا تابعاً له ، ولكنه سرعان ما تخلص منه بدعوى التآمر عليه . وهكذا حلت الأسرة الفارسية السابعة والعشرون محل الأسرة السادسة والعشرين. وطيلة فترة الحكم الفارسى المستقر (قمبيز ٥٢٥ — ٥٢٢، دارا الأول ٥٢٢–٤٨٥، جزركسيس ٤٨٥–٤٦٤، أرتاجزركسيس الأول ٤٦٤–٤٢٤). كان ملوك الفرس يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للفراعنة. ومن الغريب أن قمبيز، وهو الذى انتهك حرمة قبر أمازيس وأزال اسمه من فوق الآثار ، وجد من بين المصريين من يؤكد انتسابه إلى أبريس عن طريق أمه ! وقام أودجاحوررسنى ، وهو أحد نبلاء سايس ، بصياغة مجموعة ألقاب فرعونية لقمبيز . وقد يكون هذا النبيل ، وهو قائد أسطول بسماتيك فى بداية الغزو ، قد تصرف على نحو يسترضى الغزاة ، ولكن ليس ثمة أدلة قوية على ما يقال عن خيانته . وعلى أية حال ، فإن كفايات هذا النبيل ، باعتباره « كبير أطباء » ، كانت من دواعى احتضان « الملوك الكبار » له ، وهم الذين يكنون تقديراً خاصا للأطباء المصريين . وبعد أن أصبح قمبيز فرعوناً أقام شيئاً من الاعتبار لعبادات سايس ومنف (ربما أقدم قمبيز على قتل عجل من عجول أبيس ، ولكن من المؤكد أن أحد ثيران بتاح دفن باسمه فى السنة السادسة من حكمه) . أما دارا ، فبعد أن خلع أرياندیس ، انشغل هو أيضا بالأقاليم الإفريقية. وعمل على كسب الكهنة ، فأعاد دعوة المجمع الكهنوتى

فى سايس وجدد مكتبتها ، وحفظ عدداً من عجول أبيس ، وأقام بعض المنشآت فى الخارجة والكاب وبوزوريس ، وأهدى إلى المعابد كثيراً من الأدوات المصرية أو الإيرانية . وأظهر احترامه لجميع التقاليد المحلية فأمر بتجميع النصوص التشريعية القديمة ، وكان الوحيد من بين ملوك الفرس الذى ترك ذكرى طيبة عند كهنة مصر .

ولا شك فى أن هدف دارا الأول كان هو تسهيل استغلال تلك المستعمرة ببعض إجراءات الترضية. فلم تكن مصر مزرعة غنية فحسب ، بل كانت أيضاً مفتاحا لثروات القارة الإفريقية بأسرها . تخلى دارا بحكمة عن التطلع إلى إمبراطورية كوش البعيدة واكتفى بالنوبة السفلى ( دوديكاشين ) ، واهتم بالطرق التجارية فى الشرق والغرب . وأدى استسلام برقة وتهدئة الليبيين واحتلال الواحة الكبرى إلى ازدياد التبادلات التجارية بين برقة وواحة آمون ومصر . وحملت قناة البحر الأحمر ،التى تم العمل فيها أخيراً ، جزية أفريقيا إلى فارس ، بينما أعيد استخدام الطريق البرى بين قفط والقصير .

وبفضل استتباب النظام ، والمشروعات الاقتصادية التى بدأها دارا ، والتسامح الدينى لملوك فارس احتفظت مصر — حتى بعد أن تحولت إلى مستعمرة — بالمظهر الخارجى لازدهارها السابق . وأناب « الفرعون » عنه حاكما يقيم فى منف و « فراتاراكا» فى طيبة و « سارى » وجنرالات من الفرس . واتخذ بعض هؤلاء المقيمين أسماء وآلهة محلية ، بينما احتفظت أرستوقراطية البلاد بدور ما فى الإدارة ، كما قدمت بعض كبار رجال الدولة أحيانا ( تاموس — أميرال دارا الثانى ) . واستمر تقسيم البلاد إلى أقاليم ، كما استمرت وحدة الصعيد ، وإن كانت الوظيفة الملكية للعابدة الإلهية قد انتهت . واستخدمت المكاتب اللغتين الآرامية والديموطيقية على السواء ، وإن ظلت الديموطيقية هى السائدة فى الوثائق القانونية ورسائل أهل

البلاد إلى الحاكم : وتضيف النصوص الحجرية ( نصب القناة ) نصاً هيروغليفياً إلى النصين البابلوني والفارسي القديم . ولم تحدث تغييرات فى الهيكل الاجتماعى أكثر من تلك التى حدثت فى الإدارة. ويبدوا أن الكالازيريين والهرموطيبيين احتفظوا بامتيازاتهم القديمة . ونرى كهنة تدجوى يرفعون نقس خلافاتهم التى بدأت منذ بسماتيك الثانى ( بردية رايلاند ٩ ) وظلت حياة صغار الناس كما هى . وحدث فى عهد دارا الثانى أن ظهر هيرودوت ، أبو التاريخ ومؤسس علم السلالات البشرية ، ودرس على الطبيعة التقاليد الأصلية لهذه الأمة النشيطة المتدينة التى لها طريقة فى الحياة على « عكس كل الأمم الأخرى » ودون عاداتها القديمة . ونلحظ استمرار الطابع الفرعونى ، فالفنون التى تكمل فى مجموعها أسلوب ونمط عصر سايس تعود لتؤثر بدورها على الأشكال الجمالية لإيران الإخمينيدية .

غير أن مراعاة الفرس للمشاعر القومية المصرية وانضمام الأرستوقراطية المحلية إلى الأسرة السابعة والعشرين ، لا ينبغى أن ينسينا أن السياسة التى ابتدعها دارا الأول كانت تهدف أساساً إلى انتزاع أكبر إيراد ممكن من تلك المستعمرة التى لا تقل جزيتها إلا عن جزية بابل ، وتساوى ٧٠٠ تالنت من الفضة(١) بالإضافة إلى الموارد الهائلة من من مصايد الفيوم . كذلك قام الفلاحون بتقديم الأيدى العاملة لحفر القناة وتحملوا مشاقها ، كما قدم العسكريون قواتهم إلى الجيوش والأساطيل الإمبراطورية ( سلامينا وكوناكسا ). ورحل عدد كبير من الصناع للعمل فى قصر صوصة . وإذ تعود سكان وادى النيل العمل المضنى فى خدمة أسيادهم المصريين ، فقد كان من الممكن أن يتحملوا نير الحكم الأجنبى ، إلا أن بعض التصرفات ساهمت فى إثارة سخط المصريين على الحكم الجديد : وفد إلى البلاد « برابرة من الأمم البربرية » تعدادهم ١٢٠ ألف رجل تحملت مصر جميع نفقاتهم .

وكان فى المرتبة الأولى من هؤلاء البرابرة اليهود الذين يتكلمون الآرامية

---

(١) التالنت = ٢٦ كيلو جراما ( المترجم ) .

ويتركزون في حاميات منف وهرموبوليس وإليفنتين... إلخ. وعلى الرغم من أن بعض هؤلاء اليهود اتخذ أسماء وآلهة محلية إلا أن الجاليات فى مجموعها ظلت على ولاء خالص لعقيدة يهوذا وعلى علاقات وثيقة بفلسطين ، ومن ثم لم يذب هؤلاء المستوطنون العسكريون — الذين احتقروا معتقدات المصريين وانتهكوا حرماتهم — لم يذوبوا فى الشعب الذى يخضعونه ، بل جلبوا على أنفسهم — بالضرورة — عداء الكهنة والأهالى الذين كانوا يتميزون بشعور قوى ضد الأجانب وبإيمان قوى بالخرافة . وغذى الكهنة تطلعات الجماهير للاستقلال ، وبخاصة أن الإجراءات الضريبية التى اتخذها الملوك الكبار بدأت تمس مصالحهم المادية . وكان قمبيز ، الذى لم ينس أحد انتهاكه الجنونى لمقدسات المصريين ، قد أصدر مرسوماً يحد من دخل المعابد . ولا نستطيع التأكد من مدى فاعلية هذا المرسوم ، إذ أعيدت ضريبة آمون العشرية فى عهد دارا الأول ، ولكن من المعروف أن جزركسيس صادر أموال آلهة بوتو ، وأن تقليد الهبات الشخصية انتهى فى العصر الفارسى . وهكذا انكمشت موارد الكهانة بشكل ملحوظ لصالح الملك .

وطالما ظل الحكم الفارسى راسخاً عبر المصريون عن معارضتهم بأشكال مقنعة . أخذوا يحيطون أمجاد طيبة القديمة بهالات من التفخيم : ألم يكن سيزوستريس — سيزوأوزيس أعظم من دارا ، حيث ثبت أنه أخضع الأسكيثيين والهنود . ولقد نزلت نفس اللعنات على ابن ميديا والإله ست : ألم يغدر كلاهما بالإله أوزوريس ويستهن بالمعابد والحيوانات الإلهية ؟

ثم جاءت الحروب الميدية لتكشف عن أوجه الضعف فى الإمبراطورية الفارسية . فى ٤٨٦ ق . م ، بعد أربع سنوات من حادث ماراثون ، هزم جزركسيس الأول محاولة أولى لتحرير الدلتا ، ربما كان على رأسها الفرعون سهر إيب رع — بتو باسط ، وازدادت وطأة القهر الأجنبى فى عهد جزركسيس وعهد

أرتاجزركسيس الأول ، اللذين ظلا يدعيان الانتساب إلى الفراعنة . وفى ٤٦٠ق.م قدم أحد الملوك الصغار من الحدود الليبية ، هو الملك إيناروس ، متحالفاً مع أحد أمراء سايس المسمى أميرتى ، ومستنداً إلى أسطول أثيني — فهزم الحاكم أخيمينيس فى موقعة بابريميس ، ثم قام باحتلال منف . غير أن الفرس عادوا فسحقوا التمرد فى العام التالى . أما أثينا التى كانت دائماً على استعداد لتأييد أية ميول استقلالية ، فقد حاولت عبثاً أن تنقذ أميرتى المحصور فى بحيرة البرلس . وترك أرتاجزركسيس بعض السلطة لأبناء إيناروس وأميرتى ، فعاد النظام إلى البلاد على أساس هذه التسوية ، إلى أن قام هيرودوت برحلته فيها عام ٤٤٥ ق . م . وفى أواخر القرن الخامس هبت الثورة من جديد ثم انتصرت فى النهاية . وجاء أميرتى الثانى ، ملك سايس والممثل الوحيد للأسرة الثامنة والعشرين فبسط نفوذه حتى إليفنتين ، حيث كان اليهود فى نزاع مستمر مع المتعصبين للإله خنوم منذ ٤١٠ ق . م ، ويبدو أن الجالية اليهودية ظلت على إخلاصها للملك الكبير حتى ٤٠١ ق . م ، واستمرت باقية فى أثناء السنوات الست لحكم أميرتى الغامض (٤٠٤—٣٩٨ق.م) ، ولكن انمحى كل أثر لها مع بقايا الوجود الفارسى بعد تولى نافاريتيس الأول ، أمير منديس .

## آخر الأسرات الفرعونية

كان استقلال مصر ضربة قوية للإمبراطورية الفارسية التى أخذت تهزها الثورات . وقد سمح هذا لمصر ، التى حكمتها أرستوقراطية الدلتا العسكرية — وهى صانعة التحرير ، أن تتنفس بحرية لمدة ستين عاماً . ولكن هذه الأرستوقراطية لم تشعر شعوراً كافياً بأن مصير البلاد قد آل إلى يديها على الرغم من أنها كانت تقاتل قتالا نشيطاً ضد فارس — فقد عاد الأمراء المحليون ، كما كان يحدث فى الماضى على أيدى ملوك « ما » ، إلى إحداث سلسلة من أزمات الحكم بين الأسرات المالكة . وقد عزت « مجموعة النبوءات المفسرة » المعروفة باسم السجلات

الدعوطيقية ، تلك الأزمات إلى إرادة الرب ، وذلك وفقاً للأسلوب العبرانى .
ولم تكن البلاد محررة تماماً عندما هزم نافاريتيس الأول ( ٣٩٨ — ٣٩٣ ق . م ) أميرتى وأسره ثم أسس الأسرة التاسعة والعشرين ، وبعد حكم بسموتيس القصير تولى حاكوريس السلطة ( ٣٩٠ — ٣٧٨ ق . م ) ، ولكن الأرجح أنه لم يكن الوريث الشرعى ، فعلى الرغم من أنه حمل لقب « المختار من كبش منديس » ، أى على الرغم من كونه من سلالة منديس ، فقد خلع هذا الملك على نفسه لقب « مجدد التيجان » ، وأزال من الكرنك خراطيش الملك بسموتيس ، أما وريثه نفريتيس الثانى (٣٧٨ ق . م ) فقد أزيل من فوق العرش عقب اعتلائه مباشرة وأعقبه نقطانبو من مدينة سمنود ( نقطانيبو الأول ) بن القائد تاخوس مؤسس الأسرة الثلاثين فى سمنود ، وحكم هذا الملك حكماً مجيداً ( ٣٧٨ — ٣٦٠ ق . م ) ولكن عندما ذهب ابنه تاخوس ليحارب فى آسيا ( ٣٦١ — ٣٥٩ ق . م ) قام الوصى على العرش ، تاموس — أخو الملك ، برفع ابنه نقطانبو إلى العرش . ولم يكن تاخوس على وفاق مع الكهنة ، كما أن القواد اليونانيين خانوه أو خذلوه . وبعد أن هرب الفرعون إلى أرتاجزركسيس قام نقطانبو ( نقطانبو الثانى ) بجمع انقلاب آخر على رأسه أمير منديس : وكان هذا الفرعون الذى اتخذ ، مثل سلفه تاخوس ، لقب « مختار أونوريس » — كان آخر الفراعنة المصريين الذين حكموا مصر ( ٣٥٩ — ٣٤١ ق . م )

وعلى الرغم من تلك الثورات المتتالية كان عصر ملوك منديس وملوك سمنود تعبيراً أخيراً عن حيوية الحضارة المصرية . فقد عرف هؤلاء الملوك ، الذين ظهروا عرضاً ، كيف يعيدون الصلة بتقاليد سايس . أعيد منصب الوزير ، ووضعت الزراعة من جديد تحت رقابة « مديرى المزارع » وهم سادة أقوياء يشتركون فى إدارة المقاطعات مع قوادها ( وهم أسلاف القادة الاستراتيجيين الذين حكموا الإقليم فى العصر البطلمى ) ولم تمنعهم التشنجات السياسية من النشاط الإنشائى ، إذ أصروا على بعث أسطورة الملك — الإله . وترك لنا الملوك حاكوريس ونقطانبو ونقطانابو

آثاراً جميلة كثيرة ، وأعادوا تجميل المعابد التي طال إهمالها منذ عهد دارا الأول : في الجنوب — فيله ، إدفو ، الكاب ، طيبة ، قفط ، هرموبوليس . . إلخ ، وفي الشمال — منف ، سايس ، تانيس . . إلخ . وأعطيت كل من منديس وسبنيتوس أولوية طبيعية في أعمال التجديدات ، مثل معبد الإيزيوم بالقرب من بهبيت الحجر : ويبدو أن الجبانات الملكية أقيمت في منديس حتى في أثناء حكم الأسرة التاسعة والعشرين ثم في بهبيت في عهد الأسرة الثلاثين . وركزوا جهودهم بصفة خاصة في تهيئة مثوى للحيوانات المقدسة في السرابيوم وبوخيوم ومعبد منيفس ومدافن الثيران في فاربايتوس ومدافن النحوس في ليتوبوليس — تلك الحيوانات التي شغف المصريون بحبها بينما كان البرابرة يمتهنونها . وإذ تدهشنا كثرة الأعمال الفنية المصرية في القرن الرابع ق . م نجد أنها لم تكن مجرد أعمال عادية أو ضئيلة القيمة . فصناعة التماثيل تظهر مهارة فائقة في استخدام أدوات النحت وأسلوباً تقليديا صارماً في علاج الحجر الصلب الذي كان المصريون يفضلونه : تماثيل القرابين للملوك والعظماء ، قرود وأسود نائمة ، صقور ملكية . . إلخ . وشجع انتشار الخرافة على صناعة الأدوات السحرية — كالتماثيل والتمائم المصقولة بعناية والمغطاة بالنقوش الهيروغليفية الدقيقة . ونلاحظ نفس الإتقان الفني في صناعة التوابيت الكبيرة المسجل عليها تلخيصات لكتب الطريق إلى العالم الآخر ، والنقوش التي تنقل الأنماط القديمة كما هي أو ربما تجددها أحياناً ( الحفر البارز المنسوب إلى سايس ) . ويتميز هذا الإنتاج باتجاه إلى الليونة ينبئ بالأساليب البطلمية .

وفيما عدا تاريخ حياة النبلاء وبعض الأوراق الديموطيقية لا تسمح لنا الوثائق برسم لوحة كاملة للمجتمع في عصر النهضة الأخيرة . ولكن « مرسوم نوكراتيس » « والاقتصاديات » خلفت لنا بعض المعلومات عن الاقتصاد الملكي في ظل الأسرة الثلاثين . وبعد أن أعيدت رقابة « مديري الأبواب » بهدف الحماية الجمركية وهب

نقطانبو إلى معبد نايت (سايس) الضرائب العشرية المفروضة على الواردات ومنتجات نوكراتيس (٣٧٨ ق.م) . وكان ذلك فى الأغلب إجراء اتخذ رداً على خيانة شابرياس الأثيني ، ولكسب الكهنة لقضية سبنيتوس . وعلى الرغم من ذلك جاء فى السجلات الديموطيقية أن نقطانبو حكم مصر وأدار المعابد لكي يغتنى. واتخذ تاخوس إجراءات جذرية لتجميع ميزانية حرب : إذ تلقت مصلحة الضرائب الملكية الأموال الشخصية للكهنة « كهبات حرة »، كما فرضت على الدخول المقدسة ضريبة الأعشار التسعة . كذلك فرضت ضريبة عامة على الرأس وضريبة عشرية على الحبوب والمصانع والمواصلات الداخلية ، وأخيراً جمد قرض إجبارى مخزون الذهب والفضة فى البلاد . وكان تاخوس أول فرعون يسك نقوداً، وربما كان هو مصدر تلك القطع الذهبية العربية التى تحمل أساطير هيروغليفية والتى وصل بعضها إلينا . ولكن النظام الضرائبي الاستثنائى المستلهم من شابرياس ، وهو أجنبي ، مس مصالح جميع الطبقات بقسوة ، واتخذ ذريعة لانقلاب تاموس ، فإن الأرستوقراطية المصرية ذات النوازع الأنانية والاستقلالية لم تتخل عن التقاليد السياسية التى سبق أن أدت إلى إفلاس البلاد منذ قرون . وهكذا وضع ممثلها الوحيد الذى أراد أن يحدث تغييرات جذرية — وضع أمن البلاد فى خطر .

## الكفاح ضد الفرس

لم يتخل « الملوك الكبار » أبداً عن مستعمراتهم الإفريقية ، ولكن طالما كانوا يواجهون انتفاضات الأقاليم الآسيوية — تمكن الفراعنة من مقـــاومة القاهرين القدامى . وكانوا يحيكون المؤامرات فى قبرص وفينيقيا والأناضول والمدن اليونانية . وإذا كان الجيش المحلى لا يعتمد عليه نتيجة للإخلاص المشكوك فيه للقيادات ، راحو يجندون مرتزقة من اليونانيين ، وقادة كباراً من أهمهم : منتور من جزيرة رودس، شابرياس وديومنتوس من أثينا ، لاميديس من إسبرطة ، الملك أجيزلاس — وكانوا جميعاً يعملون بعقود مع الفرعون .

انتهى تحالف تفريتس مع لاكدعونيا اليونانية بالفشل ، إذ التقط أسطول أثينا شحنة الأسلحة التى كانت فى طريقها من الملك المصرى إلى أجيزلاس (٣٩٧ ق.م) ، ومن حسن الحظ أن كان الفرس مشغولين فى آسيا الصغرى ، ثم دخلوا بعدئذ فى معركة مع القبارصة فى ٣٩١ ق . م . وتفاوض حاكوريس مع باركا وأثينا ، كما ساند ثوار بسيديا وإيفاجوراس فى سلامينا ، ونزل إيفاجوراس فى فينيقيا التى تخلصت من سيطرة الفرس (مذابح حاكوريس فى صيدا) ، ولكنه انهار فى النهاية بعد توقف وصول الإمدادات المصرية . وكان شابرياس فى طريقه إلى مصر بناء على طلب نقطانبو ليقوم بتنظيم دفاعها ، ولكن حكومة أثينا استدعته فجأة . ونزل الفرس إلى البر عند مصب فرع النيل فى منديس ، ولكنهم لم يستفيدوا من ذلك النصر واضطروا إلى التراجع المخزى ( ٣٧٣ ق . م ) . وعرفت مصر فترة هدوء دامت ربع قرن .

فى ٣٦٧ ق . م أكد بليبوراس للفرس حسن نية اليونانيين ، فأحس تاخوس بالخطر ، وكان مشتركاً فى الوصاية على العرش ، وتفاوض مع إسبرطة وأثينا ( ٣٦٥ ق . م ) وأرسل إلى الحكام الثائرين مساعدات ، ولكن الخونة سلموها إلى أرتاجزركسيس الثانى ( ٣٦١ ق . م ) . وعلى الرغم من ذلك نجح تاخوس فى تعبئة ١١ ألفاً من المرتزقة ، ٨٨ ألفاً من الجنود المحليين وتحول إلى الهجوم . وقد رأينا كيف استغل نقطانابو عدم شعبية قريبة واستمرار حرب فلسطين فترة طويلة لكى يسقطه من العرش . واضطر نقطانابو ، نتيجة لاغتصابه العرش فى ظرف غير موات ، إلى خوض الحرب على حدود بلاده . ومنيت الحملة التى أرسلها أرتاجزركسيس الثالث بفشل ذريع (٣٥١ ق . ) ، وقام الفينيقيون والحاكم أرتاباز بثورة تساندها مصر . وعندما فرغ الملك الكبير من تلك العقبات جمع ٣٠٠ ألف رجل ضد المائة ألف الذين كانوا تحت قيادة نقطانابو . ونجحت العبقرية المصرية فى

وقف اندفاع الآسيويين عبر خطوط الدلتا الدفاعية ، ولكن المعتدين شنوا هجوما جسوراً وفتحوا لأنفسهم طريقاً جديداً ، فاستسلمت الفرما وبوبسطة . وتراجع فرعون إلى مصر العليا حيث صمد ١٨ شهراً ( ٣٤٢ ق . م ) ، ثم انتقل ، فيما يقال ، للحياة فى المنفى فى السودان . وتحولت مصر من جديد إلى إقليم فارسى يديره الحاكم فرنداتيس .

# الحكم الفارسى الثانى

كان الحكم الفارسى الثانى أقصر بكثير من الحكم الأول (٣٤٢ — ٣٣٣ ق . م ) ، كما أننا نعرف عنه أقل كثيراً من سابقه . فإن بتوزيريس من هرموبوليس ، وهو الذى شهد سبع سنوات من حكم الفرس : « بينما حكم مصر ملك من البلاد الأجنبية لم يمكث شيء فى مكانه ، وأخذت المعارك تتتابع داخل البلاد . كان الجنوب في غليان بينما الشمال فى فورة . والرجال يهيمون علي وجوههم ، ولم يعد ثمة معبد يفتح أبوابه للعابدين . والكهنة بعيدون عن معابدهم ولا يدرون ما يجرى بداخلها » . وتجد هذه الكلمات صدى فى السجلات الديموطيقية وفى كتابات المؤلفين اليونانيين . وكان أوخوس أول من بدأ فى اضطهاد الآلهة : إذ وضع على مائدة طعامه كبش منديس والعجل أبيس ، واستبدل بهذا الأخير حماراً ، وهو حيوان يرمز إلى الشر والعقم ، كان المصريون يشبهون به ملوك الفرس . ونفيت الأصنام المعبودة كما رحلت الكتب المقدسة إلى فارس . وروى الغازى بالحرائق والمذابح تعطشه للانتقام من شعب طالما سخر من إمبراطوريته بمعونة اليونانيين المغرضة .

كان « الشمال فى فورة » لفترة من الزمن بتحريض الفرعون الغامض خباباش ، بينما تواطأ بعض النبلاء مع الفاتحين — ومن هؤلاء أحد أبناء نقطانابو سمح له بالعودة من المنفى ، وسماتوتفناخت الذى كان بجانب الملك الكبير فى أثناء معركة

إيسوس ، ولكنه أسرع بالعودة إلى بلاده فى أول فرصة سنحت . هكذا لم تتح لأرتجزركسيس الثالث فرصة الاستفادة من إقليم كان يكرهه ويعمل فيه السلب والنهب . ولم تكف خمس سنوات ( ٣٣٨ — ٣٣٣ ق . م ) لكى يعيد أرسيس ثم دارا الثالث النظام إلى شئون البلاد . ثم ظهر الإسكندر على ضفاف النيل ونصب نفسه فرعوناً على البلاد .

## بقاء الحضارة الفرعونية

إن التقسيمات التى لابد أن يأخذ بها المؤرخ السياسى وهو يتابع توالى الأحداث ، وهى تقسيمات متعسفة بالضرورة ، توقف تاريخ الفراعنة عند سقوط الأسرة الأخيرة . ولذلك التقسيم ما يبرره ، فإن مصر دخلت فى عداد الدول الهلينية عن طريق دبلوماسيتها وبعض مؤسساتها ونظمها وحضارتها السكندرية . ولكن لايجب أن ينسينا هذا بقاء الحضارة الفرعونية فى مملكة البطالسة ثم فى ظل الحكم الرومانى من جانب ، وفى مملكة مروى السودانية من جانب آخر .

ففى مصر البطلمية ثم الرومانية ظلت طبيعة الفرعون المقدسة ، سواء كان من البطالسة أو القياصرة ، والاقتصاد المركزى ، ورقابة الحكومة الدقيقة على الفلاحين — كل هذا تراث من الملكية الفرعونية القديمة لم يتغير إلا قليلاً . ولم تؤثر الهجرات الأوربية فى السمات البشرية للشعب تأثيراً محسوساً ، وظل محتفظاً بلغته القديمة التى أصبحت القبطية هى آخر صورة لها . كما ظل المسجلون يستخدمون الديموطيقية حتى منتصف العصر الرومانى . وحافظ الكهنة محافظة أمينة على تقاليد الهندسة المعمارية والفنون التشكيلية الموروثة من آلاف السنين ( لم تكن متقنة الصياغة ولكن ظلت قواعدها صارمة ) . وحافظوا كذلك على الكتابة الهيروغليفية ، التى أضحت أشد تعقيداً ، وعلى المعتقدات والطقوس الموروثة من الأسلاف ، ومن ثم بنيت المعابد الكبيرة فى دندرة وأومبوس وفيلة وإدفو ( من القرن الثالث إلى الثانى ق . م ) ،

ومعبد إسنا نصف المدفون ، ( الذى انتهى العمل فيه عام ٢٥٠ ميلادية ) والنصب والتماثيل الخاصة التى تشكل أغنى مجموعة وصلت لنا من المعلومات عن ديانة مصر القديمة .

بعد أن فقد ثانوت أمانى مصر ، احتفظ فراعنة أسرة نباتا الثانية بمركز قوى فى السودان حيث استثمروا الرصيد الحضارى الذى أخذه أسلافهم عن مصر . وإن القبور الملكية فى نورى ، ونصب كاوا ، وتماثيل جبل بركل — كلها من طراز لا يقل مصرية وإتقاناً عن آثار سايس المعاصرة لها . وعندما نقلت العاصمة من نباتا إلى مروى — عند التقاء النيل بعطبرة — تأثر الفن الفرعونى الكوشى تدريجياً بذوق الشعوب النيلية . وهكذا نشأت الحضارة الزنجية — المصرية المدهشة التى خلفت لنا معابد آمون الضخمة وأهرامات مروى الأنيقة ، وذلك النحت البارز الرائع حيث نجد الملكات الإثيوبيات العملاقة التى لا يقل مظهرها هولا عن مظهر الآلهة ، كما خلفت أبجدية مروى المزدوجة ( الهيروغليفية والرقعة ) وهى مختارة من الرموز المصرية المعدلة .

وفى القرن الثالث الميلادى كانت الحضارة الفرعونية تصارع من أجل البقاء صراعها الأخير ، ولم تلبث أن انهارت هى وآلهتها أمام المسيحية . وآخر نصب هيروغليفى معروف يرجع إلى عصر مكسيمين دايا ، ( ٣٠٧ — ٣١٤ م ) أى إلى بضع سنوات قبل مرسوم ميلانو . وأعقب ذلك هزيمة مروى أمام الغزاة الإكسوميين ، وفى إثرهم وصلت البعثات التبشيرية . وبعد أن كف الإمبراطور عن أن يكون « سيد الطقوس » ، لم يبق من نظام حكمه المطلق إلا جهازه الضرائبى الضخم . وعلى الرغم من السيطرة الغربية وتدهور الأصل المحلى بدرجات متفاوتة حسب الأوساط الاجتماعية ( المجوسية ، علم الفلك الكلدانى ، عادات كانوب ) فإن مصر ظلت حتى هذه الفترة ، محتفظة بأصالتها كبلد إفريقى عريق فى إطار العالم الهيلينيسى .

ولكن عندما توقف استخدام الهيروغليفية وتدريسها وعندما ظفر المسيح بآخر معاقل الشيطان ( إخميم — فيله ) لم تعد ثمة أية قوة أصيلة من قوى التراث القومى ، ولم تصل إلى العصور الوسطى من هذه الحضارة سوى صورة مشوهة نقلها المتأدبون الهيلينستيون فى الدولة الرومانية .

وقد كانت العقلية المصرية متميزة بدرجة لم يستطع هؤلاء المتأدبون أن يستوعبوها تماماً ، خاصة وأن الكهنة كانوا قد عمدوا ، بغيرة شديدة ، إلى تعقيدها وتنقيتها لكى يعدوا الأجانب عن علوم ثبتت صلاحيتها أمامهم ( الاتجاه إلى الاختزال والرمز فى الكتابة المتأخرة ) . وجاء الأفلاطونيون الجدد وأتباع شريعة إيزيس ، والاستغلاقيون ، واليقينيون — ففسروا مصر طبقاً لفلسفة هيلينية شرقية ولمشاعر روما فى عصر التدهور : ومن تراث الإلهين توت وإعحوتب ، حيث تظهر أفكار وحياة طرف من أفريقيا ، يتكشف قارئ اسكليبوس وتريسماجستوس أسرار المعرفة الكونية . وفى أيامنا هذه ، كثيراً ما يفضل الجمهور هذه الصورة لمصر ، المعزولة عن الزمان والمادة ، التى خلفها لنا الفلكيون والسيميائيون و ( الفلاسفة ) الصوفيون .

إن عالم الفراعنة الحقيق ، كما سمحت لنا الأساليب العلمية باكتشافه منذ شمبليون ، يقدم لنا مادة غنية على الرغم من مشكلات التاريخ وعلم الاجتماع والهندسة المعمارية التى مازال يطرحها حتى الآن . وإن الإنسان المعاصر ليتبين على شواطئ النيل بعض المكونات الأولى لحضارته حيث لا يغيب عن ذهنه الإضافات الحضارية — الأدبية والفنية — التى بنتها مصر فى شرق حوض البحر الأبيض المتوسط . وإن لم يكن الإنسان متحذلقاً فسيشعر بادئ الأمر بالغربة . ولكنه، إذ يجد نفسه أمام فن يسترعى الانتباه ، ونصوص تورد عدداً من القيم الأدبية،سرعان ماسيعترف بالإضافة التى ساهم بها فى الجهد البشرى هذا الشعب « المتدين » ، الذى عاش السكون مثله كمثل بقية الأجناس التى يقال إنها « متوحشة » . وسوف يفهم أيضاً كيف أن تجربة تاريخية بعيدة ، تسحق الفرد وتمتهن الفلاح ( أيا كانت عظمتها ) لها بعض الآثار الملموسة على تاريخ مصر الحديثة .

# جدول التتابع الزمنى للتـــاريخ
# المصرى القـــــديم

---

# جدول التتابع الزمنى للتاريخ المصرى القديم

| | الأسرات المالكة | التاريخ الداخلى | التاريخ الخارجى | الحضارة | |
|---|---|---|---|---|---|
| الألف الرابع ( ق.م ) | الملكيات السابقة على طينة | المملكتان الكبيرتان :<br>مملكة الشمال (العاصمة بهديت: بلامون ) ؛ الجنوب ( العاصمة أومبوس : بلاص ) .<br>حورس : إله مصر السفلى .<br>ست : إله مصر العليا .<br>أول توحيد لمصر ( لصالح الشمال ضد الجنوب ) .<br>تأسيس الدولة الفرعونية .<br>التقسيم الجديد :<br>مملكة بوتو ( الشمال ) .<br>مملكة نخن ( الجنوب ) . | | حضارات العصر البرونزى | الألف الرابع ( ق.م ) |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| الألف الثالث | الأسرات الطينية :<br>الأسرة الأولى :<br>عاحا ( مينا )<br>جر<br>إدجو ( وازيت )<br>دن ( وديمو )<br>عزيب<br>سمرخت<br>قعى<br>الأسرة الثانية :<br>حتب سخموى<br>نب رع ( كا كاى )<br>نترعو | إعادة التوحيد ، ملوك الجنوب يضمون مملكة بوتو .<br>هيراكو نبوليس واليثياها عاصمتا مملكة الجنوب .<br>حكم ذاتى إقليمى واقتصاد قبلى .<br>تأسيس السور الأبيض ( منف ) .<br>حكومة مطلقة ومركزية . | حملات عسكرية ضد الدول المجاورة (سياسة الغنائم) . غزوات تصل إلى الشلال الثانى . | قبور ملكية كبرى فى نقادة وأبيدوس تقويم سوتيس ( السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً ) .<br>استقر التقويم فى الأسرة الأولى . |

# (تابع) جدول التتابع الزمنى للتاريخ المصرى القديم

| | الأسرات المالكة | التاريخ الداخلى | التاريخ الخارجى | الحضارة | |
|---|---|---|---|---|---|
| ٢٨٠٠ | أونج ( سخم ليب )<br>برايب سن<br>سنجى<br>خع سخم<br>خع سخموى<br>الأسرة الثالثة فى منف أسسها زوسر<br>سخم خت<br>سا نخت<br>خع با<br>نفركا<br>حونى | الحكومة تستقر تماماً فى منطقة السور الأبيض .<br>كبير الوزراء : إيمحوتب . | علاقات مع جبيل . | إتمام نظام الكتابة بالرموز الهيروغليفية .<br>تعاليم إيمحوتب الأخلاقية .<br>هرم ومعبد جنائزى فى سقارة ( ثورة هندسية معمارية )<br>تجديد المعارف العلمية . | ٢٨٠٠ |

# الدولـــــــة القـديمة

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| | ٢٧٢٠ الأسرة الرابعة<br>أسسها :<br>سنفرو | العاصمة ميدوم ثم دهشور . | غارات على ليبيا والنوبة .<br>استغلال سيناء . | أهرامات ميدوم ودهشور . | |
| ٢٧٠٠ | ٢٦٩٦ خوفو<br>جد فرع<br>٢٦٦٥ خفرع | العاصمه : الجيزة .<br>العاصمة : أبو رواش .<br>العاصمة : الجيزة . | استغلال مناجم النوبة . | هرم الجيزه الأكبر .<br>تعاليم جدفور .<br>أبو الهول الكبير . | ٢٧٠٠ |
| | ٢٦٠٩ منكاورع<br>سبسكاف | أزمة سياسية دينية ـــ عداء ضد هليوبوليس . | | آخر الأهرامات الكبيرة .<br>مصطبة فرعون بالقرب من السور الأبيض . | |
| ٢٦٠٠ | ٢٥٦٠ الأسرة الخامسة<br>أسسها:<br>أوسر كاف | | | | ٢٦٠٠ |
| ٢٥٠٠ | ساحورع<br>كاكاى ( نفر إركارع )<br>منكاو حر<br>إيسيسى<br>أوناس | انتصار رجال هليو بوليس ومعتقداتهم . | حملات إلى ساحل البخور . | معبد شمسى « لنى أوسر رع » فى ( أبو صير ) .<br>نصوص الأهرام .<br>تعاليم بتاح حتب . | ٢٥٠٠ |

## (تابع) جدول التتابع الزمنى للتاريخ المصرى القديم

| | الأسرات المالكة | التاريخ الداخلى | التاريخ الخارجى | الحضارة |
|---|---|---|---|---|
| ٢٤٠٠ | ٢٤٢٠ الأسرة السادسة<br>أسسها :<br>تيتى<br>٢٣٩٣ ببى الأول<br>٢٣٣٦ ـ ٢٢٤٢ ببى الثانى<br>( أطول حكم فى تاريخ العالم )<br>نفر كارع الصغير | كهنة منف يساندون تيتى .<br>تعدى النبلاء على السلطة الملكية . | | |
| | **الفترة الانتقالية الأولى** | | | |
| | ٢٢٦٠ ـ ٢٢٢٠ آخر أسرات منف.<br>الأسرة السابعة .<br>الأسرة الثامنة . ( من المستحيل حاليا كتابة ترتيب زمنى لملوك هذه الأسرة ) | الثورة .<br>سبعون ملكا فى سبعين يوماً .<br>آخر أسرة فى منف . | البدو يجتاحون الدلتا . | فوران أيديولوجى. إعادة النظر فى المعتقدات . |

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| ٢٢٥٠ | ٢٢٢٢ خيتى الأول حاكم إقليم هيراكليوبوليس مؤسس مملكة مصر الوسطى . | ٢٢٢٠ أنتف الكبير حاكم إقليم طيبة يجمع أشراف طيبة وقفط فى إمارات . | | نصوص التوابيت . حوار اليائس . | ٢٢٥٠ |
| ٢٢٠٠ | أسرتا هيراكليوبوليس التاسعة والعاشرة . ٢١٨٠ خيتى الثانى . | القادة أنتف خلفاء أنتف الكبير . | | عصر النماذج الصغيرة . حاملات القرابين . الفرقة المزدوجة « مسيحتى » . | ٢٢٠٠ |
| ٢١٥٠ | ٢١٣٠ نفر كارع | ٢١٣٠ أنتف الأول ملك طيبة . | | | |
| | ٢١٢٠ خيتى الثالث | ٢١٢٠ أنتف الثانى ملك طيبة . | | | |
| ٢١٠٠ | ٢٠٧٠ مرى كارع أمراء طيبة يسقطون الأسرة العاشرة . منتوحتب يسقط خليفة مرى كارع | ٢٠٧٠ أنتف الثالث ملك طيبة . | | تعاليم مرى كارع . | ٢١٠٠ |

## (تابع) جدول التتابع الزمنى للتاريخ المصرى القديم

| | الأسرات الحاكمة | التاريخ الداخلى | التاريخ الخارجى | الحضارة | |
|---|---|---|---|---|---|
| | **الدولة الوسطى والفترة الانتقالية الثانية** | | | | |
| ٢٠٥٠ | ٢٠٦٥ ـ ٢٠٠٠ الأسرة الحادية عشرة : ملوك المناحة | الورثة المباشرون لأسرة أنتف يعيدون توحيد البلاد .<br>إعادة تنظيم الإدارة ( إحياء منصب الوزير ).<br>إعادة توزيع الثروة العقارية .<br>تركيز الجهود بشكل خاص على إمارات الجنوب . | | «الكميت» (مجموعة أشعار) .<br>الأثر الكبير لأسرة المناحة فى الدير البحرى . | ٢٠٥٠ |
| ٢٠٠٠ | الأسرة الثانية عشرة : أمنمحات الأول . | تأسيس القصر الجديد فى الليشت .<br>تدعيم الوحدة السياسية ضد الإقطاعيات . | تهدئة النوبة . | تعاليم أمنمحات الأول .<br>هجاء الحرف . | ٢٠٠٠ |

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| ١٩٥٠ | ١٩٧٠ سيزوستريس .<br>١٩٣٨ أمنمحات الثانى . | | الحملة إلى ليبيا (بحر المرمريك).<br>النفوذ المصرى فى فينيقيا وفلسطين والتحكم فى جبيل . | سيرة سنوحى .<br>الحضارة المصرية فى سوريا وفلسطين وفينيقيا) . | ١٩٥٠ |
| ١٩٠٠ | ١٩٠٦ سيزوستريس الثانى .<br>١٨٨٧ سيزوستريس الثالث . | استصلاح الأراضى وأعمال الرى فى الفيوم . | استعمار النوبة . | قصة الملاح الغريق وثعبان بلاد بونت . | ١٩٠٠ |
| ١٨٥٠ | أمنمحات الثالث . | | | | ١٨٥٠ |
| ١٨٠٠ | أمنمحات الرابع .<br>حوالى ١٧٨٥ نهاية الأسرة الثانية عشرة بعد حكم قصير للملكة سكميوفريس . ( سوبك نفرو )<br>١٧٨٥ ــ ١٦٧٥ الأسرتان ١٣ ، ١٤ :<br>حوالى ٤٠ ملكا وفق القائمة الملكية .<br>أمنمحات سوبك حتب الأول | | بعد موت أمنمحات الرابع : انهيار الإمبراطورية المصرية الأولى فى آسيا . | اللابيرينت ( قصر التيه ) . | ١٨٠٠ |
| ١٧٥٠ | مؤسس الأسرة ١٣ . | تسلل الهكسوس إلى شرق الدلتا . | | | ١٧٥٠ |
| ١٧٠٠ | ديدوميس الثانى . | | | | ١٧٠٠ |

## (تابع) جدول التتابع الزمنى للتاريخ المصرى القديم

| | الأسرات الحاكمة | التاريخ الداخلى | التاريخ الخارجى | الحضارة | |
|---|---|---|---|---|---|
| | ١٦٧٥ ـ ١٥٨٠ الأسرتان الهكسوسيتان ١٥ ، ١٦ .<br>شرك .<br>عا أو سررع ـ أپوپی .<br>سوسرن رع ـ خيان .<br>شيشى .<br>خدى .<br>عاسح رع .<br>ملكان آخران باسم أپوپى | حوالى ١٦٧٥ سيطرة الهكسوس على مصر .<br>العاصمة أواريس .<br>تأسيس مملكة مستقلة فى طيبة : الأسرة السابعة عشرة .<br>١٦٠٠ كاموسى ملك طيبة يستعيد مصر الوسطى من الهكسوس .<br>١٥٨٠ أحمس أخو كاموسى يطرد الهكسوس من الدلتا ويتبعهم الى سوريا . | علاقة الهكسوس مع الكاسيين.<br>التجارة مع كريت . | الجعلان الهكسوسية .<br>ست يتمثل بعل ويصبح الإله الرسمى للهكسوس . | |
| ١٦٠٠ | | | | | ١٦٠٠ |

# الدولـــة الحديثــــــــــــة

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| ١٥٥٠ | ١٥٨٠ الأسره الثامنة عشرة أسسها أحمس .<br>١٥٥٨ أمينوفيس الأول ( ابنه ) .<br>١٥٣٠ تحتمس الأول .<br>١٥٢٠ تحتمس الثانى .<br>أزمة فى الأسرة المالكة . | إعادة بناء سياسى ورخاء زراعى . | التوسع نحو السودان .<br>الحماية المصرية على شمال سوريا<br>تأسيس مقاطعة كوش .<br>حوالى ١٥٢٥ تحتمس الأول يجتاز نهر الفرات . | التوسيم الأول لمعبد الكرنك. | ١٥٥٠ |
| ١٥٠٠ | ١٥٠٤ الملكة حتشبسوت تتزوج ابن أختها تحتمس الثالث .<br>١٤٨٣ تحتمس الثالث يحكم بعد حتشبسوت . | | سياسة حتشبسوت السلمية .<br>أزمة فى فلسطين وأفريقيا .<br>الخطر الميتانى .<br>١٤٨٣ نصر مجدو .<br>العودة إلى سياسة التوسع .<br>ذروة الفتوحات المصرية: من أمانوس إلى الشلال الرابع على النيل. | كبير مهندسى الملكة المعماريين يقيم معبد الدير البحرى .<br>قصيدة تحتمس الثالث فى المعركة . | ١٥٠٠ |
| ١٤٥٠ | ١٤٥٠ أمينوفيس الثانى | | | | ١٤٥٠ |

## (تابع) جدول التتابع الزمني للتاريخ المصري القديم

| | الأسرات الحاكمة | التاريخ الداخلي | التاريخ الخارجي | الحضارة | |
|---|---|---|---|---|---|
| ١٤٠٠ | ١٤٢٥ تحتمس الرابع .<br>١٤٠٨ أمينوفيس الثالث .<br>١٣٧٢ أمينوفيس الرابع ( أخناتون ). | ثورة العمارنة : قطع العلاقة مع كهنة آمون . أخناتون يترك طيبة إلى آخت آتون ( تل العمارنة ). | تزعزع الحماية المصرية على فلسطين .<br>ازدياد الخطر الحثي .<br>أول معاهدة مصرية حثية . | كتاب الموتى .<br>معبد الأقصر .<br>النشيد العظيم للشمس .<br>التجديد الأدبي : لغة الكلام تتحول إلى لغة رسمية ( المصرية الجديدة ) . | ١٤٠٠ |
| ١٣٥٠ | ١٣٥٤ بدء حكم توت عنخ آتون الذي أصبح فيما بعد توت عنخ آمون .<br>١٣٤٣ حور محب .<br>الأسرة التاسعة عشرة :<br>١٣١٤ القائد رمسيس يخلف حورمحب . | العسكريون يعيدون النظام .<br>العودة إلى عبادة آمون .<br>تدعيم الأسرة المالكة . | استعادة جنوب فلسطين . | | ١٣٥٠ |

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| | ١٣١٢ سيتى الأول بن رمسيس .<br>سيتى الأول يمنح فى أثناء حياته الصلاحيات الملكية لابنه رمسيس . | | هزيمة الحثيين فى قادش .<br>هجوم العاموريين .<br>المعاهدة المصرية الحثية الثانية . | | |
| ١٣٠٠ | ١٣٠١ رمسيس الثانى . | تأسيس بى رمسيس العاصمة الملكية حتى رمسيس الثالث .<br>زواج رمسيس الثانى من أميرة حثية . | الحرب الثانية بين المصريين والحثيين ـ معركة قادش ـ تراجع المصريين ثم هزائم الحثيين .<br>المعاهدة المصرية الحثية الثالثة . | آثار فى النوبه وفى الصعيد وفى الدلتا . إتمام بهو الأعمدة فى الكرنك . | ١٣٠٠ |
| ١٢٥٠ | ١٢٣٥ مرنبتاح .<br>١٢٢٤ أمنموسيس .<br>١٢١٩ مرنبتاح سبتاح .<br>١٢١٠ سيتى الثانى .<br>١٢٠٥ رمسيس سبتاح .<br>إيارسو الفلسطينى يسود مصر. | ١٢٢٤ أزمة فى الأسرة المالكة . | مرنبتاح يصد الغزو الليبى . | قصص فلسفية : « الكذب والحقيقة » ، « الأمير الموعود » .<br>مساجلات الكتاب .<br>قصص أسطورية : « حورس وست » . « الأخوان » . | ١٢٥٠ |
| ١٢٠٠ | سيتاخت يخلع إيارسو ويؤسس الأسرة العشرين .<br>١١٩٨ رمسيس الثالث . | مؤامرات . | حملات إلى ليبيا . | | ١٢٠٠ |

# (تابع) جدول التتابع الزمني للتاريخ المصرى القديم

| | الأسرات المالكة | التاريخ الداخلى | التاريخ الخارجى | الحضـــارة | |
|---|---|---|---|---|---|
| | | | رمسيس الثالث يوقف غزو « شعوب البحر » . | | |
| | | | إعادة تكوين الإمبراطورية المصرية فى آسيا . | | |
| | ١١٦٨ ـــ ١٠٨٥ : س رمسيس الرابع إلى رمسيس الحادى عشر . | تحلل اجتماعى . فسادالكهنة،الرشوة،البؤس، الإضراب . ثورة فى الدلتا . هدم مدينة بى رمسيس . حريحورعلى رأس كهنة آمون يستولى على السلطه فى مصر العليا . | آسيا تفلت من قبضة الفرعون . | | |
| ١١٠٠ | سمنديس يتولى السلطةفى مدينة تانيس . | | | | ١١٠٠ |

# الفترة الانتقالية الثالثة

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| ١٠٥٠ | تقسيم المملكة :<br>١٠٨٥ أسرة تانيس الحادية والعشرون . سمنديس فى تانيس .<br>يحكمان على قدم المساواة<br>١٠٥٤ بسوسنس ( وريث سمنديس ) .<br>لمدة ٥٠ سنة تتتابع سلالتان متوازيتان لفراعنة ( فى الشمال ) وكبار كهنة ( فى طيبة ) .<br>١٠١٤ أمينو فيس . | حريحور الكاهن الأول فى طيبة.<br>طيبة عاصمة دولة مستقلة( من الشلال الأول إلى الهبة ) .<br>باى نجم ( كاهن أول) حفيد حريحور .<br>ماكارع بنت بسوسنس تعتلى العرش بصفتها عابدة إلهية وزوج آمون . | | نشـــاط فنى ضعيف . | ١٠٥٠ |

## (تابع) جدول التتابع الزمني للتاريخ المصري القديم

| | الأسرات الحاكمة | التاريخ الداخلي | التاريخ الخارجي | الحضارة | |
|---|---|---|---|---|---|
| ١٠٠٠ | سيامون – ملك تانيس . | يفشل كبار الكهنة في الجنوب في وقف نشاط العصابات والقضاء على الفتن الداخلية . | الحرب ضد الفلسطينيين . (الاستيلاء على جازر) . | | |
| ٩٥٠ | إعادة التوحيد تحت الأسرة الثانية والعشرين الليبية التي أسسها شيشنق الأول . | يحاول شيشنق أن يجعل منصب كبير الكهنة من اختصاص الملك حكم مطلق . إبراز الصفة العسكرية للسادة ولكبار الكهنة . نظام الطوائف المغلقة . أسماء كبار الكهنة . أيوبوت (ابن الفرعون شيشنق الأول) . | العودة إلى سياسة التوسع . شيشنق يغزو فلسطين وينهب أورشليم . | مجوهرات المقابر الملكية في تانيس . | ٩٥٠ |

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| ٩٠٠ | ٩٢٩ أوسركون الأول .<br>٨٩٣ تاكلوت الأول . | أيولوت .<br>شيشنق ( ابن أوسركون ) .<br>حارسا ايزيس ( ابن الكاهن الأكبر شيشنق ) . | | | |
| ٨٥٠ | ٨٧٠ أوسركون الثانى .<br>٨٤٧ تاكلوت الثانى .<br>٨٢٣ شيشنق الثالث . | نمرود(ابن أوسركون الثانى) .<br>أوسركون(ابن تاكلوت الثانى) .<br>الثورة ضد أوسركون وهزوبه إلى الجنوب . | | بوابة آمون الكبيرة فى تانيس . | ٨٥٠ |
| ٨٠٠ | | حارسا ايزيس يخلفه فى الحكم.<br>بتوباستيس يؤسس الأسرة الثالثة والعشرين فى تانيس . | بداية توسع ملوك كوش صوب الشمال .<br>الأسرة الأولى فى نباتا(ألارا). | الملاحم المسجلة على البردى بالكتابة الديموطيقية .<br>«سلطان الدرع» ، « سلطان العرش » . | ٨٠٠ |
| | مصر تنقسم إلى مملكتين | | | | |
| | ٧٧٢ باماى خليفة شيشنق الثالث .<br>٧٦٧ شيشنق الخامس . | ٧٦٣ (؟) شيشنق الرابع يخلف بتوباستيس .<br>٧٥٧(؟) أوسركون الثانى .<br>من ٧٤٨ (؟) ـ ٧٣٠ (؟) . | | | |
| ٧٥٠ | | | | | ٧٥٠ |

## (تابع) جدول التتابع الزمنى للتاريخ المصرى القديم

| الأسرات المالكة | التاريخ الداخلى | التاريخ الخارجى | الحضارة |
| --- | --- | --- | --- |
| ٧٣٠ تفناخت يؤسس الأسرة الرابعة والعشرين فى سايس.<br>٧٢٠ بوكوريس يخلف تفناخت . | تاكلوت الثالث .<br>آمونروذ .<br>بيعنخى يفرض حماية كوش على الدلتا.<br>مجىء تفناخت يلغى حماية كوش.<br>إصلاحات بوكوريس الاجتماعية |  | أجمل قطع فنية مصنوعة من البرونز فى مصر الفرعونية .<br>النصب التذكارى للنصر فى مدينة نباتا . |

### الدولة النوبيـــــــة

| | | | |
| --- | --- | --- | --- |
| ٧١٥ شاباكا يهدم مملكة سايس ويؤسس الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية . | شاباكا يضم مصر إلى السودان ويعلن نفسه فرعونا أوحد من مرى حتى البحر الأبيض المتوسط . |  |  |

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| ٧٠٠ | ٧٠١ شاباتا كا يخلف شاباكا. | | ٧٠١ سيناخريب يهزم المصريين فى ألتاكو . | الحضارة الفرعونية تصل الى الشلال السادس . | ٧٠٠ |
| | ٦٨٩ طهارقا . | تظل نباتا مركزاً رئيسياً للحكم. | تجنب الغزو . | أهرامات فى كورو ثم نورى . | |
| | | ازدهار مملكة كوش فى ظل طهارقا . | | | |
| | | العابدات الكوشيات فى طيبة. | | | |
| | | | ٦٧١ الأشوريون (أسارحدون) يصلون الدلتا ويستولون على منف. | تكون مدرسة فنية محلية تستمر باقية حتى القرن الخامس الميلادى . | |
| | | | أسارحدون يضع الأمير نخاو (من سايس) على العرش . | | |
| | | ٦٦٩ طهارقا يسترد منف . | ٦٦٧ أشوربانيبال يحتل الدلتا وطيبة . | ازدهار جديد للفن الجنائز . | |
| | ٦٦٤ تالوتامون يخلف طهارقا . | تانو تامون يسترد الدلتا . | | | |
| | | اغتيال نخاو الأول . هروب بسماتيك الى سوريا . | هجوم جديد للأشوريين . | | |
| | | تالوتامون يعاد الى النوبة . | نهب طيبة . | | |

# (تابع) جدول التتابع الزمنى للتاريخ المصرى القديم

| | الأسرات الحاكمة | التاريخ الداخلى | التاريخ الخارجى | الحضارة | |
|---|---|---|---|---|---|
| | **نهضة سايس** | | | | |
| ٦٥٠ | ٦٦٣ بسماتيك الأول يؤسس الأسرة السادسة والعشرين . | عودة بسماتيك .<br>العاصمة منف .<br>بسماتيك يطرد الحاميات الأشورية ويتعقب الأشوريين ليخلص منهم الصعيد نهائياً .<br>تقسيم المملكة إلى أقاليم (نوم) (كما كانت أيام الرعامسة) .<br>نوكراتيس ، المركز الأول لإقامة اليونانيين فى مصر .<br>الدور العسكرى والاقتصادى للأقليات الأجنبية . | | بسماتيك ينشىء مدرسة للمترجمين. | ٦٥٠ |

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| ٦٠٠ | | إحياء نظرية الملك الإله . | | | ٦٠٠ |
| | | الرقابة على سلطة الأرستوقراطية فى طيبة : بسماتيك يحافظ على تقسيم السلطات . | بسماتيك يتدخل لمصلحة الأشوريين ضد البابليين الجدد ( نابوبولاصر ) . سحق جدسياس ملك يهوذا حليف بابل فى مجدو . | | |
| | | سياسة حذرة تجاه الجنوب . | | | |
| | ٦٠٩ نخاو الثانى يخلف بسماتيك . | إعادة تشغيل القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر . | ( ٦٠٥ ) ؟ نبوخذ روصر يهزم نخاو الثانى فى قرقيش . | | |
| | | النهضة الاقتصادية . | | | |
| | ٥٩٤ — ٥٨٨ بسماتيك الثانى . | بسماتيك يخمد عند دنقلة محاولة للأثيوبيين لاسترداد مصر . | | | |
| | ٥٦٨ ٨٨٠ أ \| بريس . | | الأسطول المصرى يساعد مدينة تير فى مقاومتها لحصار نبوخذروصر . | | |
| | | | الحلف مع الليبيين ضد الإغريق . | | |

# (تابع) جدول التتابع الزمنى للتاريخ المصرى القديم

| | الأسرات المالكة | التاريخ الداخلى | التاريخ الخارجى | الحضارة | |
|---|---|---|---|---|---|
| | ٥٦٨ ــ ٥٢٦ أمازيس . | الجيش يخلع أبريس ويتوج أمازيس . دولة سايس فى أوجها . | ٥٧٠ هزيمة أبريس فى إيرازا . أمازيس يقاوم نبوخذروصر . أمازيس يحسن علاقته مع كيرينيا . حوالى ٥٦٥ الاستيلاء على قبرص . السلام يسود الحدود كلها . ازدياد قوة الفرس ابتداء من ٥٥٠ . | فن النهضة فى سايس . نسخ النماذج الفنية للدولتين القديمة والوسطى بتكنيك جديد . | |
| ٥٥٠ | | | | | ٥٥٠ |
| | ٥٢٥ بسماتيك الثالث . | | عزل بسماتيك وهزيمته أمام قبيز . | | |

# مصر ودولة الفــــرس

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| ٥٠٠ | ٥٢٥ ـــ ٤٠٤ مصر ولاية فارسية. الأسرة السابعة والعشرون الفارسية .<br>٥٢٥ قمبيز .<br>عند وفاة قمبيز يعلن الوالى أرياندیس استقلاله .<br>٥٢٢ دارا الأول يطيح بالوالى أرياندیس ويخلف قمبيز . | سياسة ودية نحو دیانی سایس ومنف .<br>نشاط اقتصادى ( إتمام قناة البحر الأحمر ) .<br>المحافظة على التنظيم الاجتماعى السابق .<br>تذمر الكهنة الذين أضيروا فى ممتلكاتهم . | | تأسيس مستعمرات عسكرية يهودية — آرامية .<br>استعمال اللغة الآرامية والكتابة الديموطيقية فى الإدارة . | ٥٠٠ |

# (تابع) جدول التتابع الزمنى للتاريخ المصرى القديم

| | الأسرات المالكة | التاريخ الداخلى | التاريخ الخارجى | الحضارة | |
|---|---|---|---|---|---|
| | ٤٨٥ جزر كسيس الأول يخلف دارا الأول . | ٤٨٦ الثورة فى الدلتا . قمع الثورة . تفاقم الاضطهاد الفارسى . | | | |
| | ٤٨٤ أرثا جزر كسيس الأول . | ٤٦٠ الثورة ضد الوالى أشمينيس . القمع الجديد للثورة . | | | |
| ٤٥٠ - | | آخر القرن الخامس قبل الميلاد : الثورة الظافرة ضد الحكم الفارسى . | | | ٤٥٠ |

# آخر الأسرات الفرعونية

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| ٤٠٠ | ٤٠٤ القائد أميرتى من سايس الملك الوحيد للأسرة الثامنة والعشرين . | مصر المستقلة تحكمها الأوستوقراطية العسكرية فى الدلتا . | | |
| | أزمات فى الأسرات المالكة . | | | |
| | ٣٩٨ نفريتيس الأول أمير منديس يؤسس الأسرة التاسعة والعشرين . | إحياء تقاليد سايس تحت حكم فراعنة منديس سمنود . | سياسة الأحلاف ضد الفرس. | تجميل المعابد ومساكن الحيوانات المقدسة . أسلوب كلاسيكى صارم فى النحت . |
| | ٣٩١ بساموتيس . | إعادة منصب الوزير . | | |
| | ٣٩٠ حاكوريس . | تقسيم الحكم بين « مديرى المزارع » وقواد الأقاليم ( نوم ) . | حاكوريس يفاوض برقة وأثينا ويؤيد الثوار فى بسيديا والقائد أفاجوراس فى سلامينا . | النماذج القديمة فى النحت البارز على الأبنية . |
| | ٣٧٨ نفرتيس الثانى . | | فشل الحلف بين نفرتيس الثانى ولاكديمونيا . | انتشار الخرافة ( القطع السحرية ) . |

(تابع) جدول التتابع الزمنى للتاريخ المصرى القديم

| الأسرات المالكة | التاريخ الداخلى | التاريخ الخارجى | الحضارة |
|---|---|---|---|
| ٣٧٨ نقطانبو من سمنود ( نقطانبو الأول ) يطيح بالملك نفرتيس الثانى ويؤسس الأسرة الثلاثين فى سمنود . | | القائد الأثينى ينظم الدفاع عن مصر. | |
| | | ٣٧٣ فشل محاولة فارسية لإنزال قواتهم على أرض مصر من البحر . | |
| ٣٦١ تاخوس بن نقطانبو . | قسوة النظام الضرائبى الذى وضعه تاخوس . أول فرعون يسك نقوداً . | حملة تاخوس فى فلسطين . | |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| ٣٥٠ | ٣٥٩ نقطانابو . | نقطانابو يستولى على العرش فى أثناء حملة تاخوس فى فلسطين .<br>٣٤١ نقطانابو يتراجع إلى مصر العليا . | ٣٥١ فشل حملة فارسية أرسلها أرتا جزركسيس الثالث .<br>٣٤٢ هجوم فارسى جديد . إعادة فتح مصر . | ٣٥٠ |

## الحكم الفارسى الثانى وفتح الإسكندر لمصر

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٣٤١ أرتا جزر كسيس الثالث . | أرتاجزركسيس الثالث ينهب مصر . | | اضطهاد الآلهة . ترحيل الأصنام المعبودة والكتب المقدسة إلى فارس. |

## (تابع) جدول التتابع الزمنى للتاريخ المصرى القديم

| الأسرات المالكة | التاريخ الداخلى | التاريخ الخارجى | الحضارة |
| --- | --- | --- | --- |
| ٣٣٨ أرسيس .<br>٣٣٥ دارا الثالث .<br>٣٣٢ الإسكندر فى منف . | ٣٣١ تاسيس مدينة الإسكندرية . | ٣٣٢ الإسكندر يفتح مصر<br>٣٣٠ موت دارا الثالث . | |

## مصر الهيلينستية

| | | | |
| --- | --- | --- | --- |
| البطالسة والأباطرة الرومان . | بقاء المفاهيم الاقتصادية للملكية القديمة فى مصر البطلمية والرومانية. | | المحافظة على اللغة الشعبية .<br>الكتابة الديموطيقية فى الإدارة . |

| | | | |
|---|---|---|---|
| | الطبيعة المقدسة للفرعون .<br><br>مفهوم هيمنــة الدولة على الاقتصاد .<br><br>الرقابة الصارمة على الفلاحين . | | من القرن الثالث إلى القرن الأول قبل الميلاد : المعابد الـكبيرة فى فيله ودندرة وإدفو .<br><br>المعبد نصف المدفون فى إسنا ( انتهى العمل فيه حوالى ٢٥٠ ميلادية ) . |

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة - ٩ عمارة الذهب : القاهرة
تليفون - ٩٣٤٤٠٦

١٢٥

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة - ٩ عماد الدين : القاهرة
تليفون - ٩٣٢٧٠٦

١٩٦٦